الجزء الأول :

بين دفتي المصحف أول ما تفتح تجد فاتحة الكتاب تُثني على الله ثم تدعو فتطلب الهدى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المستقيم﴾، ثم في سورة البقرة تجد التعريف بشأن هذا القرآن وأنه ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فتدرك أن الهدى في الوحي، ومن يهتدي بالوحي يحقق معنى الاستسلام والعبودية لله عز وجل.
ثم ينتقل السياق من الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن انقسام الناس تجاهه إلى فئات ثلاث : فئة مؤمنة به ، ةأخرى كافرة، وفئة حائرة مترددة وهم المنافقين.

وفي سورة البقرة مفهوم الاستخلاف وإعداد الأمة للقيام بدين الله، ونزلت في وقت الإنتقال إلى مجتمعٍ جديد -المدينة- ، حيث يتسلم فيه المسلمون الخلافة، فيحكي لهم القرآن نماذج ثلاثة للخلافة:

النموذج الأول: استخلاف الله لآدم - عليه السلام - الذي ميزه الله على الملائكة بالعلم الذي علمه إياه و إختباره له، فعصى آدم ربه مرة واحدة لكن أي نوع من العصيان؟ زلّة، ثم أسرع إلى ربه تائبًا فتاب الله عليه.
وقدر الله الحكيم أن يترتب على أكل آدم وحواء من الشجرة نزولهما من الجنة إلى الأرض لتبدأ رحلة الخلافة في الأرض.

أما النموذج الثاني: بيان أسباب عدم استحقاق بني إسرائيل للخلافة، ومن أبرز هذه الأسباب تعاملهم مع الوحي بالعصيان والتلاعب بكلمات الله وتبديلها، حتى الأوامر التي سمعوها تباطأوا وجادلوا فيها من بعد ما أنعم الله عليهم وفضلهم على العالمين، وكلما ذكر السياق نعمة أنعمها الله عليهم، كان يعقبها بذكر موقف مخز لهم إزاء هذه النعمة.

فقد كانت أول وأكبر نعمة عليهم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ... ﴾[٤٩-٥٠]، وقد أعقبها السياق بذكر أكبر معصية لهم: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾، وعبادتهم العجل أمر دال على انعدام إيمانهم بالغيب، فهم يبادرون إلى عبادة إله يرونه بأعينهم، ويتركون عبادة الخالق سبحانه.
وهذه نعمة أخرى : ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾، وفتح الله لهم أبواب التوبة من عبادة العجل فأمرهم بقتل أنفسهم، وفي المقابل انظر إلى هذا الموقف : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، فطلبهم رؤية الله جهرة يدل على انعدام إيمانهم بالغيب أيضًا.

وبعد أن ذكر السياق نعمة تظليلهم بالغمام ورزقهم من الطعام والشراب رزقا هنيئا، عرض موقفهم المخزي إزاء أمر الله لهم فظلموا أنفسهم وبطروا النعمةوحرفوا كلمة الشكر بتبديلها هزوا ولعبا ، واقترحوا بدل ذلك الرزق عيشة الكدح والعناء ، فأنزل الله عليهم الرجز جزاءً لهم على فسقهم وجحودهم وضرب الله عليهم الذلة والمسكنة :﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ... ﴾

ثم أمر الله بأخذ أوامره على محمل الجد والحزم :﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، فإن عدم إيمانهم بالغيب حرمهم من الوفاء بالعهود والمواثيق بينهم وبين الله تعالى، وهون عليهم الاستخفاف بالأوامر الإلهية والنكول عنها، فصعّب الله عليهم الأمر مثل: قصة البقرة التي أمرهم بذبحها، وهي أن رجلًا قُتل من بني إسرائيل ولما اختلفوا في القاتل، قالوا نذهب إلى موسى يدعو لنا ربه ليبين لنا من القاتل، فقال لهم إن الله ﷻ يأمركم أن تذبحوا بقرة من أجل أن يضربوا القتيل بجزء منها فينطق مبيناً عن من قتله، فقالوا أتهزأ منا؟ وما زالوا يسألونه عن البقرة وأوصافها ويجادلونه حتى شدد الله عليهم، ولولا قولهم في أخر سؤال عن أوصافها ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ لما اهتدوا.

وأراد القرآن أن يصل حاضرهم بماضيهم فانظر كيف وضع بينهما حلقة الاتصال في هذه الآية ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾، فقوله (مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ) كلمة حددت مبدأ تاريخ القسوة ولم تحدد نهايته، كأنها بذلك وضعت عليه طابع الاستمرار وتركته يتخطى العصور والأجيال لينتقل الحديث عن سلفهم إلى الحديث عنهم لما جاءهم رسول من عند الله وهو " محمد ﷺ " مصدقاً لخبر بعثه وصفاته المذكورة عندهم في التوراة ، فكان مقابلتهم أن نبذوا التوراة وراء ظهورهم ,وتركوا ما ينفعهم، فهم يدّعون ظاهرا الإيمان بكتاب موسى عليه السلام والحقيقة إن أعمالهم تدل على غير ذلك .

.

ولقد بين السياق السبب الأكبر لتصرفاتهم ، وهو أنهم قوم ماديون وإيمانهم بالآخرة أو بالغيب قليل أو منعدم :﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ...﴾ [٩٤-٩٦]

فابتلاهم الله بالانشغال بما يضرهم ولا ينفعهم فاتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان و آذوا النبي ﷺ وطعنوا في جبريل وميكائيل بأنهم أعداء لهم وزعموا أنهم من أنزلوا السحر في بابل وقالوا عن نبي الله سليمان أنه ساحر وكافر.

ولم يقتصر السياق على التحذير من اليهود فقط ، بل حذر أيضًا من النصارى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ... ﴾، وانظر قوله تعالى : ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ

﴾، فموقف اليهود والنصارى من الأمة الإسلامية المؤهلة للخلافة في الأرض واحد.

النموذج الثالث (نموذج الوفاء، والتعامل الأمثل مع كلمات الله تعالى):

اختبار الله لإبراهيم -عليه السلام- بأوامره و النتيجة كانت وفاء إبراهيم واستسلامه لله حق الإستسلام فكان "خليل الرحمن". فالذين يستحقون الانتساب إليه هم من التزموا بالصفات المؤهلة للخلافة فقط :﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ... ﴾ [١٢٤-١٢٦]

أنظر كيف كان إبراهيم عليه السلام مستسلماً لأمر ربه، موصياً أولاده بذلك، وذكر الله تحقيقه عليه السلام لمراده، إذ يريد ﷻ من عباده الإستسلام التام :﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ... ﴾، فالسياق يعرض هذه القصة ليبين للمؤمنين أن الاستسلام لأوامر الله هي صفة الأنبياء، فعليهم الالتزام بها ولا ينكلوا عنها مثلما صنع بنو إسرائيل.

ثم عقّب السياق بالرد على اليهود والنصارى الزاعمين زورًا وكذبًا انتماءهم الديني لإبراهيم عليه السلام، ومبيناً أن أبناء الأمة الإسلامية هم فقط من نالوا هذا الشرف : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... ﴾ [١٣٥-١٤١]

أما عن مجتمع المدينة الجديد فقد سمعوا و أطاعوا، فاستحقوا أن يكونوا أصحاب رسول الله ﷺ وكانت حضارة الإسلام.

#ليدبروا

https://www.facebook.com/lydbroteam/

الجزء الثاني :

تتابع سورة البقرة في الجزء الثاني والخطاب في السورة مقسم إلى قسمين : خطاب لبني إسرائيل يبين موقفهم من استقبال الدعوة الإسلامية في المدينة، وبيان زوال شرف الخلافة عنهم بعدما تخلوا عن الصفات التي تؤهلهم لذلك، وخطاب للأمة المسلمة ذات النشأة الجديدة .

فضحت السورة بني إسرائيل وبينت أن من أهم أسباب زوال شرف الخلافة عنهم إنما هو عدم إيمانهم بالغيب الذي دفعهم إلى عدم استسلامهم لأوامر الله ، فتميزت سورة البقرة بأنها سورة بيان منهج الخلافة بين من أضاعوه ومن اقاموه.

وبعد أن ذكر الله لنا نماذج الناس في التعامل مع الوحي في الجزء الأول، وبيّن لنا في الوحي ما شرّعه من أوامر وأحكام وما لا يرضيه من النواهي ليختر كل فريق أي طريق يقصد، نزلت الأيات على رسول الله وصحابته وهم الجيل الأول في الإسلام ليحددوا وجهتهم.

- وكان أول اختبار لهم تغيير القبلة :

فقد كانوا يصلّون لستة عشر أو سبعة عشر شهراً ناحية بيت المقدس، ثم أنزل الله آيات تحويل القبلة ، وكان هذا اختبار للمسلمين قبل غزوة بدر بشهرين حتى يعلم الرسول ﷺ من سيكون مستسلما لله معينا لرسوله قادرا على أن يقيم هذه الدولة. حيث كان المنافقين والكفار حولهم يقولون إن كانت القبلة الأولى هى الحق فمحمد الآن على باطل، و إن كانت القبلة الثانية هي الحق فكان محمد على باطل فهو ليس بنبي، ولكن الؤمنين أطاعوا بالرغم من ذلك فكان تحويل القبلة إشارة إلى نزع الخلافة من بني إسرائيل وتحولها لأمة محمد لتكون مصدر الهداية.

- ثم تتابعت الاختبارات فكان اختبار الصفا والمروة :

حيث كانوا يطوفون بهما في الجاهلية، لكن الإسلام جاء يمحو عادات وعبادات الجاهلية، ويصحح عقيدة التوحيد داخل النفوس، إذ أن التوجه للكعبة والطواف والسعي بين الصفا والمروة لا لتعظيم أحجار ، وإنما تعظيما وامتثالا لأمر الإله الحق

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] لتصل الآيات بالنفس إلى صلاحها الشامل وتزكيتها بكل خصال الخير في منهج الله .

ثم جاء الإجمال في الشرائع الدينية، فإذا كان اليهود حرصوا على الدين شكلا لا موضوعا، وتشبثوا بالقشور ونسوا اللباب ، فاستمسكوا أنتم أيها المسلمون بالحق الأصيل وأركانه المنشودة ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

وبعد إرساء الأساس، تكون إقامة البنيان، وبعد الاطمئنان على سلامة الخارج، يأتي دور البناء والإنشاء في الداخل. لقد تم إصلاح العقيدة التي هي روح الدين وجوهره، فليبدأ تفصيل الشريعة التي هي مظهر الدين وهيكله، لقد خُتمت آية البر كما رأيت بخصلة من خصال البر وهي الصبر التي شعّبتها الآية إلى ثلاث شعب : الصبر في البأساء، والصبر في الضراء، والصبر حين البأس، وهكذا يختار الله لنا من مُثل الصبر أمثلها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ... ﴾ [١٧٨-١٩٧] ، ذلك هو ضبط النفس حين البأس، كفا لها عن الاندفاع وراء باعثة الانتقام والإسراف في القتل، بمعنى ان القتل لا يتعدى إلا إلى القاتل فقط جزاء له على ما فعل .

ثم يختار الله لنا من أبواب الصبر في الضراء أعلاها وهو الصبر على الظمأ والمخمصة في طاعة الله ، ثم تأتي بعدها أحكام الصيام ، ثم يضرب الله لنا مثالا مزدوجا فيه نوعي الصبر في البأساء والضراء، إذ يجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال وهو أحكام وتفاصيل رحلة الحج إلى بيت الله الحرام : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...﴾ [١٨٩-٢٠٢] .

ثم يصعد القرآن بنا إلى تفصيل الأمور الأسرية المتشابكة ويتلطف بالوصول بنا إليها على معراج من الأسئلة والأجوبة، ولكن متى جاءت أحكام الأسرة ؟ جاءت بعد أوامر الصلاة والصيام والحج، وجاءت بعد أمر الله للعباد : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ أى اتبعوا منهج الوحي كله ,فمن يعبد الله حق عبادته ويأخذ الوحي منهجا له في حياته كلها هو من يحسن المعاملة ، فهذا الوحي فيه حياتنا وصلاحنا ونجاتنا.

فيعالج القرآن شئون الأسرة في أثناء اتصالها :﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ...﴾ [٢٢٣-٢٣٢] ، وايعالج شئونها في حال انحلالها وانفصالها : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ...﴾ [٢٣٣-٢٣٧]

وبعد الحديث عن حقوق الزوج والولد يأتي الحديث عن حقوق الله والدين ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ ، والخطاب هنا بالصلاة موجه للمجاهدين، ليحل المشاكل التي يثيرها موقف الجهاد نفسه، فأول هذه المشاكل مشكلة الصلاة في الحرب : ألا يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو تأجيله ؟! ، وإنما الرخصة في صفات الصلاة وهيئتها :﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، والجندي في الحرب تشغله على الأقل مخافتان: مخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه من أخطار الموت او الهزيمة، ومخافة على أهله من الضياع لو قُتل، لذلك انساق البيان الكريم يطرد عن قلبه تلك المخافتين : أما الزوجة فقد وصى الله لها إذا مات زوجها، وكذلك مطلقته سيتقرر لها حقها، وأما خوف الموت، فتنتقل الأبصار نحو قصة قرآنية ليعلم الذي يطلب الموت أنه قد توهب له الحياة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ...﴾ [٢٤٣] ، وأما خوف الهزيمة ، فإن النصر بيد الله ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فانظر هذه القصة : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾ [٢٤٦-٢٥١] لنعلم أسباب زوال الخلافة عن بني إسرائيل ، ومن تلك الأسباب خوفهم من الموت لقلة إيمانهم

بالآخرة وعدم استعدادهم لها ، فقد جادلوا نبيهم في أن يكون طالوت ملكاً عليهم، وخالفوا أمره وشربوا من النهر، وجبنوا عن القتال إلا فئة قليلة منهم، فهزموهم بإذن الله .

هكذا بعدت المخاوف كلها عن قلول المجاهدين بعد أن زودت أرواحهم بزاد التقوى ، وهكذا أصبحوا على استعداد نفسي كامل لتلقي الأوامر العليا.

#ليدبروا

https://www.facebook.com/lydbroteam/

الجزء الثالث :

نستكمل سورة البقرة، وقد انتهى الجزء الثاني فيها بذكر قصة طالوت وجالوت لحملت في ثناياها من الأحداث ما يُبين نبوة محمد ﷺ إذ لا مصدر لنبي أُميّ بمعرفة قصص التاريخ إلا أن يكون وحيًا يوحيه الله ﷻ إليه. ثم استطردت الآيات في الحديث عن الرسل والمرسلين وتفضيل الله لكل نبي، وكيف لا يفضلهم؟! وهم من بلغوا الوحي ونشروه للعالم أجمع.

وقد بيّن السياق للمؤمنين -الذين ارتضاهم الله خلفاء في الأرض- عظمة الله عز وجل، ودعاهم إلى الالتزام بأوامره -سبحانه-، وذلك في أعظم آية في كتابه عزو جل، والتي قيل أن بها اسم الله الأعظم الذى إذا دُعيَ به أجاب: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... ﴾[٢٥٥]. فإذا أردت أن تعرفه، فعليك بتدبر آية الكرسي، فهو سبحانه من يخرج الناس من الظلمات إلى النور بهذا الوحي فكان النور واحدٌ حق، والظلمات كثيرة. كما وُصف الله عز وجل بالحي القيوم، فهو لا يموت، قائم على أعمال العباد وقادر على بعثهم ومجازاتهم عليها.

و ذكر بعدها قصصاً وآياتٍ في إحياء الموتى، وبيّن كيف تكون ولايته للذين آمنوا، وكيف يخرجهم من الظلمات إلى النور:

١. قصة إبراهيم عليه السلام الأولى، ودعوته للملك الظالم، الذي جادل سيدنا إبراهيم فبهته بالحجة والبرهان حتى تحير وانقطعت حجته، وهذا شأن الظالمين: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ... ﴾ [٢٥٨]

٢. قصة الرجل الذي مر على قرية فارغة من سكانها، واستبعد حياتها مرة ثانية فأماته الله مائة عام ثم أحياه، وفي هذا عبرةٌ لنا أنّ إحياء الله لهذه البلدة يبثّ فينا الأمل بإحياء الأمم بعد دمارها وخرابها: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... ﴾ [٢٥٩]

٣. قصة إبراهيم عليه السلام الثانية، حين سأل ربه أن يريه طريقة إحياء الموتى، فأراه الله و أخبره أنه عزيز لا يغلبه شيء، حكيم في أقواله وأفعاله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ...﴾ [٢٦٠].

ثم يتناول الجزء فضيلة التضحية والإيثار في آيات الإنفاق والتي هي أسمى الفضائل الاجتماعية، ثم ينساق إلى رذيلة الجشع والاستئثار وهي أحطّ أنواع المعاملات البشرية في آيات الربا، ويقيم القرآن ميزان القسط في الحدّ الأوسط. ولما كان الطابع البارز في هذا التشريع هو طابع القناعة والسماحة، فقد يوحي إلى النفوس شيئا من التهاون في أمر المال، فجاءت آيتا الدين والرهان لتدفعا عن نفوسنا هذا التوهم وتصوغا للمؤمنين دستورًا هو أدق الدساتير المدنية في حفظ الحقوق وضبطها، تمهيدًا لإنفاقها في أحسن الوجوه.

ثم جاء الأمر في أواخر السورة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. وتذكر نهاية السورة بلاغاً عن نجاح دعوتها :﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ... ﴾ هذا الإيمان الذي يحبه الله، فالداعية دائمًا يسبق قومه بخطوة؛ يؤمنُ أولًا، ثم يأخذ بهم إلى الطريق، وهذا ما فعله محمد ﷺ.

والمتأمل في هذه الآيات يظهر له تناسقها مع مفتتح السورة الذي أمر المؤمنين بالصفات ذاتها، وكأن المؤمنين التزموا بتلك الصفات التي تمثل المنهج المرتضى لخلافة الأرض، حتى عرضت الخاتمة موقفهم المعلن عن إيمانهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واستسلامهم لكلمات الوحي ﴿وَقالوا سَمِعنا وَأَطَعنا ﴾، معتمدين على إيمانهم بالغيب ويقينهم بالآخرة.

ونجد في خاتمة السورة إعادة التذكير بعظمة الله تعالى﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... ﴾ [٢٨٤-٢٨٦]، وفيها الآية التي لما نزلت على الصحابة ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾، فقد جاءوا يجثون على الركب يقولون: يا رسول الله نزل عليك من الأحكام ما نطيق فأطعنا واليوم نزل علينا ما لا نطيق، فقال لهم الرسول: "قولوا سمعنا وأطعنا، لا كما عصت بنو إسرائيل". فقالوها وهم لا يعرفون ما وراء قولهم هذا، لأن أوامر الله تُطبق وإن لم تُعرف النهاية، وهذا الوحي هدًى بكل ما جاء به. فلما قالوها فُتح باب الأمل والتخفيف على مصراعيه أمامهم ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

هنا، وصل الجيل الأول لمرتبة التسليم التام مثلما أتم إبراهيم عليه السلام كلمات الله، فكانوا على نهج إبراهيم في نموذج

خلافته للأرض وكما دعى عليه السلام وهو يضع القواعد: ﴿ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُب عَلَيْنَا﴾، توجهوا بالدعاء، وجمعوا في دعائهم طلب العفو والمغفرة والرحمة وتوجهوا إلى الله بأنه مولاهم ووليهم، لينصرهم على القوم الكافرين في إعلاء كلمة الله في الأرض ونصر الدين ﴿ وَاعفُ عَنّا وَاغفِر لَنا وَارحَمنا أَنتَ مَولانا فَانصُرنا عَلَى القَومِ الكافِرينَ﴾. فهم قد فهموا الغاية المقصودة من هذه السورة ، والتزموا بمنهج الله أفضل التزام ، فاستحقوا بكل جدارة أن يكونوا هم فقط المؤهلين لخلافة الله في الأرض، بعد زوال هذا الشرف عن بني إسرائيل.

خُتِمَت سورة البقرة بالحديث عن إيمان الرسول والمؤمنين بكلّ الكتب المنزّلة، وبدأت سورة آل عمران بالحديث عن تلك الكتب والإيمان بالله عزّ وجلّ. كما نتعوذ في الفاتحة من السير في طريق المغضوب عليهم والضالين، فجاءت سورة البقرة تستطرد في شأن المغضوب عليهم وهم اليهود محذرة من اتباعهم، وجاءت بعدها سورة آل عمران تستطرد في شأن الضالين مُحذره من ضلالهم.

سميت السورة باسم «آل عمران» لورود ذكر اصطفائهم على العالمين فيها : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، والاسم دال على اصطفاء الله لأهل التوحيد والصلاح؛ إذ أن الله عز وجل اصطفى أمة النبيﷺ (أمة التوحيد الخالص) كما اصطفى آل عمران، وهذا الاصطفاء له معالم ومعارج وأسباب، وهي : البذل، والعطاء، والاستسلام لله، وتلقي كل ما يأتي منه بالقبول والطاعة، والتبتل والدعاء له، والتوحيد والإخلاص له سبحانه. وتعالج السورة ما نتج عن موقف الناس تجاه اصطفاء أمة التوحيد من حقد، إن كان على صعيد أهل الكتاب، أو على صعيد المشركين وما نتج عنه من مواقف الأمم الأخرى.

فجاءت مقدمة السورة تقرر وحدانية الله عز وجل وتبين اصطفاء الأمة الإسلامية الموحدة ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .. ﴾، وجاءت مذكرةً بقدرة الله عز وجل على تصوير الناس في الأرحام

كيف يشاء وهو ملائم لما بينته السورة من خلق عيسى عليه السلام في رحم أمه بلا أب، واستجابة دعوة زكريا عليه السلام حينما رزقه الله يحيى وكان قد بلغ من الكبر عتيًا، وامرأته عاقر.

كما بينت المقدمة موقف الكافرين من أمة التوحيد المصطفاة وهوّنت من شأنهم، من خلال الإشارة إلى موقعة بدر الكبرى التي أيد الله بها المؤمنين بنصرٍ عزيز: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾، وتتابعت الآيات مبينة أن الاصطفاء في ميزان الله مختلف عن ميزان البشر، فليس للشهوات المختلفة من النساء وحب البنين والمال اعتبار عند الله، إنما الاصطفاء في ميزانه تعالى يكون بالتقوى والعمل الصالح. ثم انتقلت السورة إلى بيان موقف أهل الكتاب من أمة التوحيد، فبينت حسدهم وحقدهم، وخروجهم من ظل الاصطفاء الرباني بعدما كفروا بآيات الله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ ..﴾ [١٩-٢١]، وبيّن السياق أن الاصطفاء أمرٌ بيد الله وحده ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾، ثم ذكر عددًا من التوجيهات للأمة، فقد حذرهم الله من موالاة الكافرين: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وأمرهم بطاعة القائد المصطفى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ ، وذلك تهيئة لما سيذكره السياق من استئصال فرية الشرك والتحريف العقدي عند أهل الكتاب من الجذور.

ثم جاءت الآيات بعرض قصة عيسى عليه السلام من أصلها، ببيان أن أم مريم (امرأة عمران) كانت مؤمنة بالله، متبتلة إليه أن يحفظ ذريتها من الشيطان الرجيم، فاستجاب الله دعاءها وبين أنها جديرة بالاصطفاء الرباني بسبب ذلك، وكافأها بأن كفَّل ابنتها نبيًا كريمًا (زكريا). ثم جاء ذكر اصطفاء زكريا وابنه يحيى عليه السلام، وذلك للتشابه الواضح بين خلق عيسى عليه السلام بلا أب، وإكرام زكريا عليه السلام بيحيى مع كونه كبير في السن وامرأته عاقر: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ...﴾ [٣٨-٤٠]. وجاء بعد ذلك اصطفاء مريم عليها السلام بمعجزة عظيمة من الله، وقد أمرها الله بما يؤهلها لذلك :﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ...﴾ [٤٢-٤٥]، فقد كانت مريم عليها السلام طاهرةً صالحةً عابدةً قانتةً لربها عز وجل، وفي ذلك رد لأي فرية قد تخطر في البال حول ما سيأتي عن ذكر عيسى عليه السلام.

وعرضت الآيات أهم حدث في القصة، وهو ما يتعلق بعيسى عليه السلام، وبيان أنه ليس إلا عبد من عباد الله، اصطفاه الله وعلمه الكتاب والحكمة، وجعله رسولا إلى بني إسرائيل ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ..﴾ [٤٨-٥١]وأنجاه الله من كيد الماكرين﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ..﴾، ولا يخفى ما في ذلك من رد فرية قتل عيسى عليه السلام أو صلبه.

وعادت الآيات لتلقين الحجة لأمة التوحيد المصطفاة ضد شبهات أهل الكتاب ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ..﴾ [٦٠-٦٥]، فالسورة تدعوهم إلى الدخول في مظلة الاصطفاء الرباني، ليكونوا من أهل التوحيد، ولكنهم تولوا، وأعلنت أمة التوحيد استسلامها لله عز وجل.

وردّت الآيات شبهاتٍ كثيرة من أهل الكتاب تجاه أمة التوحيد، كالافتراءات المتعلقة بإبراهيم عليه السلام، فبين أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما، وما كان من المشركين، وأنّ أولى الناس به إنما هم أمة التوحيد بقيادة المصطفىﷺ.

#ليدبروا

https://www.facebook.com/lydbroteam/

الجزء الرابع :

لتعايش آيات القرآن تحتاج معايشة زمن الجيل الأول من المسلمين، تمثله في نفسه البشرية وحياته الواقعية ومشكلاته الإنسانية وتتأمل قيادة القرآن لهذا الجيل قيادةً مباشرة في شؤونه اليومية وأهدافه الكلية، فترى كيف أخذ القرآن بيده خطوة خطوة وهو يعثر وينهض، يحيد ويستقيم، يضعف ويقاوم، ثم توجِه الخطاب لنفسك أنت وتستشعر مخاطبة القرآن لك مثل ما خاطبهم وأنت موقن أن نفسك التي تعرفها تملك قدرة على الاستجابة لهذا الوحي والانتفاع به في الطريق .
فتعيش لحظات بناء مجتمع مسلم بالمدينة، ونزول الآيات بالأحكام، والاختبارات التي تقومه حتى يزدهر البناء، وتبدأ المخاطر تظهر واحدة تلو الأخرى تريد هدم المجتمع، منها (شبهات يثيرها أهل الكتاب ومن حولهم من المدينة من اليهود والمنافقين، وشهوات في النفوس متعلقة بحب الدنيا، وحروب بالسيف تريد القضاء على المسلمين) ، وتبصر شأن الوحي وهو يثبت النفوس ويقودها للثبات ضد كل سبب لهدم هذا المجتمع، فكانت سورة آل عمران بها أكثر آيات الوحي احتواءً للدعاء وحديثا عن العبادة، للثبات أمام مخاطر الهدم.

و تميزت سورة « آل عمران » ببيان الاصطفاء الخاص لآل عمران، والاصطفاء العام لأمة الإسلام ، فجاءت الآيات بالرد على شبهات أهل الكتاب ، فإبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما ، وأولى الناس به إنما هم أمة التوحيد بقيادة المصطفىﷺ ، وبينت الآيات موقف الناس من ذلك ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ...﴾ [٨١-٨٣]، وانظر قوله تعالى المؤكد لهذه الحقيقة ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾

وأمرت السورة المؤمنين بعدد من الأوامر لتهيئتهم لخوض المعركة مع المشركين : (فأمرتهم بالنفقة في سبيل الله ، أداء العبادات كالحج ، وتحريم موالاة الكافرين من أهل الكتاب ، وتقوى الله حق تقاته ، والاعتصام بدينه الذي اصطفاه لهم وعدم التفرق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبيان خطورة المنافقين ، والتهوين من شأن الكافرين وبيان أسباب خروجهم عن مظلة الاصطفاء الرباني) ، وانظر هذه الآية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...﴾ [١١٠]. ففيها دلالات اسم (آل عمران) وما يعبر عنه من بيان الأسباب التي اصطفاهم ﷻ بها على العالمين، وقد ربط مع بيان صفات الأمة الموحدة المصطفاة، التحذير من موقف أهل الكتاب المغالين في عقيدتهم مغالاة أخرجتهم من إصطفاء الله لهم.

لنصل لموقف المشركين من أمة التوحيد ، وذلك من خلال عرض مواقف من غزوة أحد، فنزل القرآن ليبطل الفرية والشبهة ،ويثبت القلوب والأقدام ويبرز من الحدث العبرة ، ويحذر الجماعة المسلمة من الكيد الماكر ، ويقودها قيادة الخبير بالفطرة ، العليم بما تُكنّ الصدور ، وأول توجيه تراه أن السياق سمى الانسحاب من المعركة فشلا ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا .. ﴾ ومن ذلك أيضا بيان معية الله في المعركة للمتقين الصابرين ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ ..﴾ [١٢٤-١٢٦]. وتبتعد قصة الخصومات الشخصية تماما عن جو الحروب الدينية عندما يقول الله لنبيه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ...﴾، ومن العجيب أن السورة في سياق الحديث عن المعركة ذكرت تحريم الربا، والإنفاق في السراء والضراء، والإسراع بالتوبة بعد مقارفة كل ذنب :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ...﴾[١٣٠-١٣٦] وذلك لإصلاح الجبهة الداخلية وتطهيرها من كل انحراف حتى تكون أهلًا للنصر، فكيف ينتصر في المعركة من يأكل الربا !، فالمعارك الدينية ليست انتصار لأشخاص قدر ما هي انتصار لمبادئ طاهرة، ومسالك قويمة .

وذكرت السورة غزوة أحد لتثبّت القلوب ولتكن عبرة، فعند المصائب من الناس من يستسلم و يترك الأمر، و منهم من يحزن حزنا شديدا يكاد يميت قلبه، و منهم من يشك بدينه فيهلك، فيربط الوحي على القلوب بقوله ﷻ :﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ففي الأحداث بيان للناس عامة لتطمئن القلوب، أما المؤمن الذي على يقين ففيها هداه وموعظته.

ولاحظ كيف يرفع السياق الروح المعنوية والنفسية لدى المؤمنين، بعدما ما أصابهم من القرح في معركة أحد، مبينا أن الله ناصرهم إذا تحقق فيهم الإيمان ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ .. ﴾[١٣٩-١٤٠]و، يذكر السياق أن الابتلاء سنة الاصطفاء ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾[١٤١-١٤٣] ، فمضت السورة تعيد للمؤمنين تماسكهم وثقتهم، ويُثبِّت السياق المؤمنين ببيان حال الذين اصطفاهم الله في الأمم السابقة﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا ... ﴾ [١٤٦-١٤٨].

ومن التوجيهات المذكورة: التحذير من موالاة الكافرين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴾[١٤٩]والتحذير من كيد المنافقين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا .. ﴾[١٥٦]، والثقة بنصر الله و الثقة بالقائد المصطفىﷺ ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ .. ﴾[١٦٠-١٦١]و والتحذير من كيد الشيطان ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ .. ﴾وغير ذلك من التوجيهات الكثيرة التي تبقي المؤمنين في ظل الاصطفاء الرباني.

لنصل لخاتمة السورة ، وفيها تلخيص لكل ما سبق ، فتبدأ بإشارة موحية إلى دلالة هذا الكون وإيحاءاته للقلوب المؤمنة .ثم تأخذك في دعاء رخي ندي من هذه القلوب ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ...﴾ [١٩٠-١٩٤] ، ثم تجيء الاستجابة من الله فيذكر فيها الهجرة والجهاد والإيذاء في سبيل الله ليتقرر أن

الابتلاء لأجل الاصطفاء سنة إلهية ماضية إلى يوم الدين ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ .. ﴾ ، وأكدت الخاتمة أن الله سيجازي من هاجر وقُتل وقاتل في سبيله ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم .. ﴾ وجاء التهوين من شأن الكافرين فقد تعلو رايتهم وتنتصر جيوشهم ولكن العاقبة للمتقين: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ..﴾.

وخُتمت السورة بآية جامعة تقتضي الفلاح لمن يلتزم بها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. هذا توجيه للمسلمين أن يصبروا على تعاليم الدين الذي شرفهم الله به ،وأن يكونوا في رباط دائم ... هذا نداء لنا، فهل نلبي النداء ؟

وبعد أن خُتمت سورة آل عمران بالأمر بالتقوى، افتتحت سورة النساء بالأمر بها، وإنك لتجد سورة البقرة تحدد المنهج الذي يتبعه من يستخلفه الله في الأرض، وتبين ما يحبه الله من اتباع كلمات الوحي والاستسلام لأوامره، ثم تأتي بعدها سورة آل عمران للثبات على هذا المنهج، ثم ننتقل لسورة العدل و التقوى « النساء » لتنصر الضعيف وتقيم حقوق النساء واليتامى في المجتمع الجديد، وتشرع أحكام المواريث و تأمرنا بالتقوى، فتكون أساسا لمن يؤتمن خليفة في هذه الأرض .

وتعود الدلالة السياقية لإسم السورة إلى بيانها لكثير من الأحكام الخاصة بالنساء، وهي أحكام شاملة للناحية الاجتماعية كأحكام اليتامى من النساء، وأحكام الزواج والطلاق ، وبيان اللواتي يحل للرجل الزواج منهن واللواتي يحرمن، كما وأن هذه الأحكام شملت الناحية المالية أيضاً، فقد فصّلت في أحكام الميراث، وجعلت للنساء نصيباً مفروضاً منه، وبينت بعض أحكام المهر، وفي تسمية السورة بهن حث على إيتائهن حقوقهن التي كتب الله لهن. فقد كانت النساء أكثر الفئات استضعافاً في الجاهلية، فجاء الإسلام وجعل لهن سورة عامة باسمهن لإنصافهنّ .

بدأت السورة بالدعوة إلى تقوى الله تعالى، والإحسان إلى الفئات المستضعفة فى المجتمع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ..﴾ [١-٣]، وقد ذكرت المقدمة اليتامى من النساء لكونهنّ أشد فئات المجتمع استضعافاً ثم أمرت بحفظ حقوق السفهاء كونهم فئة مستضعفة لخفة عقولهم، وأمرت بإيتاء اليتيم ماله بمجرد إيناس الرشد منه، وأمرت بالإحسان لمن يحضر قسمة مال المتوفى من أولي القربى واليتامى والمساكين، وحذرت من الإساءة وعدم الالتزام بالإحسان والعدل، مُذَكِّرة بخوف الإنسان على ذريته الضعيفة بعد موته لتلمس القلوب لمستين قويتين: أولهما مكمن الرحمة الأبوية والإشفاق الفطري على الذرية الضعاف وتقوى الله الحسيب الرقيب، فإن أردت حفظ الله لك ولأهل بيتك عليك (بالتقوى) ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

ثم انتقل السياق إلى التفصيل في عرض بعض الأحكام المتعلقة بالنساء، وقد ابتدأ بالأحكام المالية الخاصة بهنّ، ففصّل في موضوع الميراث، وحدد أصحاب الفروض بين الرجال والنساء بقدر لا مجال للزيادة أو النقصان فيه، وراعى في ذلك مختلف الحالات كموت الزوج أو الزوجة أو الأب ، وختم ذلك بتحذيرمن الإساءة: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ..﴾ [١٣-١٤] .

ثم انتقل السياق إلى بيان الأحكام الإجتماعية المتعلقة بعلاقة الرجال مع النساء،فحذّر من الفاحشة ، وعقّب ذلك بالحث على المسارعة إلى التوبة .

ثم رفع مستوى المشاعر الإنسانية في الحياة الزوجية، فأمر بالإحسان إلى النساء فى المعاشرة بالمعروف، حتى لو كرههنّ الرجال، فعسى أن يكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، وبيّن للرجال عدم جواز أخذ شئ من المهر بعد الطلاق، وحرم عليهم ما نكح آباؤهم من قبل، وفصّل فى بيان المحرمات من النساء على الرجال بالنسب، والرضاع، والمصاهرة بما يتفق مع النظرة التي ينظر بها الإسلام للنفس البشرية ، فكان ذلك الرُقي الذي لم تعرفه البشرية إلا من وحي السماء (القُرآن الكريم).

#ليدبروا

https://www.facebook.com/lydbroteam/

الجزء الخامس :

نجد سورة البقرة تحدد المنهج الذي يتبعه من يستخلفه الله في الأرض وتبين ما يحبه الله من إتباع كلمات الوحي والاستسلام لأوامره ، ثم تأتي بعدها سورة آل عمران للثبات على هذا المنهج، وتليها سورة النساء بالعدل والرحمة وإقامة الحقوق لتكون أساس لمن يؤتمن خليفه في هذه الأرض ..

جاءت سورة النساء لتنظم الشئون الداخلية والخارجية للمسلمين ، وتمحو ظلام الجاهلية فتضع الحقوق العامة للناس فيما يتعلق[بالمرأة و البيت و الأسرة و الدولة و المجتمع وحقوق الضعفاء و حقوق أهل الكتاب].

فكأننا نشهد المعركة التي يخوضها المنهج الرباني بهذا القرآن ليمحو رواسب الجاهلية في ميدان، ومعركة يخوضها في ميدان آخر مع الأعداء الراصدين، وتعرض السورة نموذجًا من فعل القرآن في المجتمع، الذي انبثق من خلال نصوصه وآياته وأحكامه وتشريعاته .

فجاء في مقدمة السورة تقرير لحقيقة الربوبية ووحدانية الله ، ولحقيقة الإنسانية ووحدة أصلها الذي أنشأها منه ربها ، وحقيقة قيامها على قاعدة الأسرة واتصالها بوشيجة الرحم ، مع استجاشة هذه الروابط كلها في الضمير البشري ، ودعوته إلى تقوى الله والإحسان وإيتاء الفئات المستضعفة في المجتمع حقوقها .

ثم تبع ذلك تنظيم علاقات الميراث والتكافل بين أفراد الأسرة الواحدة ، والتفصيل في عرض بعض الأحكام المالية والاجتماعية الخاصة بالنساء.

ثم ننتقل إلى الدعوة لتحقيق الإحسان والعدل في المجتمع الإيمانى ، والتحذير من المنافقين ، وهم العدو الداخلي ، ومن اهل الكتاب، وهم العدو الخارجي، وبيان حقدهم على الهدى الرباني الذى حظى به المؤمنون ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ..﴾ [٣٦]، فيأمر بالتوحيد الذي هو رأس الدين، ولاحظ الأمر بالإحسان للوالدين وذوي القربى وغيرهم مما يحقق التكافل والتراحم والأمانة والعدل والمودة والإحسان.

ثم أمر المؤمنون بالإحسان في أداء العبادة، فنهاهم عن الصلاة وهم سكارى -قبل تحريم الخمر- وأمرهم بالاغتسال من الجنابة، وبيّن حكم التيمم.

ثم انتقل السياق إلى التحذير من العدو الخارجى الحاقد الحاسد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ...﴾ [٤٤-٤٥]

ثم جاء الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل، وهو يحدد معنى الدين ، وحد الإيمان وشرط الإسلام وربط كل الأنظمة والتشريعات التي تحكم حياة الفرد والمجتمع ، فالله وحده هو صاحب الحق في وضع هذا المنهج بلا شريك . والدين هو الاتباع والطاعة للقيادة الربانية التي لها وحدها حق الطاعة والاستسلام، ومنها وحدها يكون التلقي، فالمجتمع المسلم له قيادة خاصة متمثلة في رسول الله ﷺ وفيما يبلغه عن ربه ، وتبعية هذا المجتمع لهذه القيادة هي التي تمنحه صفة الإسلام وتجعل منه (مجتمعًا مسلمًا) وشرط هذه التبعية التحاكم إلى الله والرسول (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

وبعد ما مضت السورة تبين أخلاق المنافقين في سياق مطرد وإن شابه وصف لطائفة أخرى تحتاج إلى معالجة متأنية حكيمة وهم ضعفاء الإيمان:﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ...﴾[٧٢-٧٣] ، والصلة موجودة بين المرضى والموتى ، بين إيمان مفقود وإيمان معتل يمكن أن يضيع إذا لم تتم مداواته ، ومن لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته ، ولا يغلق عنهم أبوابها . بل من حصل منه غير ما يليق أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه ، فلهذا أمر بالإخلاص والجهاد في سبيل الله ، فينتقل السياق إلى بعض أحكام القتال، وهنا يرتفع نبض السورة الهادئة الأنفاس ! ويشتد إيقاعها ، وتحمى لذعتها في التوجيه والتنديد ! ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ..﴾[٧٤-٧٥]، فعلى المسلمون أن يقاتلوا لانقاذ الضعاف من إخوانهم المسلمين ، الذين لا يستطيعون الهجرة من دار الحرب وراية الكفر ، كي لا يفتنوا عن دينهم ولا يستظلوا براية غير راية الإسلام.

وقد حذر السياق من المنافقين المتقاعسين عن القتال والمتنصلين منه والمخالفين لأحكام الله فيه، ووضع قواعد المعاملات الدولية بين دار الإسلام والمعسكرات المتعددة التي تدور معها المعاملات ، فمن الأحكام التى فصل فيها السياق حكم المعاهدين وأصحاب الهدنة، فقد أمر بعدم قتالهم طالما حفظوا عهودهم، وهذا من الاحسان والعدل مع الاعداء.

وبمناسبة الحديث عن القتال، بيّن السياق حكم من يقتل أخاه المؤمن متعمداً، فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وبيّن حكم القاتل أخاه المؤمن خطأً، وحرم على المقاتلين قتل من يُلقى السلام من الناس دون بينة، و بعد ذكر ثواب المجاهدين أعقبه بذكر القاعدين عن الجهاد الذين سكنوا في بلاد الكفر﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾[٩٧-٩٩] ، وكان ضمرة بن القيس من المستضعفين بمكة وكان مريضا فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده احملوني فإني لست من المستضعفين و إني

لأهتدي إلى الطريق فحملوه على سرير فمات في الطريق فأنزل الله :﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فأى حكم أحسن وأعدل من حكم الله؟

وقد فصل السياق حكم صلاة الخوف، وهذا من باب الأمر بالإحسان في العبادة وفيه تكامل هذا المنهج في مواجهة الحياة الإنسانية في كل حالاتها، ومتابعة الفرد المسلم والأمة المسلمة في كل لحظة وكل حال ...

وحذر السياق من مشاقة الرسول ﷺ من بعد ما تبين الهدى، فالرسول جاء يحمل من الله منهجًا كاملا للحياة يشتمل على العقيدة والشعائر التعبدية ،كما يشتمل على الشريعة والنظام الواقعي لجوانب الحياة البشرية كلها ، وهذه وتلك كلتاهما جسم هذا المنهج ، بحيث تزهق روح هذا المنهج إذا شطر جسمه.
وحذر من اتباع سبيل غير المؤمنين، وبين أنه تعالى لا يغفر لمن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وحذر من الشيطان المريد الذي توعد بني آدم بالإغواء والإضلال، وبذلك يبرز الفرق بين أولياء الرحمن الآمرين بالعدل والإحسان وأولياء الشيطان الصادين عن سبيل الله، ولكي يكتمل الترغيب والترهيب، عرض السياق مصير الفريقين يوم القيامة.

كان هذا فيما يتعلق بأحكام المجتمع بمختلف فئاته، مع الأمر بالحفاظ على المجتمع، من العدو الخارجى الحاقد، ثم عاد السياق إلى التفصيل ببعض أحكام النساء كونهنّ أكثر فئات المجتمع استضعافاً، فحذر من حرمان يتامى النساء من حقوقهن، وأمر بالإحسان للمستضعفين من الولدان، وأمر الرجال بالعدل بيين الأزواج قدر المستطاع، ويُلاحظ كثرة الدعوة إلى تقوى الله، للتحذير من الإساءة للمستضعفين النساء واليتامى.

وقبل الإنتقال إلى الخاتمة أعاد السياق التحذير من العدو الداخلي، وبيّن السياق أن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وهم مذبذبون بين الإيمان والكفر، ثم أمر المؤمنين بعدم اتخاذ الكافرين أولياء،وبيّن نكول أهل الكتاب عن الهدى الذي أُنزل على موسى وعيسى عليهما السلام، فأخذوا الربا وقد نهوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وفي بيان ذلك دعوة للمجتمع المسلم إلى الإلتزام بما أنزل على نبيهم ﷺ من الهدى.
فهذا القسم الأكبر من السورة كما ترى يأمر المؤمنين بتحقيق الإحسان والعدل داخل المجتمع المؤمن لاسيما النساء، ويحذّرهم من حقد وحسد أعدائهم فى الداخل والخارج .

/https://www.facebook.com/lydbroteam

الجزء السادس :

مازلنا مع بناء مجتمع لأمة تزدهر يوما بعد يوم، يشرع الله لها كل صغيرة وكبيرة كي يحيا الإنسان كريما.
نتابع سورة «النساء»، وقد تميزت بأنها سورة الدعوة إلى إقامة الإحسان والعدل داخل المجتمع المؤمن لاسيما المستضعفين، مع التحذير من حقد الأعداء في الداخل والخارج.
فلما ذكر تعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة، ذكر هنا أنه لا يحب إظهار الفضائح والقبائح، إلا في حق من زاد ضرره وعظم خطره، ثم تحدث عن اليهود وعدد بعض جرائمهم الشنيعة مثل طلبهم لرؤية الله، وعبادتهم العجل وادعائهم صلب المسيح عليه السلام، واتهامهم مريم البتول بالفاحشة وغيرها .

ثم عادت السورة في أواخرها للحديث عن أهل الكتاب، وهناك قسمان قد وضحا لكل أحد:
-مؤمن بالله وبرسله كلهم وكتبه.
-وكافر بذلك كله.
-بقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجيه من عذاب الله:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ... ﴾[١٥٠-١٥١]، ولئلا يتوهموا أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر قال الله تعالى فيهم :﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾.

وكما ذكرت بداية السورة حق الأعراض، وشرعت عدم الخوض في عرض امرأة إلا بالإتيان بأربعة شهداء يشهدون بارتكابها الفاحشة﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾، ذكرت هنا تضيع اليهود لحقوق الأعراض وخوضهم في مريم عليها السلام ظلما وبهتنا﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾.
ولما ذكرت السورة في بدايتها حقوق الأموال، ذكرت هنا تضيع اليهود لتلك الحقوق: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ...﴾، وكما ذكر الله معايب أهل الكتاب ذكر الممدوحين منهم ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ... ﴾[١٦٢] .

ثم تتوجه الآيات نحو الإيمان الذي يحبه الله ويرضاه لعباده، فأمرت المؤمنين بإلتزام الهدى الذي أُنزل على نبيهم ﷺ وأنه ذات الهدى المنزل على الأنبياء والرسل من قبله، وحذرت من الكفر به أو الصد عنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ... ﴾[١٧٠]، وأعادت دعوة أهل الكتاب إلى الانتهاء عمّا حرفوه من الكتاب والغلو في

الدين، وبينت مصير من التزم بما جاءه من هدى ربه، ومن استنكفوا واستكبروا عنه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ...﴾ [١٧٣]

وكما افتتحت السورة بدعوة الناس إلى تقوى الله والأمر بالإحسان والعدل للمستضعفين لاسيما النساء منهم، خُتمت بدعوتهم إلى التزام البرهان والنور الذى جاءهم من الله، وبيّنت حكم الكلالة (وهي أن يهلك هالك ليس له ولد ولا والد) وما فيه من الإحسان والعدل سيما النساء : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ..﴾ [١٧٤-١٧٦] .

ثم ننتقل من حقوق الأفراد الخاصة في سورة النساء إلى الحقوق العامة في سورة (المائدة) التي جاءت للوفاء بالعقود والمواثيق مع الله، فإسم السورة يحذّر من الكفر بعد الإيمان، حيث كان نزول المائدة على بني إسرائيل بمثابة عقد بينهم وبين الله تعالى، فلما كانت سورة النساء تشتمل على عدة عقود: كعقد النكاح، والمواثيق، وغيرها، بدأت سورة المائدة بأمر الوفاء بالعقود: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، العقود والمواثيق التي أخذها الله على الأمم، والعهد الذي أخذه الله على الجيل الأول في الآمة -جيل الرسول ﷺ وصحابته-، العهد الذي بين العبد وبين ربه بالإلتزام بعبوديته، وعدم الانقاص من حقوقها شيئا، والذي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والذي بينه وبين الوالدين والأقارب ببرهم وصلتهم، والذي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات. فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه.

تبدأ السورة بمقدمة تأمر المؤمنين بالوفاء بالعقود التى بينهم وبين الله والمتمثّلة بجملة من الأحكام والتوجيهات الربانية لهم :-

فجاءت السورة تعرض بعضاً من هذه الأوامر والنواهي: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، ومنها حفظ شعائر الله، وتحريم القتال في الشهر الحرام، وتحريم الصيد على المحرم، وبيان المحرمات من اللحوم، وتحليل الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب، والتفصيل في أحكام الوضوء والتيمم، وحفظ الشهادات.

ثم يأتي وجوب المفاصلة العقدية بين الأمة الإسلامية المأمورة بالالتزام بعقودها مع الله، وبين أهل الكتاب الذين نقضوا هذه العقود ولم يلتزموا بها :-

فتذكرنا السورة بما فعلت كل أمة مع هذا العهد، وتبدأ بميثاق أمتنا والأمر بالتزام هذا الميثاق :﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وفي المقابل نقض اليهود والنصارى والجاهلين لهذه العقود، فابتدأ السياق باليهود: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ...﴾ [١٢-١٣]، وثنى بالنصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ...﴾ [١٤]، فموقف هاتين الأمتين من عقودهما مع الله واحد ، وهو النقض والترك والإهمال .

وفي خلال عرض مواقف اليهود والنصارى من عقودهم مع الله، يدعوهم الله إلى ترك باطلهم واتباع الهدى الذى أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا ..﴾ [١٥] ،فإنه ﷺ قد جاء بنور أخرج به الأمة من ظلام الجاهلية، وأنشأ به مجتمعا جديدا يحيا بسلام في المدينة ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ثم إنتقل السياق إلى جانب من العرض القصصي لموقف مخزٍ لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... ﴾ [٢٠-٢٤]، فقد أحجموا عن القتال حينما أمرهم ربهم به، فكان جزاءهم أن حرم الله عليهم تلك الأرض المقدسة .

وأعقبت الآيات تلك القصة بعرض قصة ابنَي آدم، وفيها نقض لعقد تحريم القتل بغير حق، فقد أقدم القاتل على قتل أخيه حينما كان مأموراً بالإحجام عن ذلك ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ..﴾ [٢٧-٣٠].

فقصة بني إسرائيل إحجام في موضع الإقدام، وقصة ابنَي آدم إقدام في موضع الإحجام، وكلاهما مخالف للعقد مع الله فيما يتعلق بالقتل.

وانظر كيف عُقب على القصتين بتحريم القتل بلا سبب على بني إسرائيل الذين كانوا كثيراً ما يقدمون على قتل أنبيائهم: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فكأنما قتل الناس جميعا..﴾ [٣٢]، فكلما أخذ الله عليهم عقد بينهم وبينه، خالفوا هذا العقد ونكلوا عنه.

ثم ذكرت السورة بعض الحدود لإقامة الحقوق العامة في المجتمع، فذكرت عقوبة قاطع الطريق والسارق والمفسدين في الأرض، بعد أن ذكرت في مقدمة الآيات الحلال والحرام في الطعام والشراب والصيد والذبائح والأسرة والزواج، ثم أتبع هذه الأحكام بالوفاء بعهد الله بالسمع والطاعة وإقرار لما نزل به الوحي، أن الحكم والتشريع لله وحده ليس لأحد من البشر .

فإذا تأملت مخاطبة الوحي للأمم من أول سورة البقرة تجده يبدأ ببيان أخطاء أهل الكتاب في التعامل مع كلمات الله وشرعه، ثم تأتي آل عمران لمناقشتهم بالحجة وتثبيت المؤمنين، وبعدها سورة النساء تنتقد غلو أهل الكتاب واختلافهم في عقيدتهم وتضيع الحقوق، لتشتد المواجهة في سورة المائدة ويظهر نقض العهود ويظهر الحق، ويعلن الوحي أن الحكم لله وحده الذي لا يقبل الله غيره، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿فَأُولَئِكَ

هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾، فمن بدل حكم الله فقد كفر وظلم وفسق، واتبع نهج اليهود والنصارى، وخالف نهج الجيل الأول الذي أوفى بالعهد، فوفاء الأمة بعهد الله هو التحاكم إلى شرعه، فأوفي بعهدك واتبع أمر ربك، وأقم شرعه على نفسك، يقام في أرضك .

وتنتهي السورة بخاتمة مؤكدة لما سبق، وقد حذّرت الآيات أكثر من مرة من موالاة اليهود والنصارى بعدما بيّن نقضهم لعقودهم مع الله، وبيّن لنا الموالاة الحق :﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا..﴾[٥٥-٥٦]، واستمرت السورة فى تعداد معايبهم، فهم يتخذون الصلاة هزواً ولعباً، ويظهرون الإيمان ويخفون الكفر، ويسارعون فى الإثم والعدوان وأكل السحت، ويقولون عن الله أقوالاً تظهر كفرهم، كقولهم: يد الله مغلولة، ويشركون بالله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ ..﴾ [٧٢-٧٣].
ولا يخفى الترابط بين هاتين الآيتين وبين قصة المائدة مع التعقيب الإلهي عليها من تبرئة عيسى وأمّه عليهما السلام من فرية الشرك .

#ليدبروا

https://www.facebook.com/lydbroteam/

الجزء السابع

نتابع سورة «المائدة»، والتي تميّزت بأنها سورة تدعو المؤمنين للوفاء بالعقود التي بينهم وبين الله تعالى. وقد نزلت آيات الوحي بالبيان والإعلان أن الحكم لله وحده، ولا كتاب سماوي يحكم في الأرض غير القرآن، وكأنه إتمامُ وفاءِ عهود الأمم مع الله الذي تنادي به هذه السورة، ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ... ﴾.

وبعد ذلك تعلن الآيات وتنفذ أمر الله، فتقيم كل حقوق الأرض بالدستور الجديد المُعلن الذي ارتضاه الله، فجاءت تقيم الأحكام والحدود: (حد الحرابة - الزنا - السرقة - القصاص - تحريم الخمر والميسر)، مُعلنةً لمن يرتضي الحكم بغير هذا الوحي بأن ذلك كفر بالله وظلمَ وفسق.

وبعد أن قرر السياق وجوب المفاصلة العقديّة بين أمة الإسلام وبين أهل الكتاب، ذكرت الآيات للأمة عددًا من الأوامر والنواهي والتوجيهات، فتأتي أحكام الذبائح والصيد وجزاء قتل الصيد والطير في حالة الإحرام، فهذه الكعبة جعلها الله لقيام مصالح الناس، وعلّق في قلوبهم تعظيمها، فلا يقع فيها أذى لأحد، ففيها أمِنَ الوحش والطير والناس. كما أعادت الآيات التذكير بأكل الحلال من الطيبات، وحفظ الأيمان وبيان كفارتها، وأمرت باجتناب عادات الجاهليين، فحرّمت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام. وفي هذا تركيز على أمر الأمة الإسلامية بحفظ عقودها مع الله تعالى بدءًا من التوحيد وانتهاءً بالأحكام العملية التعبدية، مع التحذير مما وقع به أهل الكتاب والجاهليون من نقض العقود وأجلّها عقد التوحيد. ثم تنتقل لأحكام الوصية، وفي ذلك تمهيدٌ للقلوب لإيصالها لمشهد الحشر وسؤال عيسى عن قومه الذين نقضوا العهد مع الله، فانظر إلى هذا الوحي كيف يصاحب القلب ويمضي به من حال إلى حال ومن مشهد إلى مشهد!

وبهذا نصل إلى الخاتمة، وهي مشهد أخروي يعرض جانبًا من نعم الله تعالى على سيدنا عيسى عليه السلام، والمعجزات التي أيّده وكرّمه بها. ويركز السياق على إبطال دعوى بني إسرائيل بألوهية عيسى وأمه عليهما السلام، وهم بذلك نقضوا أهم عقد بين الله والبشر: عقد التوحيد، ﴿يومَ يجمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فيَقولُ ماذا أُجِبتُم قالوا لا عِلمَ لنا إنَّكَ أَنتَ عَلّامُ الغُيوبِ۝إذ قالَ اللَّهُ يا عيسَى ابنَ مَريَمَ اذكُر نِعمَتي عَلَيكَ وَعَلى والِدَتِكَ إذ أَيَّدتُكَ بِروحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النّاسَ فِي المَهدِ وَكَهلًا ....﴾.

وتصل بنا هذه الخاتمة إلى قصة المائدة، والتي تُنسب السورة إليها، وهي مما امتنّ الله به على عبده ورسوله عيسى. وقد أسهم العرض القصصي في بيان نقض بني إسرائيل لعقد التوحيد، فعرضت هذه القصة طلب بني إسرائيل لمعجزة مادية محسوسة يرونها بأعينهم، حتى تطمئن قلوبهم بالإيمان. ولاحِظ أنّ الذي طلب هذه المعجزة هم الحواريون، وهم خلاصة بني إسرائيل وصفوتهم، فكان طلبهم هذا بمثابة عقد بينهم وبين الله تعالى، ولمّا أجاب الله طلبهم رتّب على من يكفر بعده عقوبة شديدة﴿قالَ اللَّهُ إِنّي مُنَزِّلُها عَلَيكُم فَمَن يَكفُر بَعدُ مِنكُم فَإِنّي أُعَذِّبُهُ عَذابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العالَمينَ﴾.

وهكذا اكتمل العقد بين الله تعالى وبني إسرائيل، ونزّل عليهم مائدةً رأوها بأعينهم ولم يعد لهم حجة، لكن هل التزموا بالوفاء بهذا العقد؟ إنّ التعقيب الإلهي على هذه القصة يجيب على هذا السؤال: ﴿وَإِذ قالَ اللَّهُ يا عيسَى ابنَ مَريَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنّاسِ اتَّخِذوني وَأُمِّيَ إِلٰهَينِ مِن دونِ اللَّهِ ... ﴾[١١٦-١١٨]، فيُفهَم من السياق أنهم أشركوا عيسى وأمه عليهما السلام مع الله تعالى، وقد برّأ الله عبده ورسوله من هذه الخيانة، إذ إنها حصلت بعد رفعه من بينهم. ويجيبُ عيسى عليه السلام وقومه في انتظار الجزاء: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ....﴾. فيُومئذٍ يحكَم بالخزي على من كفر ونقض ميثاق الله، وبحُسن الجزاء لمن التزم بعقده مع الله تعالى ووفى به وصدق: ﴿ قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ... ﴾.

وبعد انتهاء سورة المائدة، ننتقل مع كلمات الوحي من رحاب المدينة عائدين إلى مكة وسورة الأنعام، وقد قال ابن عباس فيها: "نزلت سورة الأنعام بمكة ليلًا جُملةً واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح".

وتعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى حديثها عن بعض أحكام الله فيما يتعلق بالأنعام، وفي تسمية السورة بالأنعام إشارة إلى أن الله هو خالقها وهو الذي سخرها للإنسان، وبالتالي فهو وحده المشرّع للأحكام المتعلقة بها، وأي تشريع من البشر فيها من دون الله إنما هو مظهر من مظاهر الشرك والجهل. وإنّ هذه السورة بمثابة آياتٍ حاملةٍ للنور، تخاطب العقل والفكر والشعور، لتوقِن النفس أنّ لهذا الكون إله واحد يُعبَد، فإن عملتْ فليوافق عملُها اعتقادها فتعمل ما أمرها الله به مستسلمةً له.

ولما كانت الأنعام عند العرب مصدر أكلهم وشربهم وسائر دروب رزقهم ومواصلاتهم وثرواتهم، كانت عصب الحياة وعظمت في نفوسهم، فلم يكونوا مستعدين لإدخالها ضمن إطار العبودية، ظنًا منهم أن حرية التصرف في الأموال لا تتعارض مع العبادة، فسُميت السورة بهذا الاسم؛ توجيهًا لمن خالف عمله اعتقاده فرفض الاستسلام لأمر الله وهو يدّعي الإيمان، فلا إله إلا الله شهادة تقتضي الاعتقاد والتطبيق.

تبدأ الآيات معلنة أن لهذا الكون خالق يُحمَد حمد الثناء والحب، فهو رب الناس وخالقهم تولاهم ليبين لهم النور، فجعل النور ليهدي، والظلام ليضل؛ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾. أفَبعد أن علمت مَن خلقك تعدل عنه وتتركه!

وبعد ذلك توضح الآيات ظلم النفس حين ترفض الحقيقة وتجادل فيها، فجاءت صور إعراض المشركين عن الله ﷻ :-

١- طلبوا الدلائل والمعجزات والآيات من الله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ....﴾.

٢- طلبوا من النبي طرد بعض المسلمين من حوله لأنهم فقراء، عن ابن مسعود قال: "مر الملأ من قريش على رسول الله فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك! أفنَحن نكون تبعًا لهؤلاء! اطردهم من عندك، فلعلك إن طردتهم اتبعناك"، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ...﴾.

٣- طلبوا أن يُنزَل عليه ملك: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾.

٤- طلبوا أن ينزل عليهم العذاب، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾.

وتبين الآيات كيف يكون الخطاب مع المعرضين، وكيف تعامل الله ﷻ معهم، فذكّرهم بعاقبة المعرضين من قبلهم ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ...﴾، ثم ذكّرهم بالدار الآخرة ويوم القيامة وتمنيهم الرجوع للدنيا ليؤمنوا ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ... ﴾، وأخيرًا حاورهم بإعمال العقل ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾.

ثم انتقلت الآيات إلى عرض قصَصي يؤكد تفرد الله تعالى بالإلهية والحكم، فعرض السياق قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وقد كان مشركو مكة يحبونه ويعظمونه ويفتخرون أنهم من نسله، وكان العرب يزعمون انتماءهم الديني إليه، فجاءت القصة لترد عليهم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ...﴾ [٧٤-٧٦].

وقد ملأ الله قلب إبراهيم -عليه السلام- يقيناً بما أراه من الآيات الكونية، وأكرمه بآيات الوحي، في حين أنّ المكذبين ملأهم الصم والبكم والعمَى بالغفلة. ولاحِظ أيضًا استدراجه -عليه السلام- لعقول قومه ليسوقهم إلى التوحيد، فأبطَل كون الكوكب إلهًا، وكذلك القمر، والشمس، ثم صرخ فيهم مبيناً تبرّأه مما يشركون، وتوجيه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا مسلمًا. وعندما حاجّه قومه، رد عليهم بأنه لا يخاف آلهتهم بل يخاف خالقه فاطر السماوات والأرض. وخُتِمت القصة ببيان ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾، فقد أرسلهم الله بالآيات ليحكموا بين الناس بمراده سبحانه.

ثم تتابَع ذكر الأنبياء من بعد إبراهيم عليه السلام، واهتدائهم وعبادتهم لله، و أمر الله لرسوله ولنا بالاقتداء بهم: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وأخيرًا، تعود الآيات لتبيّن قدرة الله وآياته في كونه، وفي هذا دلالة على وجوده وعلمه وقدرته وحكمته سبحانه، ليعلم كل منا أنّ حظه من (الإيمان) على قدر (علمه بالله) و تعظيمه إياه ﷻ.

#ليدبروا

https://www.facebook.com/lydbroteam/

الجزء الثامن

تتابعت آيات الوحي في سورة « الأنعام » تؤصل العقيدة في النفس البشرية بأن الله إله واحد حق خالق كل شيء لا إله إلا هو، وبآيات تخاطب من أعرض تذكره بالآخرة، وآيات قدرة الله ومصير من أعرض من قبل مثل قوم عاد وثمود، وآيات تُعْمِل العقل كما خاطب إبراهيم عليه السلام قومه، وآيات تسأل، وآيات تجيب، وآيات يتفكر فيها المؤمن فلا يزداد إلا إيمانًا ويقينًا. هذا الوحي هداية لمن أراد الُهدى ومن عُمي فلا يرى.

انتقل السياق بعد تقرير أن الإلهية والحكم لله وحده وهو وحده المشرع، إلى التفصيل في افتراء المشركين على أحكام الله تعالى، وأهمها ما يتعلق بالأنعام﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ..﴾{١١٨-١١٩}، فافتراء المشركين على أحكامه تعالى إنما هو ضلال وهوى وجهل واعتداء.

وفي وسط الحديث عن أحكام الأنعام، عرض السياق مدى الغواية المشتركة بين الجن والإنس، فقد كانت الجن توحي للإنس بوساوس الشرك والكفر، والإنس يطيعونهم، وهم بذلك خرجوا عن شرع الله حتى استحقوا العذاب :﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ..﴾{١٣٠}.

وجاءت الآيات ببعض مظاهر اعتداءاتهم الباطلة على حكم الله، وما هم به من سفاهة العقل، وعدّد تبارك وتعالى شيئا من خرافاتهم لينبّه بذلك على ضلالهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذي جاء به الرسول ﷺ لا يقدح فيه أصلا، فهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق. إنهم جعلوا لله نصيبا من الأنعام، ولشركائهم نصيبا آخر، وجعلوا بعض الأنعام حجراً لا يطعمها إلا من يشاؤون، وأحلوا لذكورهم ما في بطون الأنعام وحرموها على إناثهم، وإن كان ميتة فهم فيه سواء.

وبعد هذا العرض انتقل السياق إلى رد أهوائهم وبيان أن الله هو منشئ الجنات المعروشات وغير المعروشات، وهو منشئ الأشجار بمختلف الطعوم، وهو خالق الأنعام وجاعلها للناس حمولة وفرشاً، وأمرهم بأن يأكلوا مما رزقهم الله وأن لا يتبعوا خطوات الشيطان الذي يرسل جنوده لإغواء البشر.

ولما ذكر الله تعالى ذم المشركين على ما حرموا من الحلال ونسبوه إلى الله، وأبطل قولهم، أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حرمه الله عليهم، وأن ما عدا ذلك حلال، لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله، فبين أن الله أحل من الأنعام ثمانية أزواج، اثنين من كل من الضأن والمعز والإبل والبقر ، ثم سألهم ليسْخر من جهلهم وليردعهم عنه: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ

حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ {بعض الآية ١٤٣}، ثم بيَّن أنه لا يجد فيما أُوحي إليه من الخالق الحكيم سبحانه محرمة من الأنعام إلا ما كان ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير أو ما أهل لغير الله به، ففيه بيان أن الله عزّ وجل إله حق أنزل وحي السماء هداية للناس يهديهم إلى النور وهو يشرّع سبحانه بمقتضى علمه و عدله وحكمته، فبَّين أن الأطعمة تحرم لسببين إما كونها رجس فتكون ضرر (ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير)، وأما لسبب عقدي (ذكر عليه اسم غير الله شركا به)، فكان فسقاً. هذا تكامل في تشريع يجمع كل ما يحتاجه الإنسان من العبادة الروحية والاحتياجات المادية ويكرم الإنسان بعبادته ويجعله خليفة في هذه الأرض، ولكي يكتمل الترهيب عرض السياق ما جُوزي به اليهود حينما افتروا على أحكام الله تعالى، وبيان ما حرمه الله عليهم، وأن ذلك إنما هو جزاء بغيهم على أحكام الله .

انتقل السياق بعد ذلك إلى بيان ما أحله الله وحرمه من الأمور العقدية والأحكام الاجتماعية، فتقارن الآيات بين حالهم في الجاهلية وكيف حكموا بالباطل، وفي المقابل هذا النبي الكريم الذي يحل ويحرم على أساس شَرع الله، فأمر المؤمنين بعدم الشرك بالله شيئا، وبالإحسان إلى الوالدين، وبعدم قتل الأولاد بسبب الفقر، وعدم القرب من الفواحش، ما ظهر منها وما بطن(والنهي عن عدم قرب الفواحش أبلغ من النهي عن فعلها لأنه يشمل النهي عن مقدماتها ووسائلها الموصلة إليها)، وبعدم القرب من مال اليتيم، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط .

ويأتي جزاء من اتبع أمر الله فموسى عليه السلام أحسنَ في ما أنزل الله إليه في واقع الظلم، فأتاه الله التوراة فيها التفصيل الذي هو رحمة كي لا يختلف الناس﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ.. ﴾، فلا تنتظر التغيير، أحسن في مكانك يفتح الله لك أبواب المغلقة، لتأتي الآية مباشرة بعدها لأمة محمد﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾، أي اجعلوه إماما، هذا الوحي إماما يهدي إلى صراط مستقيم وهذه الأحكام مما بينه الله في كتابه ووضحه لعباده، هذا صراط الله الموصل إليه﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ..﴾ {١٥٣}.

لنصل إلى الخاتمة وفيها تأكيد لما جاء بالسورة ، فأعادت الأمر باتباع شرع الله، وبيان أن ما سواه ضلال، وأعادت التذكير بوجوب الإيمان بآيات الله القرآنية، وعدم الإعراض عنها كما أعرض السابقون:﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ..﴾ {١٥٧}، وببيان أن دين النبي محمد ﷺ إنما هو دين إبراهيم عليه السلام من قبل، وهو الدين القائم على توحيد الله في العبادة: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ..﴾ {١٦١-١٦٣}.

وكما افتتحت السورة ببيان دلائل الآيات الكونية والقرآنية عل تفرد الله بالإلهية والحكم، ختمت ببيان أنه وحده الخالق للبشر والمدبر لشئون حياتهم، مع الترغيب باتباع حُكمه والترهيب من الإعراض عنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ..﴾ {١٦٥} .

بعدما بينت سورة الأنعام الفارق بين حكم الجاهلية وحكم الوحي الذي شرعه الله، و جاء الأمر باتباع الوحي في نهاية السورة ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾، افتتحت سورة الأعراف بالأمر باتباع الوحي أيضًا ﴿اتَّبِعوا ما أُنزِلَ إِلَيكُم مِن رَبِّكُم وَلا تَتَّبِعوا مِن دونِهِ أَولِياء﴾.

نزلت سورة الأعراف بعد أمر الله لنبيه بالجهر بالدعوة في مكة، تتكلم السورة عن أحوال الناس أمام الدين إما القوة والثبات على طاعة الله ﷻ، أو الثبات والإصرار على معصيته، فعرضت تاريخ البشرية منذ أن خلق الله آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة على أرجح الأقوال إلى وصف حال من تساوت حسناتهم وسيئاتهم يوم القيامة، إذ يوقفون على أعلى سور بين الجنة والنار، ثم يدخلهم الله الجنة بفضله ورحمته، فمحور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بآيات الله تعالى وتعظيمها من خلال عرض مسيرة العقيدة التي جاءت بها هذه الآيات عن طريق الرسل في التاريخ البشري، والتحذير من بأس الله في الدنيا والآخرة لمن كذّب بها واستكبر عنها. وأهل الأعراف أكثر الناس خوفاً من بأس الله في ذلك الموقف العصيب .

جاءت مقدمة السورة داعية إلى الإيمان بالقرآن المنزل على النبى ﷺ، كونه آخر الآيات التى أنزلها الله على الأنبياء والرسل: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ ...﴾ [١-٣]، ومحذرة من بأس الله وعقوبة من لم يؤمن بآيات الله يوم القيامة، ﴿وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ..﴾ [٤-٥] ، وفيها أيضاً أن سبب الخسران في يوم القيامة هو: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ..﴾ {٩}.

ثم انتقل السياق إلى عرض مسيرة عقيدة التوحيد، فابتدأ السياق بقصة آدم عليه السلام كي لا ينسى الإنسان أن الشيطان غرر به ليخرجه من الجنة، وأقسم على إذلال أبناء آدم جميعا ولا يزال يقطع الطريق عليهم حتى لا يعودوا إلى الجنة، وهى قصة منسجمة تماماً مع التحذير من العقوبة الأخروية، لأنه عليه السلام يمثل البداية للبشر، ويوم القيامة يمثّل نهاية

مطافهم، من أجل ذلك عُرض مشهد الأعراف الذي يبيّن حقيقة وقوع بأس الله يوم القيامة بمن استكبر عن آياته، واللافت أنك تجد فى القصة تركيزاً على تكبر إبليس عن الأمر الإلهي بتفصيل لا تجده فى سورة أخرى من القرآن، ولاحظ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ..﴾ {١٣}،فإبليس أول المتكبرين، وهو أكبر داع إلى التكبر عن آيات الله.

وبعد سرد قصة آدم عليه السلام اتجه الحديث إلى أولاده على مر العصور، فقد نجح الشيطان في إخراج آدم من الجنة، فهل ينجح في حرمان بنيه منها؟، فنودوا أربع مرات ليسمعوا نصائح ربهم التي تمثل الفطرة لتهيئة النفس لتلقي عقيدة التوحيد:﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ...﴾ {٢٦-٣٥}، وفيها تصريح بالدعوة إلى الإيمان بآيات الله ورسله وعدم التكبر عنه، ثم انتقل السياق إلى مشهد أخروي يبرز حقيقة وقوع بأس الله فى المكذبين والمستكبرين عن آياته:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ... ﴾{٤٠}، وحقيقة أمان المؤمنين من بأس الله تعالى، أن الذى نجاهم إيمانهم بأيات الله ورسله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ..﴾ {٤٢-٤٣}.
ويأتى مشهد الأعراف بعد هذا البيان الموجز ليؤكد هذه الحقيقة بأجلى صورة كاشفاً عن مصير الطوائف المختلفة، فهناك المؤمنون، ثم أصحاب الأعراف، ثم الكافرون، ولاحظ قوله تعالى عن المستكبرين والكافرين: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ..﴾ {٤٤-٤٥}، وكيف حاق بهم بأس الله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ..﴾ {٥٠-٥١}.

ثم انتقل السياق إلى ذكر بعض الأدلة العقلية على التوحيد، وفيها مزيد دعوة إلى تعظيم الآيات التي أنزلها الخالق العظيم على رسله عليهم السلام، فالله الذي يغشى الليل النهار، ويسخر الشمس والقمر والنجوم، ويرسل الرياح بُشراً، وينزل من السماء ماء فيحيي به بلدة ميتاً، كذلك يخرج الموتى.
ولما ذكر الله تعالى من أدلة التوحيد جملة صالحة، أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى التوحيد مع أممهم المنكرين لذلك، وكيف أيد الله أهل التوحيد وأهلك من عاندهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد ومعتقد واحد: {الآيات:٥٩-٩٥}.

الجزء التاسع

نتابع سورة الأعراف والدعوة إلى الإيمان بآيات الله تعالى وتعظيمها من خلال عرض مسيرة العقيدة التي جاءت بها هذه الآيات عن طريق الرسل في التاريخ البشري، وصراع الحق والباطل، والتحذير من بأس الله في الدنيا والآخرة لمن كذّب بها واستكبر عنها.

وتكتمل معنا قصة شعيب عليه السلام بعد ذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى التوحيد مع أممهم المنكرين لذلك، وكيف أيد الله أهل التوحيد وأهلك من عاندهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد ومعتقد واحد: {الآيات:٥٩-٩٠}.
و كل هذه القصص حَوَت تركيزاً على الدعوة إلى الإيمان بآيات الله ورسالاته، وتركيزاً على موقف المستكبرين والمكذبين وبيان كيف حاق بهم بأس الله، وتركيزاً على نجاة المؤمنين من ذلك البأس، وذلك متناسق أشد التناسق مع مشهد "الأعراف" الذي اختير اسم للسورة والذي أكدّ كل ذلك فى اليوم الآخر بالتفصيل .

وبعد ان ذكر الله تعالى حال تلك القرى و حال أهلها، يعقب ذلك بأنه قد رسم لهم الطريقين{لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }، ثم يذكر الله السبب الأساسى الواضح فى هلاك تلك الأمم، وأن الله ما اهلكهم إلا بسبب إنتكاساتهم، سواء الإنتكاسات الفطرية "قوم لوط" أو الانتكاسات فى التعاملات، أو الإنتكاسات فى الدين ،ويثبت قانوناً ربانياً يقي المؤمن من ذلك، ثم يوجه الآيات إلى من سيرث الأرض من بعد هلاك تلك الأمم وهم بنو إسرائيل قوم موسى عليه السلام لتكون لهم عبرة أن يوحدوا الله و يلزموا طريق الحق .

فتأتي قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقد امتازت قصته في هذه السورة بعدَّة أمور، فقد عرضت الموقف المستكبر لفرعون وملئه: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ..﴾ {١٠٦-١١٢}، وفصلت في عرض الآيات التسع التي أيّد الله بها موسى عليه السلام ولا نجد ذلك في سورة أخرى من القرآن، وعرضت موقف فرعون وملئه منها:﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ... ﴾{١٣٣-١٣٢}، فكان الاستكبار والتكذيب سبب غرقهم: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾{١٣٦}
أما فيما يتعلق بقصة موسى عليه السلام مع قومه من بني إسرائيل فنجد فيها أموراً قد انفردت هذه السورة بعرضها، ومن ذلك: ذكر طلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام آلهة يعبدونها بعدما مرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فكان هذا المشهد عرضاً لموقفهم من آيات الله التي رأوها بأمّ أعينهم، ثم كانت النتيجة أنهم أرادوا عبادة إلهٍ غيره! ولم يكد موسى عليه

السلام يفارقهم حتى اتخذوا العجل إلهاً من بعده، وانظر كيف نزل بهم بأس الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾{١٥٢}.

ومن ذلك طلب موسى عليه السلام رؤية الله عزوجل، واصطفاء موسي سبعين رجلاً لميقات الله، فأخذتهم الرجفة ، وبمقارنة بسيطة بين هذين الأمرين نجد أن موسى عليه السلام قد قال حينما أفاق ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾{١٤٣}، وأما بنو إسرائيل فقد أصروا على الكفر حتى يروا الله جهرة، فأخذتهم الرجفة، فشتان بين مقولة موسى عليه السلام، وبين موقف قومه .

ومن ذلك التركيز على أهمية الإيمان برسالات الله إلى موسى عليه السلام : ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ...﴾{١٤٤-١٤٥}، ولاحظ قوله تعالى في المتكبرين والمكذبين بتلك الآيات: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. ﴾{١٤٦-١٤٧}، وفي سياق ذلك تأتي دعوة إلى الإيمان برسالة سيّدنا محمد ﷺ كونه يمّثل نهاية العرض التاريخي لمسيرة العقيدة التي جاءت بها آيات الله المنزلة على رسله، فانظر قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ..﴾{١٥٧-١٥٨}.

ومن ذلك التفصيل في مخالفتهم يوم السبت وإنكارهم على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ثم تجد أن الله قد أنزل بهم بأسه فمسخهم قردة وخنازير.

فتجد أن السياق يركز على المواقف المشينة لبني إسرائيل بعدما رأوا من آيات الله ما رأوا ، لكنهم أصرّوا على الاستكبار والكفر، وفي كل مرة ينالون قسطاً من بأس الله .

انتقل السياق إلى التحذير العام لبني آدم من الشرك، والدعوة إلى نبذه، والالتزام بالتوحيد أصل الرسالات الإلهية، مع ذكر مصير أحد الذين اتبعوا أهواءهم وانسلخوا من آيات الله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ..﴾ {١٧٥-١٧٧}، وهذا السياق يشمل كل فرد، وكل أمة تأتيها هداية الله فتزهد فيها .

ثم يعود السياق إلى التأكيد على حقيقة الحساب الأخروي ، مع ذكر أدلة عقلية تثبت هذه الحقيقة، وقد نصحهم الله تعالى أن يجتنبوا مصائر الأولين بأن يحسنوا علاقتهم بالله، ويدعوه سبحانه بأسمائه الحسنى، و يبتعدوا عن الشرك القبيح، والظن السيء: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ...﴾{١٨٠}وتجد في سياق الحديث عن ذلك قوله تعالي المحذر من مكر الله وبأسه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ..﴾{١٨١-١٨٣} .

ثم جاء في خاتمة السورة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التحذير من الشرك بالله ﷻ ، باعتباره أكبر مظاهر التكذيب بآيات الله، والتذكير بالتحذير من الشيطان وأعوانه، ، ولما كان الإيمان باليوم الآخر امتداد للإيمان بالله وأسمائه وصفاته فإن النفس البشرية تتطلع إلى معرفة ميقاته والساعة المؤدية إليه، فنزل الوحي رافضا هذه المحاولات: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ..﴾ {١٨٧}.

وتختم السورة بتعظيم آيات الله وبيان أنه ليس للنبي ﷺ أي دور فيها سوى التلقي من الله ﷻ ، فهو عبد لله وحده ولا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعا، والتحذير من التكذيب والاستكبار عن رسالته ﷺ :﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ..﴾{٢٠٣-٢٠٥}.

والسجدة في الآية الأخيرة كأنما جاءت لتزيد في النفس الاستعداد للحسم، فربما بهذه السجدة يفيق الغافل من غفلته، ويحسم موقفه السلبي إذا عرف بين يدي من يسجد، فيعود إلى الحق (إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾{٢٠٦}

بعد الصراع بين الحق والباطل على مر التاريخ في سورة الأعراف نصل إلى الفرقان في أول معركة بين المسلمين والكفار يوم فَرَق الله بين الحق والباطل، بين عهد قديم وعهد جديد ، بين تاريخ للبشرية اسْتُضعف فيه الإسلام وتاريخ آخر فيه بداية عزة الإسلام .. فإذا رأيت في سورتي البقرة وآل عمران تأسيس وتأصيل معالم المجتمع المسلم الجديد، و في سورتي النساء والمائدة التتميم والتكميل، وفي سورتي الأنعام والأعراف الخصومة والجدال، فسورة الأنفال والتوبة فيها الجهاد والمنازلة والمفاصلة بين الحق والباطل .

النافلة : عطية الطوع من حيث لا تجب، ومنه نافلة الصلاة، والجمع : أنفال، ووصف الغنائم بالأنفال يدل على أنها عطية وزيادة من الله للمسلمين.

نزلت سورة الأنفال تعقيبا على غزوة بدر التي كان من أحداثها أن غنم المسلمون بعض الغنائم من المشركين،. وبداية السورة بالأنفال التي هي نتيجة معركة بدر فيه تربية نفسية للمؤمنين بأن المبدأ أهم من الغرض الدنيوي الزائل ، فالاسم يحذر من أن يتحول قتال المسلم من إعلاء كلمة الله إلى طلب المغانم الرخيصة، ومن جهة أخرى تطمئن السورة المؤمنين إلى أن القتال الخالص لله سيؤدي في النهاية إلى الأنفال التي هي الزيادة.

ومن مقاصد هذه السورة أنها تعطي مبررات تقرير إلهية الله في الأرض وتحقيق منهجه في حياة الناس، فحديث السورة عن غزوة بدر الكبرى التي جعلها الله فرقاناً في مجرى التاريخ البشري، لا يجوز معه الاختلاف على الغنائم القليلة في تلك الوقعة،

فهذه المعركة بجملتها من صنع الله وتدبيره، بقيادته وتوجيهه، بعونه ومدده، له وفي سبيله ، ومن ثم تجريد المسلمين من الأنفال، وتقرير أنها لله وللرسول، حتى إذا ردها عليهم كان ذلك منه منة وفضلا.

جاء في المقدمة سؤال يحوي عتابا وتوجيها للمؤمنين حول موضوع الأنفال، إذ لم يكن من المفترض فيهم أن يقاتلوا مع رسول الله من أجلها، ولذلك رفعها الله من أيديهم وجعلها في يد الله ورسوله ﴿يَسأَلونَكَ عَنِ الأَنفالِ قُلِ الأَنفالُ لِلَّهِ وَالرَّسولِ ...﴾ {١-٤}، و بعد أن رفع حكم الأنفال إلى الله ورسوله ، أمرهم بتقوى الله وإصلاح ذات البين، وطاعة الله والرسول ، وكل ذلك بمثابة تعبئة نفسية للمؤمنين، ولاحظ الأمر بالإنفاق الذي هو بمثابة تعبئة مادية للجهاد، ولاحظ أيضا وعدهم بالرزق الكريم من لدن الله تعالى، فالمنفق إنما ينفق ابتغاء الأجر والثواب من الله فقط، ولا يلتفت إلى عرض الدنيا .

ثم انتقلت السورة إلى زيادة البيان في تربية المؤمنين على التعبئة النفسية والمادية للجهاد في سبيل الله بالحديث عن غزوة بدر، وقد قدم تعالى _أمام هذه الغزوة المباركة - الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها، لأن من قام بها استقامت أحواله وصلحت أعماله التي من أكبرها الجهاد في سبيل الله، وبشرط أن تكون النية خالصة له تعالى، وقد كان أول توجيه لهم معاتبتهم على كراهية بعضهم القتال، وتفضيلهم لغنيمة قافلة أبي سفيان﴿كَما أَخرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَريقًا مِنَ المُؤمِنينَ لَكارِهونَ...﴾ {٥-٨}، و حذر من تفضيل عرض الدنيا على القتال، فالله تعالى بحكمته أراد أن تتحول الظروف من غنيمة القافلة إلى المواجهة العسكرية لقريش، فلا ينبغي للمؤمن الجدال في ذلك، علما بأن الله قد وعدهم بالنصر.

ثم انتقل السياق إلى بيان بعض ما امتن الله به على المؤمنين في تلك المعركة، فقد استجاب الله لاستغاثتهم وأمدهم بألف من الملائكة، وغشاهم النعاس وجعل لهم أمنة من لدنه، وأنزل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به، وأذهب عنهم رجز الشيطان، وربط على قلوبهم، وثبت أقدامهم، وأمدهم بالنصر، فالله قادر على نصر المؤمنين على الكافرين بدون مباشرة قتال، ولكن أراد أن يمتحن قلوب المؤمنين ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وإذ كان الأمر كذلك فلم تسألون عن الأنفال إذا ؟
ومن الأوامر التي تعبئ المؤمنين نفسياً للقتال تحريم الهروب من المعركة﴿..إذا لَقيتُمُ الَّذينَ كَفَروا زَحفًا فَلا تُوَلّوهُمُ الأَدبارَ...﴾ {١٥-١٦}. والتهوين شأن الكافرين ﴿ذلِكُم وَأَنَّ اللَّهَ موهِنُ كَيدِ الكافِرينَ..﴾ {١٨-١٩}وفي الآيات ذكر معية الله للمؤمنين، التي تملأ نفوسهم اطمئنانا؛ لأن الله ذا القدرة المطلقة معهم .
وانظر إلى هذا الأمر الخاص بالمؤمنين :﴿ استَجيبوا لِلَّهِ وَلِلرَّسولِ ...﴾ {٢٤}، وانظر إلى هذا الامتنان الإلهي عليهم الذي يبين كمال قدرة الله تعالى﴿وَاذكُروا إِذ أَنتُم قَليلٌ مُستَضعَفونَ فِي الأَرضِ ..﴾ {٢٦-٢٨}، و ذكر رزقهم الطيبات، وحذر من أن يوقع حب المال والدنيا في الخيانة، وحذر من فتنة الأموال والأولاد، فيرتبط ذلك مع التحذير من الانشغال بالأنفال عن أن

تكون النية خالصة لوجه الله تعالى، وهون من شأن الكافرين المتعلق بالأموال أيضا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَموالَهُم لِيَصُدّوا عَن سَبيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقونَها ثُمَّ تَكونُ عَلَيهِم حَسرَةً ..﴾ {٣٦-٣٧}، فهم يعتمدون على أموالهم في نيتهم السيئة وهي الصد عن سبيل الله ، ولاحظ كمال القدرة الإلهية في جعل هذه الأموال وبالاً وحسرة عليهم، ولاحظ كمال قدرته تعالى في حشرهم إلى جهنم يوم القيامة.

إن هذا كله يحذر المؤمنين من الركون إلى الأموال والعرض الزائل، ومن أن تكون النية لأي شيء سوى وجه الله ، بالإضافة إلى ما فيه من تعبئة نفسية ومادية تحثهم على الجهاد والإنفاق في سبيله.

/https://www.facebook.com/lydbroteam

• الجزء العاشر

نتابع سورة «الأنفال» في هذا الجزء، فبعد الأوامر المعبِّئة لنفسية المؤمنين في بداية السورة، انتقلت الآيات إلى التفصيل في حكم الأنفال الذي ذُكِر في أولها ﴿واعلَموا أَنَّما غَنِمتُم مِن شَيءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَه وَلِلرَّسولِ وَلِذِي ...﴾ {٤١}. فكأنّ الإجابة عن قسمة الغنائم تأخرت حتى بداية الجزء العاشر؛ ليصرفَ الله نظر المؤمنين عن الدنيا، و يربي فيهم الزهد، ويزرع في نفوسهم حب الجهاد، وترجع النية إلى مسارها الصحيح، وبعد ذلك امتنّ الله بردّ الأنفال عليهم، وأعاد التذكير بالإيمان وبطاعة الرسول، فلا ينبغي أن تكون هذه الأنفال هدفًا، إنما هي مجرد جزاءٍ عاجل بسيط لا يعدِل شيئًا أمام الجزاء الأخروي الآجل لمن آمن وصلحت نيته.

ومن الأمور التي تبين كمال القدرة الإلهية، أن أرى الله رسولَه جيش العدو في منامه قليلًا، فبشر أصحابه بذلك ورفع معنوياتهم، وانظر إلى هذا الأمر الذي يرفع معنوية الجندي المؤمن عالية في السماء: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِذا لَقيتُم فِئَةً فَاثبُتوا وَاذكُروا اللَّهَ كَثيرًا..﴾ {٤٥-٤٦}، فذِكرُ المؤمن لربه في المواقف العصيبة يجعله مطمئنًا بأن الله ذي القوة والقدرة المطلقة معه، وليس هناك ساعة يُعذر فيها المُحب عن ذكر حبيبه؛ فالذكر ثباتٌ للقلب عند الكرب، وثباتٌ للقدم عند الحرب. ولاحِظ التحذير من التنازع المؤدي للفشل والمفرّق للقوى، والأمر بالطاعة التامة لله ولرسوله.
وننتقل إلى أمرٍ إلهي آخر، وقد عبّر عن محور السورة بأبلغ صورة: ﴿وَأَعِدّوا لَهُم مَا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ ...﴾، فقد أمر الله المؤمنين أن يعدّوا لأعدائهم كل ما يقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة، كما أبرزَ لهم كمال القدرة الإلهية في توجيه الأمور والظروف حسب إرادته الحكيمة، وبالتالي يجب الاعتماد عليه وحده، دون الالتفات إلى عرَض زائل -كالأنفال-.

وبهذا نصل إلى خاتمة السورة، والتي أعادت التذكير بالتعبئة النفسية والمادية للجهاد ﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤمِنينَ...﴾ {٦٤-٦٨}، وحذّرت من الركون إلى شيء من عرَض الدنيا مما قد يغير النية فلا يجعلها خالصة لوجهه سبحانه. وقد أمر الله نبيّه بعدها بحثّ المؤمنين وترغيبهم في القتال؛ وأمرهم أن لا يفرّ الواحد من العشرة، ولا العشرة من المائة، ولا المائة من الألف، وهكذا.. ثمّ خفّف الله ذلك فصار لا يجوز للمؤمنين الفرار من مثليْهم من الكفار. ثم نزلت آية في أسارى بدر وكان من جملتهم العباس عم الرسول، فلما طلب منه الفداء ادّعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبراً لخاطره: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

وأخيرًا، بيّنت الآيات عقدَ موالاةٍ ومحبةٍ عقده الله بين المهاجرين الذين تركوا أوطانهم والأنصار الذين آووا رسول الله وشاركوا إخوانهم في ديارهم وأموالهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض لكمال إيمانهم. وكما افتُتِحت السورة ببيان صفات المؤمنين بعد أن عاتبتهم على طلبهم الأنفال، خُتِمت كذلك بذكر صفاتهم، ولكن الله جعل للإيمان علاماتٍ أخرى أرقى من هذه في الرتبة وأشد في التطبيق: ﴿وَالَّذِينَ آمَنوا مِن بَعدُ وَهاجَروا وَجاهَدوا مَعَكُم فَأُولئِكَ مِنكُم ...﴾{٧٤}، وكأن السورة الكريمة تلفتنا إلى أن التربية قد آتت ثمارها وأكلها الطيب، فهاهم المؤمنون قد علت درجاتهم من مجرد إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله، إلى الهجرة والجهاد والإيواء والنصرة، وفي ذلك بيان للرابط الذي يجمع أهل الإيمان وهو رابط الإيمان والمشاركة في نصرة الرسالة.

• سورة التوبة •

بين (الأنفال) و (التوبة)، ترسم آيات الوحي في الأذهان مشاهد أول غزوة للمسلمين (غزوة بدر) وتعبُر في الخواطر لتصل إلى آخر غزوة في عهد النبي ﷺ (غزوة تبوك)، وتجمع بذلك بين البداية وهي النصر في الغزوتين، والنهاية وهي التمكين للأمة بعد أن أدّى النبي ﷺ أمانته وبلغ رسالته، فآيات سورة التوبة هي من أواخر ما نزل على النبي ﷺ، وكأنها تمثل البيان الختامي للدعوة والرسالة.

ولسورة التوبة مُسميات كثيرة، منها: براءة، الحافرة، الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، وقد قال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس رضي الله عنه عن سورة (براءة) فقال: تلك الفاضحة، ما زال ينزل: ومنهم ومنهم، حتى خفنا ألا تدع أحدًا. كما أنها السورة الوحيدة التى لم تبدأ بالبسملة، وأرجح الأقوال فى هذا الأمر هو قول سيدنا عليّ: إن (بسم الله الرحمن الرحيم) أمان، وبراءة (أي سورة التوبة) نزلت بالسيف، ليس فيها أمان. والسورة نزلت في المنافقين وكأنما حرمهم الله ﷻ من رحمته التي جاءت في البسملة.

تتناول السورة موضوع التوبة من جميع جوانبه ولكافة الأطراف، فقد تضمنت توبة الله تعالى على النبي والمهاجرين والأنصار، وجاء فيها دعوةٌ للمقصرين بالتوبة والرجوع عن التقصير، وفتحت مجالًا للتوبة لغير المؤمنين لعلهم يتركون مخالفاتهم، كما تضمنت أحكامًا نهائية في العلاقات بين الأمة الإسلامية وسائر الأمم في الأرض، وتضمنت تصنيفًا ووصفًا دقيقًا للمجتمع المسلم يبرز ما وقع فيه من أعمال غير منسجمة مع المنهج الرباني، وكل ذلك دل عليه اسم السورة "التوبة".

ويمكن القول بأن محور السورة هو: تربية الأمة الإسلامية على اعتماد الجهاد سبيلًا للحفاظ على الدين ونشره في الأرض، وذلك من خلال بيان بعض مخالفات المسلمين التي تستوجب التوبة في غزوتي حنين وتبوك، وبيان مخالفات تستوجب التوبة حصلت من المحسوبين عليهم من المنافقين والأعراب، والتحذير من أعمال تستوجب التوبة حصلت من المشركين وأهل الكتاب.

تبدأ الآيات بتوضيح العلاقة بين المسلمين والمشركين، وتحتوي على توجيهات عدّة للأمة المسلمة تدعوها إلى المفاصلة العقدية بينها وبين المشركين والتبرؤ منهم، وتدعو المشركين إلى التوبة والإيمان بالله، وإلا فإن الحرب معلنةٌ عليهم ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ...﴾{١-٣}، ولكن تستثني الآيات المشركين الذين لم يخونوا العهود، ولم يعاونوا أحداً من الأعداء فأكملوا عهدهم إلى المدة المحدودة، ثم قاتلوهم. كما تُبيِّن أنه إن طلب أحد منهم جوار الرسول - صلى الله عليه وسلم - ورغِب فى الأمان فعلى الرسول أن يجيبَه إلى طلبه حتى يسمع القرآن الكريم ثم يعود من حيث أتى آمنًا وذلك لإقامة الحجة عليه.
وقد بينت المقدمة كذلك بعض الأسباب الداعية إلى هذه المفاصلة؛ ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ...﴾{٨-١١}، فهم إذا كانوا لا يقيمون اعتبارًا لآيات الله تعالى، فكيف سيحترمون معاهداتهم مع المؤمنين؟ ولكن إن اقلعوا عن عبادة غير الله وعن الشرك والتزموا بشرائع الإسلام، فهم إخواننا في الدين.

ثم تنتقل السورة إلى توجيهات تربوية للأمة الإسلامية تبرز لهم أن دينهم هو الحق، وأن السبيل للدفاع عنه ونشره هو الجهاد، وتدعوهم إلى التوبة من المخالفات التي وقعت من بعضهم في غزوة حنين. كما حذر الله من موالاة الكفار واتخاذهم أولياء، حتى لو كانوا من الآباء أو الإخوان، فلا يفشوا إليهم أسرار المسلمين ولا يفضّلوهم على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، وهذه التوجيهات بمثابة تهيئة لذكر مخالفات الغزوة.
وبعد ذلك يذكّرهم الله بنصرهم يوم حُنينٍ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ... ﴾{٢٥-٢٦}، حينما قالوا "لن نُغلَب اليوم من قِلّة "، وغرتهم الكثرة فلم يجدوا ملجأً وفرّوا منهزمين، لكن الله بعد ذلك ثبّت نبيه والمؤمنين وأمدهم بالملائكة ونصرهم وعذب الكافرين. وهذه المخالفة تقع في صميم العقيدة، وذلك أنه قد حصل اعتماد على الكثرة من دون الله، وكادت أن تؤدي للهزيمة لولا لطف الله.

وبعد أن حذّر الله المؤمنين من تمكين المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام بعد العام التاسع من الهجرة، انتقلت الآيات إلى بيان المخالفات التي وقعت من أهل الكتاب وبعض المشركين توجب عليهم التوبة إلى الله، فيجب على المؤمنين الحذر منها وجهادهم إن هم أصروا على كفرهم ﴿قاتِلُوا الَّذينَ لا يُؤمِنونَ بِاللَّهِ وَلا بِاليَومِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسولُهُ ..﴾، فالدفاع عن دين الله ونشره إنما يكون بجهاد هؤلاء حتى تكون الكلمة العليا لدين الله، فإما أن يتوبوا إلى الله ويؤمنوا، أو يعطوا الجزية عن قهرٍ لهم وغلبة وهم ذليلون حقيرون.
ولمّا أمر تعالى بقتال أهل الكتاب، ذكر من أقوالهم الخبيثة في أمر العقيدة ما يهيج به المؤمنين ﴿وَقالَتِ اليَهودُ عُزَيرٌ ابنُ اللَّهِ وَقالَتِ النَّصارَى المَسيحُ ابنُ اللَّهِ ..﴾{٣٠-٣٢}، وذكر أنّ كثيرًا من أحبارهم ورهبانهم -وهم الصفوة- يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، ويكنزون الذهب والفضة ولا يؤدون حق الله فيها، و هذه المخالفات متسقة مع التوجيهات السابقة للمؤمنين.

وجاء بعد ذلك أمر الله بالنفير مع النبي، وحتّم على المؤمنين الخروج معه في كل حال؛ في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، "خفافًا وثقالًا". وبهذا انتقلت الآيات إلى الموضوع الأكثر خطورة فيما يتعلق بموضوع التربية على الجهاد، وهو بيان بعض مخالفات المسلمين والمحسوبين عليهم من المنافقين والأعراب في غزوة تبوك. فكانت المخالفة الأولى للمؤمنين، اهتمامًا بشأنهم، وهي تثاقل بعضهم عن النهوض للقتال في غزوة تبوك:﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا ما لَكُم إِذا قيلَ لَكُمُ انفِروا في سَبيلِ اللَّهِ اثّاقَلتُم إِلَى الأَرضِ ..﴾{٣٨}، وجاء فيها التذكير بعدم تفضيل الدنيا على الجهاد.

ثم شرعت الآيات بعرض تفصيلي لمخالفات المحسوبين على المسلمين من المنافقين والأعراب: وقد ابتدأ ذلك بعتاب النبي الكريم على قبول أعذارهم الكاذبة حتى لا يخرجوا إلى القتال، وقد بيتوا نية السوء تجاه النبي ﷺ ﴿إِن تُصِبكَ حَسَنَةٌ تَسُؤهُم ...﴾، وكرهوا تقديم النفقات لتجهيز الجيش، وأرادوا فتنة المسلمين وردهم عن دينهم قبل الغزوة، ومنهم من عاب النبي صلى الله عليه وسلم في قسمة الصدقات ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾. ثم ذكر الله تعالى مصارف الصدقات: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عليها ..﴾، والآية تقتضي حصر الصدقات -وهي الزكاة- في هذهِ الأصناف الثمانية فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم.

وتعود الآيات مرة أخرى لسرد أحوال وأفعال المنافقين والأعراب، فهم على استعداد أن يحلفوا بالله كاذبين ليرضوا الرسول والمؤمنين، والله أحق أن يرضوه، ويأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف؛ فحذّر الله من موالاتهم، وأمر بأن تكون الموالاة للمؤمنين فقط ﴿وَالمُؤمِنونَ وَالمُؤمِناتُ بَعضُهُم أَولِياءُ بَعضٍ ..﴾. وانظر إلى هذا الأمر المنسجم مع محور السورة: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ

جاهِدِ الكُفّارَ وَالمُنافِقينَ وَاغلُظ عَلَيهِم ..﴾، وأتبعه الله ببعض الأوامر الداعية إلى المفاصلة بين المؤمنين وبين هؤلاء المنافقين؛ فنهي الله عن الاستغفار لهم.

ولم يكن الأعراب بأقل سوءًا من المنافقين ﴿وَجاءَ المُعَذِّرونَ مِنَ الأَعرابِ لِيُؤذَنَ لَهُم وَقَعَدَ الَّذينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسولَهُ ...﴾ فهم أيضا يكرهون الخروج للقتال ويؤثرون راحة الحياة الدنيا .

ثمّ ينتهى الجزء بقومٍ آخرين لا يستطيعون الخروج للجهاد، ليسوا بمنافقين ولكنهم شيوخٌ مسنين أو مرضى عاجزين ولا يجدون نفقةً للجهاد، فهم ليس عليهم إثمٌ فى القعود إذا أخلصوا الإيمان والعمل الصالح. ويُختَم الجزء بآية تُظهِر المفارقة الشديدة بين القومين، نزلت في البكائين الذين أرادوا الغزو مع رسول الله ولكن لم يجد الرسول ما يحملهم عليه من دابّة، فانصرفوا وأعينهم تسيل دمعًا من شدة الحزن ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ لتنظر حالك وصدقك مع أمر الله ،هل تحب البذل لله ؟ هناك من يبكي ويتألم لفوات الطاعة ،جسمة وجوراحه وقلبه تعلق بالسعي لمرضاة الله ،فأنت ما الذي يضحكك ويبكيك ؟ و هناك من يحزن إذ لم تتيسر له المعصية !،ويفرح إن ترك الطاعة ! ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ فاللهمَّ حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا .

/https://www.facebook.com/lydbroteam

• الجزء الحادي عشر

مازالت الآيات في أعقاب غزوة تبوك، يتوجه الله باللوم على الذين يستأذنون للقعود وهم قادرون على الخروج للجهاد، رضوا أن يكونوا مع الخوالف من النساء والأطفال لأن الله ختم على قلوبهم فلا يدخلها خير.

ولما ذكر الله تخلف المنافقين الأغنياء الذين لا عذر لهم، أخبر أنهم سيعتذرون إليكم إذا رجعتم من غزوتكم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق، فقل لهم أنك لن تصدق اعتذارهم الكاذب، وسيحلفون كاذبين معتذرين لتتركوهم دون مساءلة، و يقول الله فى شأنهم ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

وجاءت الآيات تصف واقع المجتمع في عصر الرسالة الأول وتعدد شرائح المجتمع المتناقضة، منها من كان على الحقّ ومنها من كان على الباطل:

١. البدو الذين كانوا جفاة ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ وذلك لبعدهم عن القرآن ومجالس الوعظ و الذكر فهم بذلك أحق بألا يعلموا حدود دين الله، ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر﴾ أي تثقل عليهم الزكاة والنفقة فى سبيل الله، وينتظروا أن تنزل بالمؤمنين مصائب الدنيا.

٢. الأعراب المؤمنون، الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويتخذون ما ينفقون قربات يتقربون بها لله ، ووسيلة للظفر بدعاء الرسول ﷺ واستغفاره ، فليس الأعراب كلهم مذمومين.

٣. السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار، وهم أحباب الله وعلى أكتافهم انتشر الدين، والذين اتبعوهم، ذلك لأن الهجرة عمل شاق على النفس ومخالف للطبع، فمن أقدم عليه صار قدوة لغيره فى الطاعة.

٤. المنافقون الذين يظهرون دائماً عند قوة الدين، وهؤلاء أشد على المسلمين من الكفّار ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾.

٥. هناك شريحة كانت قليلة في عهد الرسول ولكنها أصبحت كثيرة في عصرنا: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة ، من التجرؤ على بعض المحرمات ، والتقصير في بعض الواجبات ، مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فقال الله لنبيه ﷺ ومن قام بمقامه ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾فالصدقة هي الزكاة المفروضة تطهّرهم وتزكيهم، وصلاة الرسول أي دعاؤه هو سكن وطمأنينة لقلوبهم.

٦. شريحة قد فعلوا ما يضر بالأمن العام للأمة ومنهم الذين تخلفوا عن الغزوة ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾

٧. وأخيراً الشريحة الطائفية التي تُرسّخ العداوة بين المسلمين والتفريق بينهم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم المنافقون الذين اتخذوا مسجدا إلى جانب مسجد قباء ليكون حصنا لمن يحارب الله ورسوله ، فبين الله تعالى خزيهم وأظهر سرهم.

بقيت الخاتمة التي تحوي تأكيدا لما سبق:

- فيُخبر الله تعالى خبراً صادقاً ويعد وعداً حقاً بمبايعة عظيمة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشتَرى مِنَ المُؤمِنينَ أَنفُسَهُم وَأَموالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ..﴾{١١١-١١٢}، والحاصلين على هذا الجزاء من الله هم ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾، فتلاحظ أن صفاتهم المذكورة تقابل بصورة عكسية ما قام به المنافقون والأعراب من المخالفات.

وقد أعادت الخاتمة التذكير بالمفاصلة العقدية بين المؤمنين والمشركين، ويُنهَى فيها النبي ﷺ والمؤمنون معه عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى، لأن عليهم أن يوافقوا ربهم فى رضاه وغضبه، ويوالون من والاه ويعادون من عاداه.

ثم يخبر الله عن توبته على النبي ﷺ والذين خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة تبوك، فوقعت من بعضهم بعض المخالفات التي تستوجب التوبة، ﴿لَقَد تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهاجِرينَ وَالأَنصارِ الَّذينَ اتَّبَعوهُ في ساعَةِ العُسرَةِ ...﴾{١١٧-١١٨}، وذلك محض فضل وإمتنان من الله .

ثم ذكر توبته على : كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾، حين ضاقت عليهم الأرض برحبها مع اتساعها، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه "وضاقت عليهم أنفسهم" أى قلوبهم لا يسعها أُنس ولا سرور من فرط الوحشة والغمّ، وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله إلا بالاستغفار والرجوع إليه، "ثمّ تاب عليهم ليتوبوا"، ثمّ رجع إليهم بالقبول والرحمة مرة أخرى، ليتوبوا و يستقيموا على توبتهم .

ثمّ يخبر الله تعالى بأهمية تعلّم العلم، ونشره بين العباد، فلا ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا للقتال جميعاً حتى لا يُستأصلوا إذا ظهر عليهم عدوهم، فيخرج فريق منهم للجهاد، ويبقى فريق يتفقه فى الدين، لينفع به المسلمين.

ويبيّن الله حال المنافقين وحال المؤمنين عند نزول القرآن والتفاوت فيما بينهم، فالمؤمن يزداد إيماناً لما يتجدد عنده من البراهين والأدلة، أمّا المنافق فيزداد نفاقاً وفتنة.

وتنتهي الآيات برحمة الله تعالى ببعث محمد ﷺ رسولا للعالم أجمع ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن الله تعالى لما حرم الكفار والمنافقين من الرحمة في أول السورة بعدم ذكر البسملة

، أعطاهم في آخرها رحمة ورأفة، هذه الرحمة التي جاء بها رسوله الذى يعرفون حاله ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

يقول الإمام محمد الغزالي: "وإني لأنظر إلى أول السورة ثم أتدبر خواتيمها فأشعر بالعجب! ،، أول السورة براءة من الطاغوت ورجاله العابثين بالمعاهدات وآخرها تذكير برحمة الله العامة عندما أرسل نبي الملحمة ونبي الرحمة ،إنه نبي مُحارب، يتصدى بالسلاح لمن يحملون السلاح ،ولكنه في الوقت نفسه يبحث عن السلام في كل شبر من الأرض، ويسعى إلى مسح الغبار عن كل جبين ،ومحو العنت عن كل محزون، إنه ما قاتل حبًا في قتال، ولكن كرهًا للتسلط والعدوان، فإذا ضمنت العدالة وسادت الحرية وصينت الحقوق، فلا يلجأ إلى الحروب إلا مجرم من أجل ذلك خُتمت السورة بهذه الآية﴿فَإِن تَوَلَّوا فَقُل حَسبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلّا هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظيمِ﴾" .

• سورة << يونس >>

وننتقل إلى سورة مكية تعنى بأصول العقيدة الإسلامية، الإيمان بالله تعالى وبالكتب والرسل والبعث والجزاء وبخاصة الإيمان بالقضاء والقدر، جاءت تثبت النبي ﷺ والمؤمنين لما اشتد عليهم الأذى في مكة.

وفي الآيات تكرار واضح لكلمة (الحق) التي جاءت في السورة (٢٣ مرة) لأن الحق عكس العبث والصدفة، وكذلك ترددت كلمة (يدبر) في السورة كثيراً فكيف نشكك بقضاء الله وقدره ؟ ﴿يَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ فالآيات تؤكد أن الله حق وأن إدارة هذا الكون حق، وعرّفت الآيات بصفات الإله الحق بذكر آثار قدرته ورحمته الدالة على التدبير الحكيم وهذا تنبيه الغافلين الذين يشككون ولا يؤمنون بالقضاء والقدر .

جاءت مقدمة السورة داعية إلى الإيمان بالله تخاطب العقل البشري لتبين له الأدلة على وجود الله سبحانه وقدرته وحكمته في الكون، ليصل الإنسان إلى اليقين بعدل الله، فتبدأ السورة بكلمة تُثبت الحكمة لله ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ فلم يعجب الناس من اختيار محمد ﷺ للرسالة؟ ألا يؤمنون بأن الله خالق هذا الكون هو من أنزل إليهم الكتاب بحكمته واختار محمدﷺ لرسالته ؟.

وبينت المقدمة أن الله وعد بجزاء الناس حسب أعمالهم يوم يجمعهم ليوم القيامة، ثم بيَّن السياق موقف الغافلين وجزاءهم، وموقف المؤمنين وجزاءهم:﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا

غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ..﴾ {٧-١٠}

ثم انتقل السياق إلى ذكر عدد من المحاجّات مع الكافرين والمشركين، تؤكد على أهمية الإيمان قبل أن ينقضي الوقت فيتعرضوا للعذاب:﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ..﴾ {١٥-٢٠} فجاء تكرار عبارة (الذين لا يرجون لقاءنا) الدالة على كمال غفلتهم، والتهديد بنزول العذاب إذا فات الوقت في عبارة (فانتظروا إني معكم من المنتظرين).

ثم عرضت الآيات أهمية الإيمان الفطري الموجود بداخل نفوس البشر، فهم يتذكرونه وقت الشدة، ثم إذا زالت عنهم غفلوا عنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ..﴾ {٢٢-٢٣} فكيف يلجأ الناس إلى الله فقط في ساعة الشدة؟ يعرفون أن لهم رباً يلجاؤون إليه ثم يتكبرون بعد النجاة وكأن نجاتهم هذه كانت من عند أنفسهم، ولاحظ أن السياق قد بين أن سبب تغافلهم عن الإيمان الفطري إنما هو متاع الحياة الدنيا. وهذا المثل متلائم مع اسم السورة، فشتان بين موقف يونس عليه السلام الذى ذهب لدعوة قومه إلى الإيمان حين أنجاه الله من الغرق، وبين موقف هؤلاء الذين أعرضوا عن الإيمان حين أنجاهم الله من الغرق.

وانظر إلى هذا المثل الذى يبين قصر الحياة الدنيا وهوانها على الله، فلا ينبغى التغافل بها عن الإيمان:﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ..﴾ {٢٤}.

وقد ذكر السياق أيضاً بعض الأدلة الدالة على وجود الله تعالى والتى يدركها الناس بفطرتهم، لكنهم يغفلون عنها :﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ... ﴾ {٣١} هذه الآيات لم تنزل عبثًا، بل لتؤمن بها، ويطمأن لها قلبك، لتتفكر في ملكوت الله فترى بعين اليقين، فتسلم له وتتوكل عليه وتحب الله لعدله وحكمته ، وتحب لقاءه، فلا تطمئن إلا في معيته، ولا ترضى بالحياة الدنيا، وتوقن بأن الدنيا ستفنى لا محالة فلا تجزع أبدا﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ... ﴾{٧}

ومن الآيات التى تبين أن عذاب الله غير مأمون: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ..﴾ {٥٠-٥٢}، فهو قد يقع بالكافرين فى أية لحظة، و في المقابل عرض السياق موقف المؤمنين الذين حفظهم إيمانهم من عذاب الله، وحقق لهم السلامة فى الدارين:﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ..﴾ {٦٢-٦٤}.

ثم تعرض السورة قصص ثلاثة من الأنبياء الذين توكلوا على الله فنجاهم الله تعالى، وتؤكد أيضا ضرورة تدارك الوقت والإيمان، وعدم التغافل عنه قبل أن يقع العذاب.

١- قصة نوح الذي توكل على الله تعالى فأنجاه الله ومن معه ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ..﴾ {٧١}، لاحظ قوله تعالى (إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله) الذي يبين تغافل قومه عن الإيمان بالرغم من مكثه بينهم تسعمائة وخمسين عاماً. ولاحظ كيف تحدى نوح عليه السلام قومه جميعاً، وذلك لتيقنه بأن إيمانه سيحميه من بأسهم . وانظر كيف حفظ الإيمان نوحاً عليه السلام ومن معه من العذاب، وانظر عاقبة المكذّبين الذين فاتهم الوقت ولم يؤمنوا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ..﴾ {٧٣}.

٢- قصة موسى مع فرعون ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ {٨٤} وفيها كيف أنجى الله المؤمنين: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ..﴾ {٨٣-٨٧} ، ومن اللطيف أن سياق القصة قد عرض أن الذي منع قوم فرعون من الإيمان هو تلهيهم بالحياة الدنيا: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ..﴾ {٨٨}. وانظر كيف كان عاقبة فرعون الذي فاته الوقت ولم يؤمن، ولم تعرض سورة أخرى حالة فرعون حين الغرق، ولم تعرض سورة أخرى قول الله له ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ {٩١}، فهذا القول متسق مع قوله تعالى عن الغافلين: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ {٥١} .

٣- قصة قوم يونس عليه السلام ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ {٩٨}، ولما كان قوم يونس هم المثال الوحيد للذين نفعهم إيمانهم فرُفع عنهم عذاب الله، كان موقفهم هذا هو المحور الذى تدور عليه السورة، ولذلك اختير اسم "يونس" لهذه السورة الكريمة .

بقيت الخاتمة وهى تحتوي تأكيداً لما سبق من سياق السورة، فلاحظ التعقيب على قصة موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ(٩٦)وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، فقد يتبادر إلى الذهن لماذا أغرق الله فرعون بعدما قال أنه آمن ونجّا قوم يونس والحالتان متشابهتان نوعاً ما؟ والجواب أن فرعون آمن عند نزول العذاب، والإيمان في هذا الوقت غير مقبول لأنه يصير الحال حال إلجاء فلا تنفع التوبة ولا الإيمان، قال تعالى: (فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا). أما قوم يونس فقد علم الله تعالى أنهم سيكونون مؤمنين حقاً فعفا عنهم وكانوا على وشك الهلاك

بعذاب الله لكنهم حسن إيمانهم وقد أثبت التاريخ ذلك فأصبحوا قوماً صالحين طائعين مؤمنين، والله تعالى يريد من عباده إيمان الاختيار لا إيمان الإكراه والاضطرار، ولهذا علينا أن نؤمن بقضاء الله وقدره لأنه ليس عبثاً ولكن لكل أمر حكمة قد نعلمها وقد يخفيها الله عنا وهذا ليمتحن صدق إيماننا به فلو علمنا الحكمة من كل شيء فما قيمة إيماننا بالغيب إذن؟

وقد ذكرت الخاتمة ضرورة إيقاظ الإيمان الفطري في نفوس البشر قبل فوات الوقت حتى يكونوا من أهل النجاة، وإلا نزل بهم العذاب : (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ...){١٠١-١٠٣}.
وانظر كيف ختمت السورة بالدعوة إلى الإيمان وتدارك الوقت (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ..){١٠٨-١٠٩}.
فهذه الآيات تبعث اليقين بالنفس شيئا فشيئا، حتى تصل في ختام السورة لأعلى درجات اليقين لتستقم على الدين الحق،﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾{١٠٥} فتأتي في الختام الآية فيها توجيه للرسول ﷺ المؤمنين بالتوكل على الله، واللجوء إليه، والصبر على ما يلقوه من الأذى في سبيل الله، والاستمساك بشريعة الله فهو سبحانه الحكيم العدل ﴿اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.{١٠٩}

/https://www.facebook.com/lydbroteam

• الجزء الثاني عشر

بعدما خُتمت سورة يونس بقوله ﴿وَاتَّبِع ما يوحى إِلَيكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، بدأت سورة هود بقوله تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وهو تفصيل لما أُمر باتباعه، فنزلت سورة هود فى وقت محنة شديد على النبى محمد ﷺ حيث اشتد عليه الكرب.

فامتازت بعدة أمور منها: التفصيل في البشارة والنذارة بالعاجل والآجل، والعناية الإلهية بكل شئ ، فنزلت السورة بخطاب واضح أن هذا القرآن محكم و مفصل، آياته من الله الخبير بأحوال خلقه والحكيم بما يصلح لهم، و أنك يا محمد ما بُعثت فيهم إلا لتنذرهم من العذاب وتبشرهم بالثواب، أما تدبير أمور الخلق والكون فهي لله وحده الذى يعلم ويدبر كل صغير فى الكون ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

ففي السورة ثلاث قطاعات متميزة:

الأول يتضمن حقائق العقيدة في مقدمة السورة، والثاني يتضمن حركة هذه الحقيقة في التاريخ، والثالث يتضمن التعقيب على هذه الحركة .

ولا يخفى أن قصة هود عليه السلام فيها الدعوة الخالدة إلى التوحيد، وهو الذي سُميت السورة باسمه عليه السلام لورود قصته التي يدعو فيها قومه إلى أجلّ حقيقة في الإيمان، ألا وهي توحيد الله عز وجل بالعبودية ونبذ الشرك، فمحور السورة هو: المفاصلة بين العطف الفطري في قلب الداعية وبين القوة في الدعوة إلى التوحيد والثبات عليه.

قصة نوح عليه السلام كان التركيز فيها على إبراز مدى تكبر قوم نوح في تكذيبه، واستخدام أسلوب الاستهزاء لصده عن الدعوة لدين الله وإشاعة الشبهات حوله، دون أن يبرز مدى كفرهم وشركهم إلا بآية واحدة: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ..﴾{٢٧}، ولكن نوح عليه السلام كان شديد التلطف في دعوته ، فانظر قوله عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، وقوله:﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾{٢٨}، حتى في تهديده بنزول العذاب، جعل الأمر متعلق بمشيئة الله : ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ..﴾، وقد تكررت منه لفظة (يا قوم)، في هذه القصة ثلاث مرات ومع ذلك رفضو وأرادوا طرد أتباعه من المؤمنين، وبعد أن رأوا أنه لا ينفك عما كان عليه من دعوتهم قالوا له: ﴿ائتنا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، و استمر نوح عليه السلام يدعو قومه ﴿ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ ومع ذلك لم يؤمن من قومه إلا قليل.

وفي السورة إيضاح أن رابطة العقيدة أقوى من رابطة النسب، فلم ينفع ابن نوح نسبه بشئ ﴿.. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ...﴾ {٤٥-٤٦}.

وأوقع الله عذابه على قوم نوح، وأغرقهم بسبب كفرهم ومعاصيهم وعنادهم، واستمرّ الطوفان مدة لا يعلم مداها إلا الله، ثمّ انتهى بأمر الله كما بدأ بأمر الله .

وبعد قصة نوح جاءت قصة هود عليهما السلام، ويلاحظ في هذه القصة مدى القوة في دعوته قومه إلى التوحيد، ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ...﴾ {٥٠-٥١}، فلاحظ قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وذلك بلا شك دليل على عناد قومه وتكبرهم على الحق، ويلاحظ فيها إبراز مدى شرك قومه حتى اعتقدوا أن آلهتهم لها أثر في الوجود: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ..﴾، وهذا التفصيل في عرض الشرك لا تجده في باقي قصص السورة على هذا النحو.

فانظر قوله عليه السلام: ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وقوله:﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ...﴾ {٥٥-٥٧}، فلم تكن معجزة هود عليه السلام آية حسية، ولكن كانت يقينه في منهجه والثبات عليه أمام تهديد قومه، ويُلاحظ التعقيب الإلهي المخيف والمهدد للمكذبين: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ...﴾ {٥٨-٦٠}، وفي السياق ذُكرت العقوبة الدنيوية والأخروية لعاد.

ثم تأتي قصة صالح عليه السلام طالباً من قومه عبادة الله وحده وتذكّيرهم بنعم الله عليهم ﴿.. قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾، ولكن نزل عليهم العذاب نتيجة مخالفتهم أمر نبيهم في عدم التعرض للناقة بسوء، ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ..﴾ {٦٧-٦٨}

وفي قصة سيدنا إبراهيم يتضح جميل ثناء الله عزوجل وكرمه على إبراهيم عليه السلام، وذلك بأن رزقه الولد بعدما انقطعت أسباب الدنيا، وهذا ثناء من الملائكة الضيوف على إبراهيم وأهل بيته، لأنه بيت مبارك عامل لدين الله ﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾.

ويجادل إبراهيم عليه السلام الملائكة فى قوم لوط ظنًا منه أنهم سيهلكون كل أهل القرى بما فيهم لوط عليه السلام، و لكن ردت الملائكة أنهم لن يمسوا لوط بسوء ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ

مَرْدُودٍ ﴾ و فيها رسالة إلى النبى محمد ﷺ أن لا تنشغل بعاقبة قومك ولا تجادل فى عذابهم و إنتظر أمر الله فيهم .

ثم ذهبت الملائكة إلى لوط عليه السلام لتنفيذ أمر الله بهلاك تلك القرى الظالم أهلها، وحتى أخر لحظة قبل عذابهم كانوا يمارسون الفاحشة، حتى أنهم أرادوا أن يفعلوا الفاحشة بالملائكة، حتى ضاق لوط عليه السلام ذرعًا وضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم كما ضاق صدر محمد ﷺ من قومه، وفي ذلك إشارة أن الله يأتي بالفرج من حيث لا يحتسب كما جاء الفرج للوط عليه السلام من حيث لا يحتسب، وأمرت الملائكة لوط أن يخرج بأهله إلا زوجته من القرية لأن الله أمر بهلاك قومه، وقُلبت القرية رأساً على عقب و أُرسل عليها حجارة من سجيل .

وفي قصة شعيب عليه السلام يظهر التلطف في دعوته لقومه، كقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾، وقوله :﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، وقد تكررت لفظة (يا قوم) في قصته ست مرات، ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ فبالرغم من فصاحة سيدنا شعيب إلا أن قومه زعموا بعدم فهم كلامه، كما فعل كفار مكة مع القرآن، فما كان منهم إلا أن هددوه بالرجم لولا عشيرته، وذكر - الرهط - هنا أيضا كما فعل كفار مكة بعدم أذية النبي ﷺ خوفا من عمه و قبيلته ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، فكانت إجابته كيف تهابون عشيرتي وتكون أعز عليكم من الله!، فطلب منهم انتظار وقوع العذاب حتى جاءت الآيات بنجاة شعيب عليه السلام وأتباعه من المؤمنين وإهلاك قوم مدين الكافرين بالصيحة.

و تختم القصص بقصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون وأنه مثله مثل سائر الأنبياء مع أقوامهم، فقد كذبوه واتبعوا فرعون على جهله وتجبره، فكما اتبعوه فى الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم فهو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم وسيكون له الحظ الأوفر من العذاب ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ..﴾ {٩٨-٩٩}.

فصلت سورة هود في أحوال الأمم مع رسلها ليعلم صاحب الرسالة الخاتمة أنه لا جديد في تكذيب قومه له، فالصراع بين الحق والباطل أزلي، ولكن النتائج الحاسمة تنصف المؤمنين وتعز المتقين .

و بعد هذا الحشد الكبير من القصص يأتى التعقيب بثلاث رسائل واضحة و صريحة :

١.﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا

لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ فاستقم كما أمرت، ليس كما تريد وكذلك المؤمنون معك، ولا تحبط لكلام الكفار فيصيبك ما يصيبهم .

٢.﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ واجعل لك نصيباً من التعبد الخاص، فإن هذا مما يثبتك فلا يخذلك وقت الشدة، ويرزقك فى قلبك من الصبر والقوة ما يقويك به فى وقت شدتك.

٣. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ هنا تذكير لرسول الله ﷺ بسنه الله الماضية فى الأقوام، فقد قضى الله انه سيكون فيهم من يكفر و منهم من يؤمن، وهذا التعبير "إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ" يدل على قله المؤمنين بهذه الرسالة .

ثم يذكر الله تعالى سبب ذكر هذه القصص وهو التثبيت للرسولﷺ فى محنته وكذلك الدعاة إلى الله من بعده: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾. وكان في تلك الأنباء االواردة في سورة هود ما لاقى الأنبياء من قومهم، فأتبع ذلك بقصة يوسف وما لاقاه من أخوته وما آلت إليه حاله من حسن العاقبة ليحصل للرسولﷺ التسلية الجامعة لما يلاقيه من أذى البعيد والقريب .

وأخبرتنا سورة هود بأنه قد يأتي أمر الله في أي وقت وعلى أي شكل ﴿حَتَّى إذا جاءَ أَمرُنا ﴾ وجاء في نهاية السورة ﴿وَلِلَّهِ غَيبُ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَإِلَيهِ يُرجَعُ الأَمرُ كُلُّهُ ﴾ فكأن النبي ﷺ ينتظر أمر الله وهو مستمر في العبادة والتوكل ﴿ فَاعبُدهُ وَتَوَكَّل عَلَيهِ ﴾،ولأن النفس قد تأنس بقصص عملية واقعية، ففي سورة يوسف صورة عملية تؤكد أن الله قادر على حل الأمور مهما تقعدت بأبسط الأسباب لأن كل شيء عليه هين سُبحانه .

فتأتي سورة يوسف بالنموذج الذي دعت إليه سورة هود -موذج الصبر والتوكل على الله في الدعوة-، هذا الصبر الذي أحتاجه النبي ﷺ بعد عام الحزن. ومن دلالات سياق قصته بيان تمام علم منزل هذا القرآن بالغيب والشهادة، وشمول قدرته، وفيها دلالة على عناية الله بأحبابه وتهيئة الظروف لهم بالفرج بعد الشدة، وكل ذلك فيه تثبيت لقلب النبي ﷺ مما كان يلاقيه في المرحلة المكية من شدة عناد قومه، فكما أن الله ﷻ قادر على تحقيق الفرج ليوسف وأبيه عليهما السلام، فهو قادر على تحقيق النصر والفرج لسيدنا محمد ﷺ.

جاء في مقدمة السورة ثلاث آيات تبين صدق النبي ﷺ فيما بلغه عن ربه عز وجل، فلم يكن يعلم عن الأحداث التي ستذكرها السورة بالتفصيل عن قصة يوسف عليه السلام، فثبت أن إخباره عن هذه القصة إنما هو بوحي من رب العالمين

﴿إِنّا أَنزَلناهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُم تَعقِلونَ ...﴾ {١-٣}

ثم انتقلت الآيات إلى عرض قصة يوسف بالتفصيل، والافت للنظر، أن سياق القصة جميعه مبني على أحداث متعمقة في الغيب، فمن خلال قراءتك للقصة يسجد قلبك تعظيمًا لمن أحاط بكل شيء علما وأخبرنا بهذه الأحداث.

أول حدث فى القصة هو رؤيا سيدنا يوسف حيث رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر يسجدون له، وقص الرؤيا على أبيه يعقوب وطلب منه أبوه ألا يقص رؤيته على إخوته حتى لا يحسدوه، فحينما رأى إخوة يوسف أن أبيهم يدنى يوسف إليه حسدوه، حتى فرقوا بين يوسف و يعقوب عليهما السلام فرقة طويلة يقول بعض المفسرين أنها وصلت -لأربعين سنة- تربى فيها يوسف فى بلاط عزيز مصر، واللطيف أن السياق قد أخبر حتى عن الثمن الذي بيع به يوسف، مما يؤكد تمام إحاطة الله بدقائق أحداث القصة الغيبية.

ثم انتقل السياق إلى عرض الحدث الذي حصل بين امرأة العزيز ويوسف عليه السلام، وهو حدث غاب عن كل الشخصيات في القصة ما عداهما، مما يؤكد تعمق هذا الحدث في الغيب، ثم عرضت الآيات مقولة النسوة في المدينة، والمكيدة التي هيأتها إمراة العزيز، وبالرغم من أن مغزى امرأة العزيز منها قد غاب عن النسوة وعن يوسف أيضا إلا أن الله أطلعنا عليه، ولكن يوسف كان قدوة وفضّل السجن على دعوته لما يغضب ربه ﴿قالَ رَبِّ السِّجنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّا يَدعونَني إِلَيهِ ..﴾، فسبحان من سمع كلام قلب يوسف وأخبرنا به.

وقابل فى السجن صاحباه الذين دعاهما لتوحيد الله قبل أن يفسر لهما أحلامهما ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

ولبث يوسف فى السجن بضع سنين حتى رأى الملك رؤيا وسألهم عن تفسيرها فتذكره أحد الصاحبين فى السجن فدلهم على يوسف، وفسر الرؤيا وظهرت براءة يوسف من التهمة التى دخل السجن على إثرها ورفعه الله مكاناً عظيماً .

/https://www.facebook.com/lydbroteam

• الجزء الثالث عشر

نستكمل سورة «يوسف» في هذا الجزء بعد انتهاء الجزء السابق بأمر غيبيّ وهو رؤيا الملك وتعبير يوسف لها، فكان ذلك حدثًا غيبيًا من الأحداث التي وجهها الله تعالى لتحقيق الفرج لنبيه عليه السلام.

وعرضت الآيات بعد ذلك تمنع يوسف عليه السلام عن الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته أمام الجميع، ولاحظ قول امرأة العزيز المعترفة أمام الملك: ﴿..قالَتِ امرَأَتُ العَزيزِ الآنَ حَصحَصَ الحَقُّ أَنا راوَدتُهُ عَن نَفسِهِ ..﴾ {٥١-٥٣}، فهي صدقت في غيبة يوسف بينما كذبت أمام زوجها وقد كان يوسف حاضرًا، فكل أحداث القصة موجهة من العليم الحكيم سبحانه.

ثم انتقلت الآيات إلى عرض مشاهد من القصة وقد أصبح يوسف مسؤولًا على خزائن الأرض، قال تعالى: ﴿وَجاءَ إِخوَةُ يوسُفَ فَدَخَلوا عَلَيهِ فَعَرَفَهُم وَهُم لَهُ مُنكِرونَ﴾، فقد جاء بهم الله من عالم الغيب، وقد غاب عنهم أن العزيز هو أخوهم يوسف، وحينما وصل الإخوة إلى مصر في المرة الثانية، آوى يوسف إليه أخاه وأخبره بحقيقة الأمر، وهذا أمر قد غاب عن الإخوة، ثم غاب عنهم أيضًا أنه جعل السقاية في رحل أخيه حتى يتسنى له أن يأخذه. وأخبرتنا الآيات كذلك عن مناجاة بين الإخوة غابت عن يوسف وعن يعقوب عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا استَيأَسوا مِنهُ خَلَصوا نَجِيًّا ...﴾، وأعقبت هذه المناجاة مناجاة أخرى، حين تولى يعقوب عليه السلام عن أبنائه، وجعل شكواه أمرًا بينه وبين ربه تعالى ﴿وَتَوَلّى عَنهُم وَقالَ يا أَسَفى عَلى يوسُفَ ...﴾ {٨٤-٨٦}.

فمعظم أحداث القصة يجري بتقدير الله وعلى نحو يغيب حتى عن بعض شخصيات القصة، ويحقق مشيئة الله تعالى، فسبحان العليم الحكيم الخبير.

ثم ذكرت الآيات الرحلة الثالثة لإخوة يوسف عليه السلام إلى مصر، وفي هذه الرحلة معجزتين من عالم الغيب اختص بهما يوسف ويعقوب عليهما السلام: ﴿اذهَبوا بِقَميصي هذا فَأَلقوهُ عَلى وَجهِ أَبي يَأتِ بَصيرًا ..﴾ {٩٣-٩٤}. ثم خُتِمت القصة بعرض المشهد الذي تحققت فيه الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام، وقد أشار فيها يوسف عليه السلام إلى فضل الله، إذ جعل جميع الأحداث الغيبية في هذه القصة تتجه نحو تحقيق الخير للجميع: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيهِ عَلَى العَرشِ وَخَرّوا لَهُ سُجَّدًا وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأويلُ رُؤيايَ مِن قَبلُ قَد جَعَلَها رَبّي حَقًّا ...﴾ {١٠٠-١٠١}. وفي ذكر جزاء صبر نبي الله يعقوب وقدومه مع أسرته إلى مصر ودخوله على يوسف وهو في عظمة الملك وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه واجتماع الشمل بعد الفرقة، تسليةٌ لقلب محمد ﷺ.

ومع تتابع هذه الآيات واقتراب الخاتمة، نتأمّل معايشة الوحي لكلّ زمان ومكان، فقد نزلت الآيات بظلم سيدنا يوسف من إخوته على قلب النبي ﷺ حين ظلمه أهل مكة، وحكَت عن سجن سيدنا يوسف، والنبي ﷺ والصحابة في شِعب أبي طالب، وأتَت بتمكين يوسف في أرض أخرى غير أرضه وكأنها رسالة للنبي ﷺ أن ينتظر أرضًا غير مكة يمكّن الله فيها لرسالته. وقد فهم النبي رسالات الوحي وكلماته، فلمّا قدر الله تشابه أول ثلاث مشاهد من قصة يوسف وحياة النبي ﷺ، ما وسع النبي إلا أن يُكمل المشهد الأخير على نهج يوسف عليه السلام، حين سامح وعفى عن مَن ظلَمه، فترى النبي على نهجه يعيد كلماته يوم الفتح فيقولُ لأهل مكة: "لا أقول لكم إلا كما قال يوسف لإخوته ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾". فَمن اليوم ينيرُ بكلمات الوحي ظلام هذا الكون؟ من يعفو عن من ظلم مرددًا هذه الكلمات؟ من يتبع قصص الأنبياء مشهدًا بعد مشهد ليرسم ملامح وتفاصيل حياته؟

وفي الختام، تذكُر الآيات تعقيباتٍ على القصة، فكان أول تعقيب عليها: ﴿ذلِكَ مِن أَنباءِ الغَيبِ نوحيهِ إِلَيكَ ... ﴾، فأنّى للنبي أن يعلم ذلك بالتفصيل الوارد في القصة إلا عن طريق الوحي؟ ففي هذا تثبيتٌ له ﷺ.
ويأتي بعد ذلك عدد من التوجيهات المسرية عن النبي ﷺ مما يلاقيه من عناد قومه، وكأن الآيات تقول: بعدما بينّا للناس في قصة يوسف علمنا الكامل بالغيب ولطف تقديرنا له، لم يبق لهم حجة لعدم الإيمان، فلا تلم نفسك على من لم يؤمن بعد ذلك. إنّ وعد الله لك بالنصر سيتحقق كما تحقق الفرج ليوسف عليه السلام، فيأمر الله تعالى نبيه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ثم يثبّته قائلًا: ﴿حَتّى إِذَا استَيأَسَ الرُّسُلُ وَظَنّوا أَنَّهُم قَد كُذِبوا جاءَهُم نَصرُنا ... ﴾.
وخُتمت السورة بـ ﴿لَقَد كانَ في قَصَصِهِم عِبرَةٌ لِأُولِي الأَلبابِ ... ﴾، وفي هذا تناسق شديد مع ما فصلته قصة يوسف من علم الله الكامل بأمور الغيب وتوجيهه لها حسبما أراد.

وحين انتهت سورة اليوسف ببيان سبيل الداعية إلى الله طريق من يثبت في الأرض بين دعوتين الحق والباطل﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾، جاءت كلمات الوحي في سورة الرعد بأسباب الثبات على دعوة الحق وكيفيته، فتثبت لأن الله معك ويؤيدك بكلام الوحي الذي جاء بالحق ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾، و لأنك تعبد خالق هذا الكون عالم الغيب والشهادة، و لأن جنود الله في أرضه يؤيد بها من يشاء فينصر رسالته ويظهر الدين الحق، فإن حملت أمانة رسالته ونصرت دينه فالكون كله معك.

وتعود الدلالة السياقية لاسم سورة « الرعد » إلى حديثها عن ظاهرة الرعد الكونية المعروفة التي تكون مصاحبة للبرق، وينتج عنهما هطول الغيث رحمة للعباد، وقد أخبرتنا السورة أن الرعد أحد المخلوقات التي تسبح بحمد الله تعالى، وأنه قد يكون جنديًا من جنوده، إذ قد يكون صاعقة يصيب الله بها من يشاء. فهو ظاهرة كونية دالة على رحمة الله تعالى، كما أنها دالة على قدرته تعالى على العقاب، فاسم السورة يدعو إلى الإيمان بخالق الرعد سبحانه وتعالى والخوف من عقابه.

وهذه السورة تطوف بالقلب البشري في مجالات الكون وآفاقه، وتقرب مدارك البشر شيئًا من حقيقة القوة الكبرى المحيطة بالكون. وفي السورة عرض لصور متقابلة من المشاهد الطبيعية من سماء وأرض، وشمس وقمر، وليل ونهار، ثم تطرد هذه التقابلات لتنسجم مع التقابل المعنوي، فيتقابل الاستعلاء على العرش وعلو شأن الله مع تسخير وتذليل الظواهر الكونية، ويتقابل الخوف مع الطمع، وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل، فتسمية السورة الرعد ذي الصوت المرعب المصاحب لنزول الغيث، يشبه القرآن الذي هو حق في نفسه، واتباعه فيه خير الناس.

وتنقسم السورة إلى أربعة أقسام:

أولًا: تبدأ الآيات بذكر القرآن، كتاب الله المعجز: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ .. ﴾، وفي الإشارة إلى الآيات القرآنية بـ «تلك» تعظيمٌ لها، وبيان أنها الحق من الله، فهي ساطعة الدلالة على عظمة الله، ولاحظ الجمع بين الآيات القرآنية والكونية ﴿يُدَبِّرُ الأَمرَ يُفَصِّلُ الآياتِ﴾. وجاء بعد ذلك ذكر الأنهار، وبيان أن الشجر يُسقى بماء واحد، وكلها آياتٌ كونية دالة على الله، ومتعلقة بالرعد الذي يصاحب هطول الغيث من السماء. كما وضحت الآيات قدرة الله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

ثانيًا: تنتقل الآيات إلى عرض موقف الكافرين العجيب من هذه الآيات بالرغم من سطوع دلالتها ، ثم دعوتهم إلى الإيمان من خلال التفصيل في عرض مظاهر كونية أخرى ﴿وَإِن تَعجَب فَعَجَبٌ قَولُهُم أَإِذا كُنّا تُرابًا أَإِنّا لَفي خَلقٍ جَديدٍ ...﴾ ثم تنتقل الآيات إلى بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ: ﴿اللَّهُ يَعلَمُ ما تَحمِلُ كُلُّ أُنثى وَما تَغيضُ الأَرحامُ ...﴾ {٨-١٠}، وجاء بعد ذلك ذِكر آيتي البرق والرعد: ﴿هُوَ الَّذي يُريكُمُ البَرقَ خَوفًا وَطَمَعًا ...﴾ {١٢-١٣}؛ فكما هو عالم بما في الأرحام، وبالناس مهما اختلفت أحوالهم، فهو عالم أيضًا بقدر الماء الهاطل من السحاب الثقال، وعالم بمجادلة أهل الباطل في الله.

ثالثًا : تبيّن الآيات الدعوة إلى التوحيد من خلال النوع الثاني من الآيات: وهو الآيات القرآنية. فابتدأ بذكر موقف الناس ومصيرهم من هذه الآيات، وقد انقسموا إلى قسمين: ﴿لِلَّذينَ استَجابوا لِرَبِّهِمُ الحُسنى وَالَّذينَ لَم يَستَجيبوا لَهُ لَو أَنَّ لَهُم ما فِي الأَرضِ جَميعًا وَمِثلَهُ مَعَهُ لَافتَدَوا بِهِ ... ﴾، وعرضت الآيات مصير كل منهما.

وانظر إلى هذه الآية العظيمة: ﴿وَلَو أَنَّ قُرآنًا سُيِّرَت بِهِ الجِبالُ أَو قُطِّعَت بِهِ الأَرضُ أَو كُلِّمَ بِهِ المَوتى بَل لِلَّهِ الأَمرُ جَميعًا ..﴾، فلو كان من شأن القرآن أن يسيّر الجبال ويقطع الأرض ويكلم الموتى فيتعظوا لكان القرآن كفيلًا بذلك، ولكن شأنه أن يدل على الله بما فيه من الترغيب والترهيب كما أراده الله، وهو بذلك يشبه آية الرعد في الدلالة على رحمة الله وعقابه.

رابعًا: جاءت الخاتمة مؤكدة لما سبق، فقد أعادت الدعوة إلى التوحيد من خلال الآيات القرآنية، وبيّنت موقف أهل الكتاب منها: ﴿وَالَّذينَ آتَيناهُمُ الكِتابَ يَفرَحونَ بِما أُنزِلَ إِلَيكَ وَمِنَ الأَحزابِ مَن يُنكِرُ بَعضَهُ ...﴾ {٣٦-٣٧}، كما أزالت هذه الآيات الافتراءات المثارة حول الرسول، فبينت أن الرسل من البشر، يتزوجون ويكون لهم ذرية، وبذلك تبقى حجة الآيات القرآنية ساطعة.

وكما افتُتحت السورة ببيان أن أكثر الناس لا يؤمنون بالرغم من دلالة الآيات على قدرة الله تعالى، خُتِمت بدعوة الناس إلى النظر في عاقبة المكذبين من قبلهم، وببيان أن الله عالمٌ بمكر المكذبين المصرّين على اتهام الرسول المُؤيد بالآيات القرآنية الساطعة: ﴿أَوَلَم يَرَوا أَنّا نَأتِي الأَرضَ نَنقُصُها مِن أَطرافِها وَاللَّهُ ..﴾ ﴿وَيَقولُ الَّذينَ كَفَروا لَستَ مُرسَلًا قُل كَفى بِاللَّهِ شَهيدًا بَيني وَبَينَكُم وَمَن عِندَهُ عِلمُ الكِتابِ﴾ {٤١-٤٣}.

ولما كانت تلك الآيات والبراهين في سورة الرعد لا يبقى معها شك لمن اعتبر بها لعظيم شأنها واتضاح أمرها افتتحت سورة إبراهيم بإخراج الناس من الظلمات إلى النور إذ هم تذكروا واستبصروا وتدبروا تلك الآيات ﴿اكِتابٌ أَنزَلناهُ إِلَيكَ لِتُخرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النّورِ﴾

و سُميت هذه السورة الكريمة باسم "إبراهيم" لأنها تعرض جانبًا من قصته عليه السلام، وتبرز توحيده لله ﷻ، ودعاؤه وشكره وحمده لله تعالى، واسم السورة يدعو إلى الاقتداء به في أفعاله كلها. ومحور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد وشكر الله ﷻ، من خلال بيان أن دعوة الأنبياء جميعًا تقوم على التوحيد والشكر، ومن خلال بيان موقف الكافرين ومصيرهم في الدنيا والآخرة.

جاءت مقدمة السورة داعية إلى توحيد الله ﷻ، وبيان وجوب شكره على نعمه: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ... ﴾{١-٥}، فبيّنت الآيات أولًا أنّ معنى النور: هو اتباع صراط الله مالك السماوات والأرض. وبيّنت كذلك شمولية نبوة محمد ﷺ وأنها لكل الناس: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أما باقي الأنبياء فكانت نبوتهم خاصة بأقوامهم فقط: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ... ﴾.

ثم انتقلت الآيات إلى التأكيد على أن توحيد الله تعالى وشكره هو دعوة الأنبياء جميعًا مع بيان موقف الكافرين ومصيرهم، وفي ذلك تهديد لكفار قريش الذين يزعمون الانتماء الديني لإبراهيم عليه السلام. وقد عرضت السورة تصنيفًا لأئمة الباطل الذين كذّبوا بالدعوة:

١- فرعون ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ... ﴾ [٦]

٢- الرؤساء: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا ..﴾ [١٣]، وكبراء القوم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ..﴾ [٢٨]

٣- الماكرين ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ...﴾ [٤٦]

وكان من المناسب ذكر موقف ومصير العدوّ الأول للبشرية، الذي طالما أشركه الناس مع الله تعالى بطاعته، وطالما صد الناس عن شكر ربهم سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. ﴾ {٢٢}.

وبعد ذلك ذكرت الآيات مثَل لكلمة التوحيد، ومثَل لكلمة الشرك والكفر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ... ﴾ {٢٤-٢٦}، فإنّ التزام منهج التوحيد لا تأتي ثماره إلا بخير. ويؤكد هذا التعقيب على المثلَيْن بقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ..﴾ {٢٧}، ولاحظ التهديد في ذكر مصير من كفر بنعمة الله وجحدها : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ {٢٨-٢٩}.

ثم جاء أمرٌ موجهٌ لمن التزم بمنهج التوحيد: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ...﴾ {٣١}، وهو أمرٌ متناسق مع ما سيأتي في قصة إبراهيم عليه السلام من الدعاء بالتزام عبادة الله تعالى وحده وإقامة الصلاة.

وعدّدت الآيات بعضًا من نعم الله تعالى على البشر، وذكر اللهُ تلك النعمة التي تجدُ صداها في قلب كل إنسان: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ... ﴾ {٣٤}.

وكما ذكرت الآيات مصير أهل الباطل، جاءت بقصة إمام الحق وإمام الأنبياء إبراهيم عليه السلام الموحّد الشاكر، ، حين استجاب لأمر الله تعالى بأن يأخذ ابنه الرضيع وأمه هاجر إلى بلاد الحجاز بوادٍ غير ذى زرع، ونفّذ إبراهيم عليه السلام ذلك متوكلاً على الله، مستسلماً له. ولما غادرهما دعاه دعاءً خاشعاً منيباً؛ أن يجعل البلد آمنًا، ويجنبه وبنيه عبادة الأصنام التي

يدعونها من دونه، فيكون على الحق وعبادة الله وحده:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

وبعد رحيل إبراهيم عليه السلام نفد الماء والطعام الذي كان مع هاجر، فقامت تبحث عن مخلوق في هذه الأرض أو زرع أو عين للماء، فصعدت على جبل الصفا علّها تجد شيئًا، ثم صعدت على جبل المروة، وأخذت تكرر ذلك الأمر سبع مرات دون جدوى.

وعند ذلك بعث الله سبحانه وتعالى مَلَكًا ليفجر عيناً من الماء تحت قدمي إسماعيل عليه السلام ليرتوي هو وأمه وليصدق دعوة إبراهيم عليه السلام {وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ}. واستجاب الله عزوجل لدعاء إبراهيم وتم بناء البيت الحرام فى ذلك الوادي فصار البلد آمناً.

وفي ذلك توجيه إلى وجوب اتخاذه عليه السلام قدوة للبشر، وقد تبرأ عليه السلام ممن حاد عن درب التوحيد، و بيّن أن من ينتسبون إليه حقيقةً هم أهل التوحيد فقط.

وبيّنت القصة شكر إبراهيم عليه السلام على نعم الله،﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. ﴾{٣٩}، وإتباعه ذلك بدعائه بإقامة الصلاة، وهي الجانب العملي التطبيقي لعقيدة التوحيد والشكر:﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾{٤٠}. ولاحِظ دعاءه بعد ذلك بالمغفرة لكل من التزم بالإيمان والتوحيد إلى يوم القيامة، ألا فجزاه الله ونبينا محمد ﷺ خيرًا عن كل فرد منّا.

وفي ختام الآيات، تجد التأكيد على ماسبق من وجوب التزام التوحيد والشكر لله ﷻ ، وذلك ببيان مصير الظالمين الذين قابلوا نعمة الله عليهم بالجحود والكفران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. ﴾{٤٢ - ٤٣}، وتأكيد انتصار الله لأهل التوحيد: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .. ﴾{٤٧-٥١}.

وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التوحيد، ختمت كذلك بالدعوة إلى التوحيد: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، فأنذر أمتك يا محمد وحذّرهم، وقل لهم أن يحذّروا الناس من بعدك.

/https://www.facebook.com/lydbroteam

• الجزء الرابع عشر

خُتمت سورة إبراهيم بقوله تعالى ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ وبدأت سورة الحجر بصوف هذا البلاغ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾

و الحجر هو الحجارة التي تحوطك لتتحصن بها، فسميت سورة الحجر نسبة إلى الحجر الذي كان يسكنه قوم صالح عليه السلام، واتخذوه فى وسط الجبال حتى يحميهم من الكوارث والزلازل، ومن أهم الدلالات اللغوية لوصف ثمود بأنهم أصحاب الحجر: المبالغة في الحفظ والمنعة والأمان، وكأنهم ظنوا أن بيوتهم التى نحتوها في الجبال ستحفظهم، فجاءهم عذاب الله بصيحة تدخل أذانهم فتصعقهم، لنعلم أنه لا حافظ إلا الله، وأن الأسباب بيد الله يؤيد بها من يشاء ويهلك من يشاء وهو قادر على ما يعجزك، فقط عليك عبادته وحده .

جاءت المقدمة ببيان مهدِد للكافرين يثبت أنه لن يحفظهم من بأس الله شئ، إلا إذا تابوا وآمنوا والتزموا منهج الله تعالى المتمثل في القرآن: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ...﴾ {١-٥}.

(ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) وربما يود الذين قصروا لو كانوا مجدّين ، وربما يود الذين عصوا لو كانوا مطيعين ، وعندما تنكشف الخدعة الكبرى يندم الذين أضاعوا أيامهم سدى ، ولم يستعدوا للمستقبل الباقي (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ...)

ثم انتقلت الآيات إلى عرض شبهة لكفار قريش تبرز أنهم ظنوا أنفسهم في حفظ من عذاب الله ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .. ﴾{٦-٩}، فطلبوا نزول الملائكة لتعذبهم، فكان الرد الإلهي أن الملائكة إنما يتنزلون بأمر ربهم، ولو أمر الله بإنزال العذاب عليهم فلن يجد الكافرون من عذابه حافظاً.

وينبه سبحانه إلى أن هذا الوحي الخاتم خالد ما دامت السماوات والأرض ، وأن أعداء الحقيقة مهما بلغت ضراوتهم لن يطمسوا أنواره ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

ثم أشارت المقدمة إلى بعض مظاهر قدرة الله في الكون، وعلى علم الله الحفيظ، فإن الله:

١- يحفظ دينه ، و يحفظ السماء من الشياطين ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾، ويحفظ الأرض ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾، يحفظ الأرزاق ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾، ويحفظكم عباد الله المؤمنين ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

ثم انتقلت السورة إلى عرض قصصي يثبت حفظ الله لأوليائه، ويهدم أسباب الدنيا، وهذا كله تفصيل لما ورد في أول السورة عن القرى الهالكة(ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ..):

١- قصة آدم عليه السلام، وقد تكررت قصة آدم وعدوه في القرآن الكريم ، لكن تميزت هنا بتكرار المعدن الذي نشأ منه ، وأنه صلصال من حمأ مسنون. إنه مسكن مؤقت على أي حال ، أو جسر يعبر عليه الإنسان إلى مصيره الباقي وفق ما قدم من عمل فترة الحياة الأولى، والمخدوع من نسي ربه ومبدأه ومعاده . في القصة تحذير من كيد الشيطان الذي يريد أن يترك الناس منهج الله فيُخرجهم من حفظه، واللطيف أن ذكر خلقه من صلصال قد تكرر ثلاث مرات، وفي هذا إشارة إلى ضعف التكوين الجسمي للإنسان، لنعلم أن النفس تتشكل مثل الصلصال فبإرادتها تصل لأعلى الدرجات أو تحط لأدنى الدركات.

ولم يستثنى إبليس إلا عباد الله المُخْلَصين، فالمُخْلِص إذا عمل عملا يُخْلِص فيه لله، فيجعل حياته كلها لله، فلا يستطيع الشيطان أن يقترب منه ﴿..لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ..﴾ [٣٦-٤٢].

٢- قصة إبراهيم ذاك العبد المخْلَص، رزقه الله إسحاق حين انعدمت الأسباب لحفظ به رسالة إبراهيم وجعل من ذريته النبوة، وعندما دخلت الملائكة عليه تبشره بالولد، عجب سيدنا إبراهيم، ولكنهم ذكّروه بألا يقنط من رحمة الله، ولا ينظر للمسألة من زاوية الأسباب المادية، لكن من زاوية القدرة الإلهية والإرادة الربانية، فلا ييأس من أن يأتيه الولد بلا حول منه ولا قوة. فالبشارة بالغلام العليم تدل على حفظ الله، لأنه تعالى سيحفظ هذا الجنين في رحم أمه حتى لو كانت عجوز وبعلها شيخ كبير.

ولأن العبد المُخلَص لله لا يشغله أمره من دعوة الله عن قضايا أمته، فسرعان ما سأل الملائكة عن شأنهم لماذا جاءوا ؟ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ، فأخبروه أن الله أرسلهم لإهلاك قوم لوط الذين اغواهم إبليس.

٣- قصة قوم لوط: الذين غيروا الفطرة بداخلهم وفعلوا الفاحشة، هؤلاء من حاصرهم الشيطان وبنى حول عقولهم وقلوبهم حجرا فصارت الشهوة والفاحشة تسكرهم كما تسكر الخمر شاربها، تجعل على القلوب خمارا ! ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ . وإهلاكهم آية على علم الله الحفيظ: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ [٧٤-٧٦]، فآثار قريتهم المهلكة في طريق ثابت يسلكه الناس، وكأنها محفوظة كي تبقى آية للمؤمنين.

٤- قصة أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ .. ﴾[٧٨-٧٩]، وتسميتهم "بأصحاب الأيكة" فيه إشارة إلى أنهم كانوا في الدنيا في رغد من عيشهم لما فيه من شجر كثير مجتمع، لكن ذلك لم يحفظهم من بأس الله إذ لم يؤمنوا، وإن آثارهم آيضا مازالت موجودة، حتى تبقى آية للناس.

٥- قصة أصحاب الحجر، فقد كانت أدل ما في السورة على محورها الذي يبين أنه لا حافظ من بأس الله، وذلك أنهم ظنوا أن بيوتهم المنحوتة في الصخر ستحفظهم: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ...﴾[٨١-٨٤]، ولاحظ قوله تعالى: "وآتيناهم آياتنا"، فقد كان صالح عليه السلام يدعوهم إلى منهج الله مؤيداً بمعجزة الناقة التي خرجت من الصخر، وهي معجزة متلائمة مع ما حذقوه من نحت الصخور والجبال، لكنهم أعرضوا عنها فلم يكن لهم حافظ من بأس الله.

وأعادت الخاتمة التذكير ببعض مظاهر علم الله الحفيظ في السماوات والأرض، وحفظ القرآن:﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ...﴾[٨٥-٨٧]، والتذكير بأن التزام منهج الله يحفظ المؤمنين، وأن من حاد عنه لاحفظ له: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .. ﴾[٨٨-٩٤].

وكما افتتحت السورة ببيان حفظ الرسالة المتمثلة بالقرآن، ختمت السورة ببيان حفظ صاحب الرسالة ﷺ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ...﴾[٩٥-٩٩]، لتداوي كلمات الوحي قلب النبي ﷺ لما جاءه من الأذى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾، فأي وحي هذا الذي ما ترك صغيرة ولا كبيرة، يأتيك بمنهج الحياة، ويأتيك بالآيات والعبر والنذر، ويسلي القلوب ويذهب عنها حزنها ويداويها، وهذا قلب النبي أعظم قلب في البشرية وأوسع الناس صدرا وأعظمهم خلقا.

ولما ختمت سورة الحجر بالكلام عن الموت ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾، بدأت سورة النحل به ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

وخُتمت سورة الحجر بالحديث عن من اتخذ آلهة من دون الله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وبدأت سورة النحل بتنزيه الله عن ذلك بقوله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

•سورة « النحل»

تُسمى سورة النعم، فقد أخبرت السورة أن الله تعالى أوحى إلى النحل اتخاذ مكان معيشتها من الجبال أو الشجر أو مما يعرشه البشر من النبات، وأوحى إليها كيفية إنتاج العسل من أكلها من كل الثمرات، وسلوكها في ذلك مختلف السبل، حتى يكون

شرابا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس، فإخبار السورة عن هذه الحقيقة يدل على أن النحل من أعجب آيات الله في خلقه الدالة عليه، فبالتزامها وحي ربها أنتجت شرابا شافيا، والوحي إليها يشبه وحي الله إلى الأنبياء لتبليغ الهدى للناس، فالعسل غذاء للأبدان، والوحي غذاء للأرواح.

جاء في مقدمة السورة بيان أن الآيات التي يوحيها الله لأنبيائه، والآيات الكونية التي سخرها الله للإنسان، تدعوان إلى توحيده وشكره، لأنه هو وحده الخالق المنعم: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ...﴾{١-٨}، فجاء أن أمر الله تعالى بإهلاك المكذبين مرتبط بنزول آيات الوحي على الأنبياء، فإذا أصر المكذبون على شركهم وكفرهم فقد استحقوا العذاب، وذكر نعمة الإيجاد من الله للإنسان وهي أكبر نعمة، وكذلك تسخير الأنعام له لتسهل أمور حياته.
ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها، ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ولكن من البشر من يكون خصيما مبينا لله تعالى، فيعرض عن الآيات الكونية، ويعرض عن هداية الرسل، ويشرك بالله تعالى .

ثم انتقلت الآيات إلى التفصيل في عرض بعض الآيات الكونية التي من المفترض أن تقود الانسان إلى الإيمان بالله وشكره وإخلاص العبودية له وحده :﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ... ﴾{١٠-١٣} وقد تكرر الضمير (لكم) بشكل لافت بعدد يزيد عن الخمس عشرة مرة، كلها تفيد توجيه النظر إلى نعم المُنعم سبحانه على الإنسان.
وذكر أن من مظاهر نعم الله على الإنسان، تسخير البحر وما فيه من لحم السمك الطري، وما فيه من الحلية التي يستخرجها الإنسان، وتسخيره للفلك، وأما في الأرض فقد ألقى الله فيها جبالًا لئلا تميد بالإنسان، وفي السماء سخر الله له النجوم ليهتدي بها، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ثم ذكر السياق موقف الإنسان من هذه الآيات الكونية: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ... ﴾{٢٠-٢٣}، فبعد أن يرى بعينيه كل هذه النعم من الله تعالى، إذا هو يشرك به سبحانه.

وبعد أن عرضت السورة موقف الإنسان من الآيات الكونية، انتقلت إلى عرض موقفه من آيات الوحي: ﴿ ... وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ... ﴾{٢٣-٢٦} فكفر الإنسان بآيات الله الكونية والقرآنية إنما هو مكر منه، يستحق بذلك المكر أن يأتيه العقاب من الله من حيث لا يشعر.

ولكي يكتمل الترهيب والترغيب، عُرض مصير الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، فقال عن الكافرين المشركين:﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ... ﴾{٢٧-٢٩}، وقال عن المؤمنين بآيات الله : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ... ﴾{٣٠-٣١}، وقد ذكرت الآيات أن الوحي إلى الأنبياء مشيئة الله في خلقه، كما أنه من شأنه تعالى إهلاك المكذبين الماكرين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ...﴾{٤٣-٤٤}، فالله وحده هو الذي يوحي للأنبياء جميعا، وهو وحده خالق الكون ومسخره للإنسان، وهو وحده القادر على إهلاك المكذبين وأن يأخذهم على غرة وهم لا يشعرون .

ثم انتقلت الآيات للتأكيد على الدعوة إلى الإيمان والتوحيد والشكر لله بأسلوب مزدوج بذكر نوعي الآيات على نحو يصعب الفصل بينهما، فانظر مثلا قوله تعالى عن الآيات الكونية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ...﴾{٤٨-٥٣}، ولاحظ بيان أن كل المخلوقات تسجد لله تعالى، وتخافه وتفعل ما يأمرها به، ولا تستكبر كما يستكبر الإنسان، ولا يخفى علاقة ذلك بما سيأتي من أن النحل إحدى هذه المخلوقات المطيعة لوحي ربها. وبيان أن إنزال الكتاب على النبي ﷺ ليس إلا بيانا وهدى ورحمة، وهذا يشابه ما ينتج عن الوحي الإلهي للنحل إذ ينتج منه شراب فيه شفاء للناس.

ثم أعاد التذكير بالنعم، فذكر الأنعام التي يسقي الله الإنسان مما في بطونها لبنا خالصا سائغا، وثمرات النخيل والأعناب، وفصّل بعرض آية النحل، وبيان أنها تقوم بذلك بوحي من الله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ...﴾{٦٨-٦٩}، وأن الله جعل مما يعرش الإنسان بيوتا لها، فهم يرون هذه الآية العجيبة بقربهم، ليكون ذلك أدعى لهم للإيمان، ولاحظ ذكر العسل الذي فيه شفاء للناس، فهذه فائدة للإنسان لا ينكرها عاقل، فكأن النحل مثال للأمة الطائعة التي تمتثل أمر ربها ليخرج خير ما فيها . ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ﴾ أي: إن ربك الذي يوحي إليك يا محمد بآيات القرآن، وهو من يوحي إلى النحل لتكون آية عجيبة دالة على الله تعالى .

ثم انتقل السياق إلى عرض موقف البشر من الآيات القرآنية مرة أخرى، والرد عليهم لتبقى دلالة آيات الوحي ظاهرة بلا لبس كدلالة الآيات الكونية على الله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ... ﴾{١٠١-١٠٣}، فلم يعد هنالك من شك في أن منزل القرآن هو خالق الأكوان.

وتأتي الخاتمة لتعيد الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده وشكره، وتحذر من الكفر بأنعمه الدالة عليه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ...﴾{١١٢-١١٣} .

وكما أوحى الله إلى النحل لتأكل من كل الثمرات لتنتج العسل، أمر الإنسان بالأكل من الحلال الطيب الذي سخره الله له ليتحقق له الخير، وبين ما حرم عليه من الخبائث: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ... ﴾{١١٤-١١٦}

وقد دعت المشركين إلى الإيمان والتوحيد والشكر، من خلال بيان أن إبراهيم عليه السلام - الذي يزعمون انتسابهم الديني إليه - كان موحداً لله شاكرا له: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وختمت السورة بدعوة النبي ﷺ إلى الصبر على تكذيب قومه ودعوتهم بالتي هي أحسن، مع بيان أن الله سيحفظ المؤمنين المتقين الذين اتبعوا هدى ربهم وأحسنوا لأنفسهم ولغيرهم :﴿وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ... ﴾.

/https://www.facebook.com/lydbroteam

الجزء الخامس عشر

انتهت سورة النحل بمعية الله لمن أتقى وأحسن﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ لتأتي سورة الإسراء بتسليم الرسالة والكتاب لأمة محمد ﷺ، فهذا الكتاب كلام الله الذي فيه الإحسان للعالم أجمع، فمن يحسن في أخذه والعيش به كان في معية الله. وهي المعية التي كانت للرسول في رحلة الإسراء التي جعلها الله مواساة للنبي ﷺ بعد وفاة خديجة رضي الله عنها ووفاة عمه أبو طالب، وأكرم الله تعالى بها عبده محمد ﷺ وجعلها ميزة له ولأمته على سائر الأمم. وخاصة أمة بني إسرائيل المذكورين بعد هذه المعجزة مباشرة.

معجزة الإسراء كانت بمثابة تحويل مجرى قيادة البشرية من بنى إسرائيل إلى أمة الإسلام، ولذلك لما أُسري به ﷺ إلى المسجد الأقصى صلى إماماً بجميع الأنبياء من آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام .

افتتحت السورة بتسبيح الله تعالى الذي أسرى بعبده وأكرمه بهذه الرحلة العجيبة ﴿سُبحانَ الَّذي أَسرى بِعَبدِهِ لَيلًا مِنَ المَسجِدِ الحَرامِ إِلَى المَسجِدِ الأَقصَى ..﴾، وهذا الافتتاح يدل على فضل النبي ﷺ ومكانته عند ربه عز وجل، وفيه ذكر الأقصى وهو قلب الأرض المباركة التي سيتم فيها الانتصار على أمة إسرائيل إن شاء الله.

ثم بيّنت المقدمة القضاء الإلهي بانتصار أمة نبي الإسراء(محمد ﷺ)على أمة إسرائيل، وذلك لعلمه تعالى بأن الصراع بين الأمتين كائن لا محالة : ﴿وَآتَينا موسَى الكِتابَ وَجَعَلناهُ هُدًى لِبَني إِسرائيلَ أَلّا تَتَّخِذوا مِن دوني وَكيلًا...﴾{٢-٣} وجاء ذكر النبي موسى وهو أعظم أنبيائهم، مما يتلاءم مع ذكر نبي الإسلام، و إيتاء موسى عليه السلام الكتاب، والذي كان أهم أحكامه لبني إسرائيل ألا يتخذوا من دون الله وكيلًا، ولكنهم اتخذوا كل شيء وكيلًا من دون الله تعالى، ولم يقيموا لكتابهم اعتباراً فحرفوه، وجاء ذكر نوح عليه السلام بأنه كان عبدًا شكورًا، مما يفيد تقريعًا لأمة إسرائيل المستكبرين عن عبادة الله تعالى، وهم أجحد الخلق لنعم الله تعالى عليهم.

ثم انتقلت المقدمة لبيان أن أمة إسرائيل ستفسد في الأرض مرتين، وفي كل مرة سيسلط الله عليهم عبادًا له أولي بأس شديد يسومونهم سوء العذاب، وهؤلاء العباد من أمة نبي الإسراء على الرأي الأرجح﴿وَقَضَينا إِلى بَني إِسرائيلَ فِي الكِتابِ لَتُفسِدُنَّ فِي الأَرضِ مَرَّتَينِ ..﴾{٤-٧}، فالمرة الأولى كانت في الأرض التي ابتدأت منها رحلة الإسراء، وهي الجزيرة العربية، وإفسادهم فيها كان تجاه نبينا وأمته، فقد كانوا أول كافر به وكانوا يتآمرون مع المشركين ضد النبي والمؤمنين، ومعلوم ما حصل في حادثة الأحزاب من تأديب المؤمنين لبني النضير وبني قريظة وخيبر، وقد أجلى الله يهود خيبر عن أرض الجزيرة.

أما الإفساد الثاني فهو ما نراه اليوم، باحتلال الأرض التي أُسري بالنبي ﷺ إليها، وهي الأرض التي سيدخلها العباد أولو البأس الشديد من أمة نبي الإسراء ويسوءوا فيها وجوه المحتلين، ويحرروا المسجد الأقصى من دنسهم.

انتقل السياق إلى بيان موقف قوم محمد ﷺ من بعثته، ومن القرآن العظيم، وتخلل ذلك ذكر الدستور الأخلاقي لأمته ﷺ، والذي إذا التزموا به سيتحقق لهم النصر على أمة إسرائيل، وفي ذلك تربية لأمة نبي الإسراء بالحذر من الوقوع بما وقع من أمة بني إسرائيل.

فكانت أول القضايا التي عرضها السياق موقف قوم النبي ﷺ من (الآخرة) ﴿إِنَّ هذَا القُرآنَ يَهدي لِلَّتي هِيَ أَقوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤمنينَ الَّذينَ يَعمَلونَ الصّالِحاتِ ..﴾{٩-١٠}، وافتتح عرض موقفهم ببيان فضل القرآن، فالتزام أمة القرآن بما جاء فيه سيحقق لهم النصر على أمة التوراة التي لم تلتزم بها. أما كون الآخرة أول القضايا المعروضة فلا يخفى أن أمة إسرائيل لا تقيم للآخرة اعتبارًا، وإن آمنوا بها فهم يعتقدون أن لهم عند الله الحسنى، وإن عذّبهم الله في النار فسيكون عذابهم أيامًا معدودات، وقد استدل السياق على إثبات حقيقة الآخرة بآيتي الليل والنهار.

ثم انتقل السياق إلى ذكر أوامر وتوجيهات لأمة النبيﷺ، وتعتبر دستورًا أخلاقيًا إلهيًا، فكان أول أمر للمؤمنين أن لا يجعلوا مع الله إلها آخر، والإحسان إلى الوالدين، والأمر الثاني كان بإيتاء ذوي القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم من الصدقات، وفي سياق ما يتعلق بالأموال فقد نُهي المؤمن عن أن يجعل يده مغلولة إلى عنقه، وقد وصف اليهود - لفرط بخلهم - إلههم وخالقهم بأن يده مغلولة، غُلت أيديهم ولعنوا بما قالوا. والأمر الثالث كان بتحريم قتل الأولاد خشية الفقر.

وحذر السياق من الزنا، وأكل مال اليتيم، وعدم الوزن بالميزان العادل، وعقب على ذلك بقوله﴿وَلا تَقفُ ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ إِنَّ السَّمعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنهُ مَسئولًا..﴾{٣٦-٣٨}.

ثم عاد السياق إلى بيان موقف قوم النبي ﷺ من القرآن العظيم، الذي كان بنو إسرائيل أول كافر به ﴿وَإِذا قَرَأتَ القُرآنَ جَعَلنا بَينَكَ وَبَينَ الَّذينَ لا يُؤمِنونَ بِالآخِرَةِ حِجابًا مَستورًا..﴾{٤٥-٤٧} وأعاد ذكر موقفهم من حقيقة اليوم الآخر ﴿وَقالوا أَإِذا كُنّا عِظامًا وَرُفاتًا أَإِنّا لَمَبعوثونَ خَلقًا جَديدًا..﴾{٤٩-٥١}. وفي سياق الحديث عن الآخرة ناسب ذكر قصة آدم عليه السلام مع إبليس، وفيها يبرز تكبر إبليس على أمر الله له بالسجود لآدم، وذكر السياق أنّ من أساليب الشيطان في إغواء بني آدم استخدام الأموال والأولاد، مما يتلاءم مع قوله تعالى عن أمة إسرائيل:﴿ثُمَّ رَدَدنا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيهِم وَأَمدَدناكُم بِأَموالٍ وَبَنينَ ..﴾ فالشيطان وهذه الأمة -بني إسرائيل- مشتركان في منهج الإضلال والخروج عن الدستور الإلهي.

وانظر إلى هذه المواقف من قوم النبي ﷺ تجاهه ﴿وَإِن كادوا لَيَفتِنونَكَ عَنِ الَّذي أَوحَينا إِلَيكَ لِتَفتَرِيَ عَلَينا غَيرَهُ ..﴾ {٧٣-٧٧}، فمحاولة المشركين لفتنة النبي ﷺ عما أُوحي إليه، ومحاولتهم إخراجه من أرضه تشابه موقف بني إسرائيل من أنبيائهم.

لنصل إلى الخاتمة التي تحوي تأكيدًا لكل ما سبق، فقد أعادت التذكير بإثبات حقيقة التوحيد وما يترتب عليها من الإيمان باليوم الآخر، وهذه أهم قاعدة في الدستور الإلهي ﴿أَوَلَم يَرَوا أَنَّ اللَّهَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ قادِرٌ عَلى أَن يَخلُقَ مِثلَهُم..﴾ {٩٩-١٠٠} ، ثم جاء ذكرُ بخل الإنسان مناسباً لما هو معلوم عن طبيعة البخل التي وُسم بها اليهود. وأعادت ذكر بيان القضاء الإلهي بنصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل﴿...وَقُلنا مِن بَعدِهِ لِبَني إِسرائيلَ اسكُنُوا الأَرضَ فَإِذا جاءَ وَعدُ الآخِرَةِ جِئنا بِكُم لَفيفًا﴾ {١٠١-١٠٤}، و ذكر الآيات التسع مع موسى عليه السلام ثم التعقيب بسؤال بني إسرائيل عنها يبرز مدى خروجهم عن الدستور الإلهي بعدما رأوا من آيات الله ما رأوا. كما أعادت الآيات التذكير بالالتزام بمنهج الله المتمثل بالقرآن وأنه هو سبيل النصر﴿...وَقُرآنًا فَرَقناهُ لِتَقرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلى مُكثٍ ..﴾ {١٠٥-١٠٩}.

وكما افتتحت السورة بذكر تسبيح الله تعالى وذكر عبودية النبيﷺ، اختتمت بذكر الصلاة التي هي مظهر عبودية الإنسان لربه، وبحمد الله تعالى، وكأن النصر المذكور أول السورة لأمة الإسراء قد تحقق، وها هم يحمدون الله تعالى عليه ﴿قُلِ ادعُوا اللَّهَ أَوِ ادعُوا الرَّحمنَ أَيًّا ما تَدعوا فَلَهُ الأَسماءُ الحُسنى ..﴾ {١١٠-١١١}. ألا ما أروع هذه الآية وتاليتها لتكون ختامًا لهذه السورة الجليلة المستشرفة مستقبل الأمة والعالم، وأن تردّك آيتا الختام إلى مقام العبودية في أروع تجلياته : "الصلاة".

لتبدأ سورة الكهف بحمد الله على الوحي، ونعمة إنزال الكتاب.

في رحلتك مع كلمات الوحي تتنقل بين السور المدنية والمكية فتأتي سور تخاطب فترات الاستضعاف وسور في فترات التمكين فتستشعر بمعايشة الوحي سنة الله في كونه بين التمكين والاستضعاف، تجاهد مع الرسل والأنبياء مبلغا رسالات الله، تارة تستضعف وتارة يُمكَّن لك، فيفيض قلبك يقينا بمعرفة سنة الله في أرضه، لكنك في سورة الكهف تعايش كل مراحل التاريخ من الاستضعاف إلى التمكين إلى ما بعد التمكين ولذا كانت من حكمة الله قراءتها يوم الجمعة، لتعيش مع كل مراحل الدعوة، تثبت قلبك وتعلمه معالم الطريق، تبدأ بالعبادة والدعوة حتى يطهر قلبك فتسير طلبا للعلم لتصل لمرحلة الجهاد، وبينهما الآيات تعالج في قلبك حب الدنيا لتخرج من القيود وتتحرك في الأرض، تصعد الجبال مع أهل الكهف وتترك مرافق الحياة فرارا بدينك وهجرة إلى الله لتجد المأوى في معية الله، وتمضي لصاحب الجنة تدعوه إلى الله، ثم تمضي لأول رحلة في الكون لطلب العلم لتصل لمرحلة الجهاد مع ذي القرنين .

والسورة فيها تصحيح العقيدة ومنهج النظر والفكر والقيم بميزان العقيدة، فإنها تفرق بين قوة المصرف لهذا الكون (وهو الله)، وبين الطبيعة أو الأسباب، وهذا يظهر من خلال بيان حقيقة الدنيا، وقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح وقصة ذي القرنين، فالأولى تدعو إلى العلم، والثانية تدعو إلى الجهاد، وهما أمران لا بد من توافرها في الشخصية الإسلامية.
كما تبين أنّ من لجأ إلى الله واعتمد عليه واتبع منهجه، هداه الله وحماه وحفظه من الفتن والمخاوف، وحقق له الأمن في الدنيا والآخرة، علم ذلك أم لم يعلم.

جاءت المقدمة ببيان فضل القرآن ووصفه بالقيم وغير ذي عوج، وبينت مصير المؤمنين وهددت الكافرين : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ... ﴾{١-٨}. فمن ادعى أن لله ولدًا فقد أقحم نفسه في الجهل، وارتكب كذبة عظيمة، وجاء تهديد هؤلاء ببيان أن الله سيجعل ما على الأرض صعيداً جرزاً، فلن يجدوا أي ملجأ يحميهم من بأس الله يوم القيامة.
ثم انتقلت السورة إلى عرض قصصي متنوع فكانت أول قصة قصة أصحاب الكهف، وسبق العرض التفصيلي للقصة تلخيص شائق: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ...﴾{٩-١٢}، ثم ابتدأ العرض التفصيلي للقصة : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ...﴾{١٣-١٦}. فالتزامهم بمنهج الله زادهم هدى، وقد كان إلهامهم بدخول الكهف لطفاً إلهياً ظاهراً بهم، ويبرز من بيان السياق بأن الشمس تزاور عن كهفهم إذا طلعت، وتقرضهم ذات الشمال إذا غربت، وأنت تحسبهم أيقاظًا لو اطلعت عليهم وهم في الحقيقة رقود، فهذه بعض أوجه لطف الله الخفي بهم وهم لا يعلمون به.
ثم انتقل السياق إلى أمر آخر غاية في الأهمية، وهو الدلالة على قدرته تعالى على البعث: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ...﴾{١٩} ثم انتقل السياق إلى تعقيب إلهي يبرز قلة علم البشر وكمال علم الله المطلق: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ... ﴾{٢١}، وعرَض التعقيب كذلك مدى اختلاف البشر في عدد أصحاب الكهف، وفي مدة لبثهم، وبين للنبي ﷺ أنه لا يحدث شيء في الكون إلا بمشيئة الله، وأمره بذكر الله حال النسيان، وأن يلجأ إليه دائما، وبيّن أن علم الله مطلق.

ثم أمر السياق النبي بتلاوة وتبليغ القرآن الذي هو منهج الله للبشر: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ..﴾، وبين موقف الناس ومصيرهم من اتباع هذا المنهج أو عدمه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ... ﴾{٢٩-٣١}، وجاء وصف حال الكافرين في النار وقد أحاط بهم سرادقها، فالكهف الضيق الذي لجأ إليه المؤمنون قد أصبح رحباً برحمة الله، بينما النار الهائلة الحجم تحيط بالكافرين وتضيق عليهم بعذاب الله.
ثم انتقل السياق إلى قصة صاحب الجنتين، وهي تبرز لنا أنه قد فُتن بجنتيه حتى حاد عن منهج الله، فكاد أن ينكر الآخرة ووصل به الأمر إلى الشرك بالله، ولم يجد له ملجأ ينصره من بأس الله الذي أحاط بجنّتيه، بينما صاحبه الذي التزم بمنهج

الله حفظه الله من أي سوء: الآيات {٣٢_٣٦}، ولاحظ التحذير من موالاة المال والولد بدلًا من الله عز وجل: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ...﴾ {٣٧_٤١}، وانظر ماذا كانت نتيجة اعتماده على الدنيا وغفلته عن ربه عز وجل:{٤٢-٤٤}.ثم عقّب السياق ببيان حقيقة الدنيا وهوانها على الله، وحذر من الافتتان بالمال والولد.

ثم انتقل السياق إلى عرض مشهد أخروي يبرز تمام قدرة الله وتمام علمه المطلق: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ...﴾ {٤٧-٤٩}، وعلى عادة القرآن ربط بين ذكر الآخرة وبين قصة آدم عليه السلام، لأن قصته عليه السلام تمثل بداية البشر، واليوم الآخر يمثل النهاية، فحذر السياق من تولي الشيطان وذريته من دون الله، وبيان مدى حمق من اعتمد على شريك جاهل عديم القدرة :{٥٠-٥٣}. ثم عاد السياق إلى التذكير بالتزام منهج الله المتمثل في القرآن، مع بيان أن لا ملجأ يحمي من حاد عنه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ...﴾ {٥٤-٥٩}.

ثم انتقل السياق إلى قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، وهي أوّلا: تبرز قصور علم البشر حتى لو كان نبياً، وثانيًا: تبين لبني إسرائيل الذين زعموا جهلًا وكذبا أن لله ولدًا كما جاء في أول السورة أن أعلم أنبيائهم يتعلم على يدي عبد صالح من عباد الله لم يذكر اسمه، وثالثًا: تمثل أحد أوجه لطف الله الخفي فيمن احتمى به ولزم منهجه، وتبرز تمام القدرة والعلم الإلهي.
تبدأ القصة بذكر نسيان موسى عليه السلام وفتاه للحوت : الآيات {٦٠-٦١}،.وأما أحداث القصة، فيبرز من خرق العبد للسفينة لطف الله الخفي بالمساكين، فهم لم يعلموا بذلك، ومن قتله الغلام لطف الله الخفي بوالدي الغلام المؤمنين، ومن إقامته الجدار لطف الله بالغلامين اليتيمين اللذين كان أبوهما صالحًا. ، واللافت للنظر أن العبد الصالح نسب أفعاله إلى الله: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ...﴾، ولم يفتتن بعلمه كما افتتن صاحب الجنتين بجنتيه.

الجزء السادس عشر

نستكمل سورة «الكهف» وبقيت قصة ذي القرنين، وهي تبرز بعض من مظاهر كمال علم الله وقدرته و لطفه، وذلك يتمثل بما قام به ذو القرنين من الأعمال، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ...﴾{٨٣-٨٨}، و فيها تمكين ذي القرنين في الأرض وإيتائه أسباب الملك، وكيف جعله الله سببًا من أسباب لطفه الظاهر بمن آمن من القوم، فقد سلطه الله على الظالمين، وجعله فرجًا للمؤمنين.

أما الحدث الثاني المتعلق بمروره على قوم لم يكن لهم من دون الشمس سترًا، فهو مسوق لبيان تمام القدرة الإلهية، وذلك يتجلى عند ربط هذا الحدث مع ما جاء في قصة أصحاب الكهف، حيث بينت قدرة الله في جعل الشمس تزاور عن كهفهم إذا طلعت، وتقرضهم إذا غربت، فكما هو قادر على حفظ الفتية المؤمنين من الشمس، قادر أيضًا على أن لا يجعل لهؤلاء القوم ما يحفظهم منها .

والحدث الثالث كان أيضًا من مظاهر لطف الله بالبشر، فقد كان الردم الذي بناه ذو القرنين بين يأجوج ومأجوج وبين هؤلاء القوم حماية لهم من شر يأجوج ومأجوج حتى يحين وعد الله، فكان ذلك أظهر للطف الله عز وجل وحمايته للضعفاء، ونسب ذو القرنين ذلك الفعل لربه عز وجل، ولم يُفتن في ملكه وسلطانه كما فُتن صاحب الجنتين : ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ..﴾{٩٨}.

لنصل إلى الخاتمة، وهي تؤكد قدرة الله تعالى التامة على البعث ومجازاة من حاد عن المنهج : ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ...﴾{٩٩-١٠١}، وتؤكد حفظ الله وحمايته لأوليائه الملتزمين بمنهجه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ...﴾{١٠٧-١٠٨}

وكما افتتحت السورة ببيان فضل القرآن القيم الغير ذي عوج، ختمت السورة ببيان كمالِ علمِ مُنزّل هذا القرآن، والدعوة إلى التزام منهجه والالتجاء إليه وحده لتحقيق الأمن والأمان في الدنيا والآخرة : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ... ﴾{١٠٩-١١٠}.

جاء في سورة الكهف ذِكر أمور عدة من رحمة الله سبحانه لعباده ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، فقد رحم أصحاب الكهف، ورحم المساكين أصحاب السفينة ورحم الأبوين المؤمنين، ورحم الغلامين اليتيمين، ورحم الضعفاء من هجمات يأجوج ومأجوج، وجاءت بعدها سورة مريم في رحمة عبد من عباده، وكانت المشاعر تتحرك لدين الله في سورة

الكهف، تتحرك في الأرض تدعو صاحب الجنة وتسافر تطلب العلم مع موسى عليه السلام، وتجاهد في الأرض مع ذي القرنين، أما في سورة مريم تتجه لمحراب العبادة، الواحة التي يستريح فيها العبد ويتلقى غذاء القلب من الوحي.

ففي المحراب مشاعر الخوف والرجاء والتطلع لعطاءات الله ورحمته، وعلى قدر ارتقاء الإنسان في قضاياه وهمومه على قدر ما يفهم من كتاب الله، ,فإذا ارتقيت بهمومك لما يشغل العبد المؤمن الداعي إلى الله، اقتربت من شعور النبي ﷺ وأصحابه حين تلقّوا القرآن، وتجد في واقعك ما يشابه واقعهم ، وتستحضر مشاعر النبي ﷺ وما ناله من الأذى وحاجته لرجال تنصر هذا الدين وتبايعه، فتجد كلمات الوحي بواقع يماثله بحاجة زكريا إلى الولد، مشاعر الخوف والرجاء تملأه، وهو لا يعلم من يحمل دين الله ودعوته من بعده، هُنا ترى المشاعر الخاصة بين الداعية وربه، ورحمات الله، وخرق السنن الكونية، ويأتي زكريا الولد من حيث لا يحتسب ويأتي النبي رجال الأنصار من المدينة يبايعونه على النصرة .

والإنسان حين تضعف نفسه يحتاج لكلمات الوحي ليرى قدرة الله ورحمته، رحمته لمن اختصه بالعبودية ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾.

وتسمية السورة باسم (مريم) هو الأجدر، بسبب ما جاء في قصتها من مظاهر الرحمة، وتمام قدرة الله وشمول علمه عز وجل، فظلال الرحمة والرضا والاتصال بالله مهيمنة على السورة. وكون السورة سُميت باسم امرأة قد يوحي بأن فيها شئ مما تتصف به النساء وهو الرحمة فتكرر ذكر الرحمة و الرحمن و مشتقاته في هذه السورة ما يقرب من ١٦ مرة.

جاءت مقدمة السورة تعرض قصة زكريا عليه السلام، ويبرز فيها كمال علم الله ورحمته وقدرته على سماع مناجاة زكريا الخفية واستجابة دعائه في رعاية وعطف، فينادي الله عبده من الملأ الأعلى﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ ويهبه يحيى عليه السلام بالرغم من كبره في السن وامرأته عاقر، فكأنما أفاق زكريا عليه السلام من غمرة الرهبة وحرارة الرجاء، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء.

ومظاهر الرحمة وكمال القدرة هذه دعت زكريا أن يأمر قومه بتسبيح الله القادر، فيعيشوا في مثل الجو الذي يعيش فيه .

ثم انتقل السياق لعرض قصص عدد من الشخصيات يظهر فيها كلها كمال رحمة الله، والقدرة الإلهية وبيان أنه تعالى الخالق الواهب، أولها قصة مريم عليها السلام: فأخبر السياق عن مكان وقوع أحداث القصة وفيه كمال علم الله، وجاء كمال قدرته جل عُلاه في أن جعل مريم تحمل بعيسى من غير زوج، وجاءت رحمته بمريم عليها السلام وهى في حدة الألم ، فتسمع صوت يناديها يطمئن قلبها ويصلها بربها، ويرشدها إلى طعامها وشرابها ويدلها على حُجتها وبرهانها ! لا تحزني .. وأنطق عيسى

عليه السلام وهو في المهد بقول يوجب توحيد الله، وتنزيهه عن الشريك والولد كونه القادر على كل شيء، فكانت أول كلمة قالها ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾، فما هو إلا عبد لله أكرمه بالرسالة وجعله نبيا.

ثم يأتي تعقيب إلهي على القصة يقرر توحيد الله القادر على بعث الناس للحساب ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ... أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ وحينها تتبدل الفاصلة (نهاية الآيات) من الألف إلى النون، فتلفت الانتباه لتبرئة عيسى عليه السلام مما دار حوله وأمه عليهما السلام من الفريات الباطلة .

ثم ينتقل السياق لعرض قصة إبراهيم عليه السلام، وتجد فيها دعوته أباه للتوحيد وفيها رحمة إبراهيم بأبيه، يدعوه بأحب الألفاظ وأرقها فيتكرر لفظ (يا أبت)، و(الرحمن) انسجامًا مع الرحمة في السورة، وتأتي رحمة الله بإبراهيم لما اعتزلهم .

ثم ينتقل السياق لذكر إشارات لبعض الأنبياء، وهم (موسى وهارون) وذلك متلائم مع الدعوة إلى التوحيد ورحمة الله لموسى بإرسال أخيه هارون مُعينًا له. أما الإشارة إلى إسماعيل عليه السلام ففيها الجانب العملي التطبيقي لتوحيد الله وشكره بذكر الصلاة والزكاة ، وأما الإشارة إلى إدريس عليه السلام جاءت منسجمة مع جو الرحمة في السورة، وختمت الإشارات إلى الأنبياء بذكر أن الله أنعم عليهم جميعًا، ومن اجتبى من ذرياتهم كانوا جميعا موحدين شاكرين لله عز وجل على نعمته ورحمته وكمال قدرته، ثم جاءت السجدة تلائم ذكر الساجدين شكرا لله على نعمه ورحمته.

ثم يأتي تعقيب إلهي على القصص مقرِر لحقيقة التوحيد، وبيان قدرة الله تعالى وشمول علمه ورحمته، ومهدد للكافرين والمشركين الذين حادوا عن جادة الأنبياء الموحدين ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ... ﴾ ويفتح باب التوبة على مصراعيه تنسم منه نسمات الرحمة واللطف ﴿إلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ... ﴾، ويأتي تأكيد على قدرة الله على البعث والحساب ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۝ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾.

ثم خُتمت السورة بذكر أعظم فرية افتراها الإنسان على ربه وهي ادّعاء أن لله تعالى ولد، وقد ردها السياق من خلال بيان القدرة الكاملة لله.

وكما افتتحت السورة بذكر رحمة الله وكمال قدرته خُتمت بذلك أيضا، ففي وسط الوحدة والوحشة والرهبة من هول الحساب، إذا بالمؤمنين يدخلهم الرحمن في رحمته، وتأتي قدرة الله في مشهد يوقف الإنسان على مصارع قرون أهلكها الله فلا حس لهم الآن ولا حركة ولا صوت، وإنما السكون العميق والصمت الرهيب . وما من إله إلا الواحد الحي الذي لا يموت .

جاءت في نهايات سورة مريم حال النبي ﷺ مع القرآن ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ... ﴾، وبدأت سورة طه بذلك ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ .

جاءت سورة « طه» تَقُص قصة موسى عليه السلام في ظل جليل، تخشع له القلوب وتسكن له النفوس وتحنو له الجباه .. والرحمن يناجي عبده موسى عليه السلام، وفيها تسلية للنبي ﷺ عما لقى فى تبليغه من المشقات والتكذيب، وقد امتنّ الله على موسى عليه السلام عندما ذكَّره بهذا التدبير والتقدير في حياته ليُصنع على عين الله تعالى ويصطنعه لنفسه جلّ عُلاه، وفي افتتاحها تمهيد لما يرد من أمر الرسول ﷺ بالتبليغ، وبكونه من أولي العزم مثل موسى عليه السلام، وأن لا يكون مفرطًا في العزم كما كان آدم عليه السلام قبل نزوله إلى الأرض .

والسورة جاءت ببيان أن الرسالة الإلهية للبشر ليست سببًا لشقاء الرسول أو المُرسل إليهم، بل هي سبيل الهدى، وأن من يعرض عن هدي الرسالة الإلهية يعرِّض نفسه للطغيان والشقاء. وقد تضمنت قصة موسى عليه السلام رعاية الله له ولقومه، وكذلك تضمنت قصة آدم عليه السلام و رعاية الله له بعد خطيئته، وكما بينت السورة نصر سيدنا موسى على معانديه، فهي بذلك تُعرِّض بنصر سيدنا محمد ﷺ على معانديه .

بدأت مقدمة السورة تبين أن القرآن تذكرة ورحمة للنبي ﷺ وللمؤمنين وليس سبب للشقاء ﴿طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى...﴾ (1-8) وذكر بعض صفات الله تعالى للتأكيد على أن وحيه هو الهدى.
ثم جاءت قصة إرسال موسى عليه السلام بالهدى إلى فرعون الذي طغى، وقصته مع قومه من بني إسرائيل ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ... ﴾ وبدأ عرض القصة من مشهد المناجاة للتأكيد على أن إرسال الأنبياء هو سبيل الهدى والسعادة وكأن السياق يقول: إن من أنزل القرآن عليك يا مُحمد ﷺ وجعله هدى للناس وسبيل سعادتهم، هو من أرسل موسى ليحقق الهدى والسعادة ويرفع الشقاء عن بني إسرائيل، ولو آمن فرعون لكان ممن تحقق له ذلك، ومشهد المناجاة هذا هو أطول مشهد متعلق بالمناجاة في القرآن وذلك يضفي جو الرحمة على السورة .
ثم انتقل السياق لمشهد مقابلة موسى وهارون لفرعون ووصف فرعون بالطغيان حتى نزل به الشقاء، وجاء تفصيل في كلام السحرة بعد إيمانهم، فكان قولهم يؤكد حقيقة أن السعادة الأبدية لمن اتبّع الهدى من الله ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ... ﴾ (72-76)، وأما الحدث الأهم الذي عرضه السياق والذي يؤكد حقيقة أن الإعراض عن هدي الوحي يعرض الإنسان للطغيان، كان عبادة بني إسرائيل للعجل، وقد فصلت السورة في عرض هذا الحدث ما لم يُفصل في سورة أخرى، وبين السياق أن هارون قد دعاهم إلى اتباع هدى

موسى عليه السلام، لكنهم أعرضوا عنه حتى استحقوا الغضب من الله، وكان إعراض السامري عن الهدى قد ألحق به الشقاء في الدنيا والآخرة .

ثم يأتي تعقيب إلهي على القصة يعرض شقاء المكذبين وسعادة المؤمنين يوم القيامة، وجاء في هذا التعقيب بيان لما حصل مع آدم عليه السلام حين كان في الجنة، وكانت إحاطة القصة بمشاهد القيامة كأنما هي تكملة لما كان في أول الأمر في الملأ الأعلى من قصة آدم عليه السلام ، حيث يعود الطائعون إلى الجنة ويذهب العصاة إلى النار تصديقًا لما قيل لأبيهم آدم عليه السلام .

لنصل إلى الخاتمة ونجد فيها زاد الطريق: الصلاة والذكر والتسبيح ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، كما افتتحت السورة ببيان أن هدي الرسالة الإلهية للناس هو سبيل السعادة، وأن من أعرض عنه فقد عرض نفسه للطغيان، خُتمت بتهديد ضمني بوقوع الهلاك على من أعرض عن الهدى، فيأتي تصوير لمصيرهم المحتوم ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾، وعندما يصل السياق لذاك التصوير للمصير المحتوم يُؤمر النبي ﷺ أن ينفُض يده منهم، فلا يشقى بهم ولا يحزنه عدم إيمانهم، وأن يعلن إليهم أنه متربص بهم ذلك المصير ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾.

/https://www.facebook.com/lydbroteam

الجزء السابع عشر

قد يتوقع البعض قبل قراءة سورة « الأنبياء » أنها تتحدث عن بطولات الأنبياء، ثمّ يتفاجأ أنها تتحدث عن محور عظيم وهو احتياج الأنبياء لله تعالى، وأنهم من عباد الله تعالى، فهو يمنّ عليهم بسبب طاعتهم وعبادتهم، فالله يذكر النعمة على النبيّ وسبب عطائه هذه النعمة، وأن النعمة قد تمتدّ إلى غيرهم من البشر إذا فعلوا مثلهم، فالعطاءات ليست خاصّة للأنبياء، ولكن للعباد فيها نصيب على قدر الاتّباع.

وفي السورة استعراض لطبيعة الدعوة والمَدعوِّين، فهي تدل على أن اتباع طريق الأنبياء يُخرج الناس من غفلتهم عن الآخرة، ويوصلهم إلى الرفعة في الدارين، كما تعرض السورة النواميس الكبرى في الكون، فهي توجه أنظار الناس إلى وحدة الخالق المدبر للكون والمالك الذي لا شريك له، وهي معانٍ تتجلى في واقع حياة الرسل والدعوات.

جاءت مقدمة السورة بعرض لإنذار الأنبياء أقوامهم بالآخرة، وهي من أدلّ الدلائل على وحدانية الله تعالى و كمال قدرته، ولكن الأقوام لاهون عنها، ومكذبون بأنبيائهم (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ...){١-٥}، ثم بيّنت طبيعة الأنبياء للرد على الشبهات السابقة، فما هم إلا رجال يوحي الله إليهم بالهدى، ومن هذا الوحي أنه تعالى سيُهلك المكذبين وينجّي المؤمنين، فمقدمة السورة تعرض بشكل موجز مهمة الأنبياء الذين يدعون أقوامهم بالأدلة والحجج، ولكن المكذبين يصرون على اللهو واللعب حتى استحقوا العذاب.

ثم انتقل السياق إلى عرض الأدلة العقلية والحجج الباهرة لإثبات تفرد الله تعالى بصفات الإلهية (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ..){١٦-٢٢}

فالله وحده هو الخالق، وهو الحق وكل ما عُبد من دونه باطل، والملائكة عباد مسبحون له، فليسوا آلهة كما يزعم المشركون، ولاحظ بيان أنه لا أحد له القدرة على النشور سوى الله الذي خلقهم أول مرة، فهو وحده إله الكون.

ومن الأدلة العقلية التي أيد الله بها سيدنا محمد ﷺ قوله تعالى: (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ..) فهو يدعو قومه بالحق الذي أرسله الله به والأنبياء من قبله، ولكن أكثر الأقوام معرضون عن الحق.

وانظر هذين الدليلين:(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ..){٣٠-٣١}فمن يستطيع أن ينكر الخالق العظيم الحكيم بعد هذا البيان.

وقد عرض السياق من الأدلة أيضًا أن الله هو الذي جعل السماء سقفًا محفوظًا، وهو الذي خلق الليل والنهار، وهو الذي يحفظ الخلق بالليل والنهار، وهو المحيي المميت، ولكن المكذبين يعرضون عن هذه الآيات وينكرون الآخرة، ولذلك عرض السياق مصيرهم يوم القيامة ليكون ذلك أبلغ رد عليهم (... لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ..)

ثم انتقل السياق إلى عرض قصص الأنبياء، ولم تتبع السورة ترتيبا زمنيا، فقد بدأ بذكر موسى وهارون عليهما السلام، ثم جاءت قصة إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم المشركون كلهم انتماءهم الديني إليه :(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)، إن محاورته مع قومه تؤكد بيان أن الآلهة التي يعبدها المشركون لا تملك موتًا ولا حياةً ولا بعث الخلق ولا تمنعهم من بأس الله ، وبذلك يثبت أن الله وحده فاطر السماوات والأرض هو المستحق للعبادة.
ولكي يؤكد السياق ذلك، عرض كيف حطّم إبراهيم أصنامهم التي لم تدفع عن نفسها شيئا، في مقابل أن رب إبراهيم أنقذه من النار وجعلها بردًا وسلامًا عليه، وفوق ذلك أكرمه بذرية صالحة وجعلهم أئمة يهدون بأمره ووحيه، وهذا أبلغ دليل عقلي على تفرده تعالى بصفات الإلهية، ومما يؤكد ذلك أيضا بيان أن الله تعالى أنجي لوطًا من القرية التي كانت تعمل الخبائث، وكذلك أنجي نوحًا من الطوفان الذي أغرق الكافرين. كما أنه سبحانه سخر لداود الجبال والطير يسبحن معه لله، وسخر لسليمان الريح والشياطين، وقد كشف الضر عن أيوب، وآتاه أهله ومثلهم معهم رحمة من عنده، وأدخل إسماعيل وإدريس وذا الكفل في رحمته أيضا، وجعلهم من الصالحين، وأنجى يونس من بطن الحوت حين ناداه في الظلمات (أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)، ووهب لزكريا يحيي وأصلح له زوجه، وخلق عيسى في رحم مريم بلا أب، فلا يقدر على ذلك إلا الله ولا مستحق للعبادة إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون .

لنصل إلى الخاتمة التي أعادت التحذير من الآخرة التي ينذر بها الأنبياء بذكر بعض علاماتها، وأعادت التأكيد على بطلان الشرك بالأدلة (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ ..)
وأعادت التأكيد على تفرد الله تعالى بصفات الإلهية، مع التأكيد على فلاح المؤمنين بدعوة الأنبياء (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ..).
وكما افتتحت السورة ببيان غفلة الناس عن الآخرة التي ينذر بها الأنبياء أقوامهم، خُتمت بالتحذير من الآخرة التي يحذر بها سيدنا محمد ﷺ قومه، مع التأكيد على تفرد الله بصفات الإلهية (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ..).

وبعد أن ذكرت نهاية سورة الأنبياء أحداث الساعة، فإن أردت مشاهدة مشاهد القيامة عياناً، فذلك ما تراه في شعائر الحج وأسراره، هذه الشعيرة التي اصطفاها الله لأمة محمد ﷺ اتباعا لخليل الله إبراهيم عليه السلام .

- سورة « الحج »

جعل الله لكل أمة مجموعة من الشعائر ليعظموا الله، وليرفعوا اسم الله، فكل أمة تحتاج إلى رابط، كما أن هناك رابط إيماني ورابط في العبادات، يحتاجون إلى رابط مكاني يذهبون إليه و يجتمعون فيه، وإن كان مرة واحدة بالسنة أو مرة واحدة في عمر الإنسان . فاختار الله أن يكون هذا الاجتماع في بيته الحرام من كل أقطار الأرض.

هذا الحج معناه : القصد بأن يكون المقصد العام لهذه الأمة واحد في اتجاه واحد لقبلة واحدة إلى رب واحد. اصطفى الله المكان واختار الزي وشرع لنا المناسك كي نتحد .

وأمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بأن يؤذن في الناس بالحج، ليكون الحج مظهراً من مظاهر العبادة الدالة على التوحيد، وبين لنا منافع الحج وبعض أحكامه، وفي ذلك رد على المشركين الذين جعلوا المسجد الحرام مكاناً للشرك بدلا من أن يكون مكاناً لعبادة الله وحده، فشريعة الحج هذه تحوي عدة معان، منها: الإخلاص في القصد، والتعظيم والاستسلام لله، والمجاهدة لأداء المناسك، وهي معان بارزة في موضوعات السورة، تؤكدها تلك القوة والشدة والرهبة في الآيات لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والإخبات والاستسلام .

جاء في مقدمة السورة عرض لبعض مشاهد يوم القيامة لإثبات قدرته تعالى على البعث، وفي ذلك تهديد لمن يجادل في الله بغير علم ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُم إِنَّ زَلزَلَةَ السّاعَةِ شَيءٌ عَظيمٌ...﴾ {١-٤} دعوة عالمية إلى تقوى الله لعظم زلزلة الساعة وأهوالها.

هذا أول ما خاطب به النبي ﷺ الناس (إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) يدعوهم إلى النجاة في الآخرة. وهذا ما يربيه الحج في النفوس بمشهد يشبه الآخرة، اجتماع الخلق يملأون أرجاء الأرض وكلهم متجهون إلى مكان واحد في لباس واحد في حرّ الشمس (النفرة من مزدلفة والنزول من عرفة والتوجه لرمي الجمرات)، وترى مشهد البعث يتمثل في الحجيج في مزدلفة وهم نيام بعد وقوفهم في عرفة عليهم آثار التعب ويعلوهم التراب والغبار، ثم يؤذن لصلاة الصبح فتراهم يقومون وينفضون عنهم التراب كما لو أنهم بُعثوا من قبورهم يوم البعث. فالحج تربية للنفوس لبناء شخصية مجاهدة في سبيل الله، تدعو العالمين للنجاة بعبادة الله، فدعوة الناس إلى عمارة الأرض والدنيا بعيدًا عن الدار الآخرة هي دعوة فاسدة لم يأتي بها أحد من الأنبياء، وإنما عمارة الأرض تكون في سياق عبودية الله والنجاة في الدار الآخرة، فتؤمن أولا بالله والجزاء في الدار الآخرة ثم تطلب النجاة بأن تفعل مراد الله في أرضه.

ولا أحد يستطيع تخيل الموقف كما سيكون، لا أحد يعرف حقائق اليوم الآخر، لكن تأتي الآيات بوصف أثر مشاهدها على الخلائق ﴿ يوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ وذكر المرضعة والحامل فيه إشارة إلى قدرته تعالى على الخلق أيضا، وذكر الشيطان مناسب لاسم السورة، لما هو معروف من رجم الشيطان في الجمرات اقتداءاً بإبراهيم عليه السلام الذي سيأتي ذكره، وفي ذلك إشارة إلى أنه ينبغي على الإنسان أن يرجم الشيطان لا أن يتولاه .

ثم بينت المقدمة قدرة الله تعالى على الخلق بالبراهين العقلية، إذ هو الذي خلق الناس من تراب، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، فهو تعالى المبدئ كما أنه هو المعيد، ومن دلائل قدرته أنه أنزل من السماء ماءاً فتنبت به الأرض من كل زوج بهيج .

وبعد عرض تلك الأدلة، جاء عرض لموقف الإنسان، فهو يجادل في الله خالقه، ويشرك معه غيره ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ... ﴾{٨-١٢}، وركز السياق على العقوبة الآخروية، وبيّن لطوائف البشر جميعها قدرة الله تعالى على حسابهم جميعا يوم القيامة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنوا وَالَّذِينَ هادوا وَالصّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالمَجوسَ وَالَّذينَ أَشرَكوا إِنَّ اللَّهَ يَفصِلُ بَينَهُم يَومَ القِيامَةِ ..﴾.

وجاء قوله تعالى الداعي إلى التوحيد ﴿أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسجُدُ لَهُ مَن فِي السَّماواتِ وَمَن فِي الأَرضِ...﴾{١٨}

ثم فصل السياق في عرض مصير الكافرين بربهم يوم القيامة بصورة مفزعة، إذ سيصب فوق رؤوسهم الحميم، فيصهر به ما في بطونهم وجلودهم، ولهم مطارق من حديديضربون بها لاذلالهم.

وأما المؤمنون ففي الجنات يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير، فهذه أنعم صورة للمؤمنين في مقابل أبأس صورة للكافرين .

انتقل السياق بعد ذلك إلى عرض اعتداءات المشركين في المسجد الحرام، فقد جعلوه أبرز مكان للشرك في الأرض، والله يريد بحكمته أن يجعله أبرز مكان للتوحيد في الأرض بفرض الحج كما أراد الله حينما أمر إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ الَّذينَ كَفَروا وَيَصُدّونَ عَن سَبيلِ اللَّهِ وَالمَسجِدِ الحَرامِ الَّذي جَعَلناهُ لِلنّاسِ سَواءً العاكِفُ فيهِ وَالبادِ ... ﴾{٢٥-٢٧}، ثم فصل السياق في عرض منافع الحج، وبيان بعض أحكامه، وأمر بتعظيم شعائر الله ونبذ الشرك ﴿ذلِكَ وَمَن يُعَظِّم حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيرٌ لَهُ عِندَ رَبِّهِ ..﴾{٣٠}

فالحج يحيي في قلبك تعظيم لله، وفي رؤية البيت الحرام تتذكر البيت المعمور وعرش الرحمن، وبيان مجيء الناس من كل فج عميق يؤكد مشابهة الحج للبعث يوم القيامة .

وبمناسبة الحديث عن اعتداء المشركين في المسجد الحرام، انتقل السياق إلى الإذن للمؤمنين المقيمين دين الله بقتال من كان يعتدي عليهم في ذلك المسجد:﴿ ... أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ... ﴾{٣٨-٤٠} إذ لم يكتف المشركون بجعل البيت الحرام مكانا للشرك، بل منعوا أهل التوحيد من إقامة دين الله فيه، وجاء وعد المؤمنين بالنصر، لأنهم إذا مُكن لهم في الأرض سيقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وهذا هو دين التوحيد .

وكما حذرت المقدمة من اتباع الشيطان بغير هدى ولا كتاب منير، أعاد السياق التحذير منه، فما من نبي إلا ويتمنى هداية قومه، ويحاول الشيطان أن يلقي في عقول المدعوِّين وساوسه، فيحكم الله آياته في عقول المؤمنين، ويبطل وساوس الشيطان فيزدادوا إيمانا، ويجعل الله وساوس الشيطان فتنة في عقول الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم فيزدادوا كفرا ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ... ﴾{53-54}
ولكي يؤكد السياق قدرة الله تعالى على نصرة المؤمنين المستضعفين، عرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى في كونه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ... ﴾.

لنصل إلى الخاتمة و قد بينت قدرة الله وحده على الخلق كما بينت المقدمة قدرته وحده على البعث ﴿ ... إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ... ﴾{٧٣}، وأعادت تهديد المشركين، وأمرت المؤمنين بعبادة الله وحده وإقامة شعائر دينه: ﴿ ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ... ﴾{٧٤_٧٧}.
وكما افتتحت السورة بذكر الأدلة على قدرته تعالى على الخلق والبعث لإثبات التوحيد الله، وهما أمران أكثر ما يكونان مشابهة لفريضة الحج، خُتمت بدعوة المؤمنين إلى الجهاد دفاعًا عن دين الله مع بيان أن دينهم - دين التوحيد - هو دين أبيهم إبراهيم عليه السلام من قبل، الذي أمره الله بأن يؤذن في الناس بالحج ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ... ﴾{٧٨}.

الجزء الثامن عشر

بعد انتهاء سورة الحج بخطاب للمؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ، بدأت سورة المؤمنون بإعلان الفلاح لمن أطاع ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

وافتتحت بصفات المؤمنون المفلحون، ووصف المؤمنين بصيغة اسم الفاعل دلالةً على تمكن صفة الإيمان فيهم، وعلى أثر هذا الإيمان الظاهر في سلوكياتهم التي ترضي الله تعالى استحقوا الفلاح، وتسمية السورة باسمهم فيه من الترغيب بالاقتداء بهم.

هذه السورة هي سورة الإيمان بكل قضاياه ودلائله وصفاته، فعلّقت السورة القلوب بالآخرة وطمأنت المؤمنين إلى مستقبلهم الطيب ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾.

عرضت الآيات الكريمة مراحل نمو الجنين في رحم أمه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ... ﴾{١٢-١٦} وفي ذلك زيادة في بيان عظمة الخالق العظيم، وبيان قدرته تعالى على البعث، ومن مظاهر عظمة الله تعالى في الآفاق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ... ﴾{١٧-١٩}

ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي لتاريخ الإيمان يحكي جحود الأوائل لفضل الله، وتمردهم على هداياته، وتكذيبهم لرسله، ويدعو إلى التوحيد من خلال آيات الوحي التي أنزلها على الأنبياء، فجاءت قصة نوح وقومه، ثم قوما على الأغلب هم قوم عاد، وبيّنت الآيات الكريمة هلاك الكافرين وفلاح المؤمنين رضوان الله عليهم .

ثم أعقب السياق بذكر قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وملئه، وقد بيّن أنهم كانوا مستكبرين عالين، فكانت نتيجة تكذيبهم أنهم كانوا من الهالكين، وعرض موقف فرعون الذي ادّعي الإلهية في الأرض، وفيه بيان أنه سبحانه وتعالى ذو القدرة المطلقة.

ثم ذكر السياق عيسى ابن مريم وأمه : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ... ﴾{٥٠-٥١} وبيان أن الله تعالى آواهما إلى ربوة عالية فيها مستقر وراحة، فهما من البشر وليس لأحدهما حق الإلهية.

ثم أكّد الأمر للرسل جميعا بالأكل من الطيبات، فهم جميعًا من البشر، يحتاجون ما يحتاج البشر من المأكل والمشرب والمأوى.

ثم رغّب تعالى بذكر صفات المؤمنين الذين جمعوا بين الإحسان والخوف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ...﴾{٥٧-٦١}، فهم وجلون مشفقون ألا تبقى لهم حسنة، وظنوا بأنفسهم ألا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى.

ثم عادت بنا الآيات بعرض موقف المكذبين ليجتمع الترهيب مع الترغيب: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ... ﴾{٦٣-٦٧}، ومن أجل زيادة التوبيخ عليهم، ذكر عدة استفهامات لبيان أنه لم يكن لهم صارف عن الإيمان سوى عنادهم واستكبارهم: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ... ﴾{٦٩-٧٤}.

وأكّدت الخاتمة ما سبق، فقد أعادت تثبيت النبي والمؤمنين، مع ببيان قدرة الله تعالى على إهلاك المكذبين مما يؤكد خسارتهم :﴿ ... وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ... ﴾{٩٣-٩٥}، وقد أعادت ذكر موقف المكذبين من الآيات القرآنية وبيان مصيرهم ، ثم أعادت التأكيد على عظمة الله تعالى الذي يؤمن به المؤمنون وقدرته المطلقة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ... ﴾{١١٥-١١٦}. وفيها بيان أن الله يأخذ المؤمن الداعي إليه حُجة له على الطوائف الأخرى، ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ فصلاح الصالحين حُجة على غيرهم ووجود طائفة تتمسك بعبادة الله وكلام الوحي والدعوة إلى الله حُجة على من يتحجج ويبحث عن العذر دائمًا .

ومرة أخرى يعود القرآن إلى بناء الإيمان على البرهان: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ..﴾{١١٧}.

وكما افتتحت السورة بذكر صفات المؤمنين وبيان فلاحهم، خُتمت ببيان خسارة المشركين والكافرين للتحذير من الاقتداء بهم.

وبعد أن ذكر اللهُ في أواخر سورة المؤمنون عذاب الظالمين والكافرين في الآخرة: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، ذكر سُبحانه في أول سورة النور عذابَ من استحقّ العذاب من المسلمين في الدنيا والآخرة؛ وهُم الزاني والزانية وعقوبة القذفِ والإفك.

وقال سُبحانه في أول المؤمنون: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾، وذكر في أوّل سورة النور من لم يحفظ ذلك وعقوبته.

•سورة « النور »

سورة تنير لك الطريق ليدخل الإيمان إلى قلبك، فيصبح كالزجاجة التي تنير وتضئ إذا دخل فيها القرآن ونور الإيمان بالله، وتظلم إذا دخل فيها الشرك والكفر، فدلالة اسم السورة تفيد أن الله تعالى هو منوّر السماوات والأرض، بمعنى أنه تعالى

مدبر أمر من فيهما وما فيهما على أحكم نسق وأبدع نظام .

وهي سورة الآداب العامة، فمن حافظ على هذهِ الآداب حافظ على نفسه وأهل بيته من الفتن.

جاء في المقدمة تنويه لأهمية السورة وما احتوته من توجيهات، وذكر بعض الحدود المتعلقة بجريمة الزنا، وذلك من أجل زيادة التشنيع على مرتكبها، فيكون ذلك أدعى لتربية المؤمنين على النفور منها: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ...﴾{١-٣}،ولاحظ قوله:﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، ليكون ذلك أدعى إلى النفور من هذه الجريمة، وقد أكد هذا المعنى قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم ذكرت المقدمة حد القاذف للعفيفات المؤمنات الغافلات دون أربعة شهود، وذكرت قضاء الله في موضوع الملاعنة بين الأزواج إذا اتهم أحدهما الآخر بهذه الجريمة، وختم الحديث عن الحدود بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

وانتقل السياق إلى تعقيب متعلق بقصة اتهام السيدة عائشة رضي الله عنها بجريمة الزنا، وبيان أن هذا إفك،أي: كذب شنيع:﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ...﴾{١١}، فبما أن المقدمة حذرت من الزنا واعتبرته أمرا موجَباً للحد، كان لا بد من تبرئة أم المؤمنين من هذه الفرية. ولاحظ التربية في وجوب إحسان الظن قبل نقل الفرية بدون تحقق، وتضمنت الآيات دروسا ينبغي ألا تُنسى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ...﴾{١٢}، ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ...﴾{١٧-١٨}، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ... ﴾{١٩-٢٠}، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... ﴾{٢٣-٢٤}، وهكذا أطفأ الله الفتنة بعد ما تركت في النفوس جراحاً.

وبعد التحذير جاءت التوجيهات التي تمنع حدوث الفاحشة من الأصل:

١- الاستئذان قبل الدخول :-

فلا يدخل المؤمن بيت غيره إلا بعد الاستئناس والسلام على أهل البيت، ومُنع من دخول البيوت إذا لم يؤذن له، حتى لو كان البيت خالياً من أهله فلا يدخله حتى يؤذن له بإذن مسبق، وأباح دخول البيوت غير المسكونة :- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ... ﴾{٢٦-٢٩}، واتسعت دائرة الاستئذان في آخر السورة

لتشمل الذين يتنقلون بين الحجرات في الداخل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ...﴾{٥٨-٥٩}

٢- غض البصر وحفظ الفرج للنساء والرجال :-

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ... ﴾{٣١}.

٣- التمسك بالحجاب، والالتزام بأحكام اللباس، وحدد للمرأة من يجوز لها أن تبدي زينتها أمامه:-

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾{٣١}.

وختم تلك التوجيهات بقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾{بعض الآية :٣١}، فإذا التزم المجتمع بتلك التوجيهات، وأعقب ذلك بالتوبة عما مضى، أصبح مجتمعاً نظيفاً يستمد نور حياته من خالق السماوات والأرض .

ثم بين السياق الطريق الشرعي للشهوة الجنسية، فأمر المجتمع بتسهيل أمور الزواج الشرعي، وعدم اعتبار الفقر مانعاً منه، فأمر بتزويج من لا زوج له من الرجال والنساء ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... ﴾{٣٢}، ومنع البغاء والفاحشة ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... ﴾{٣٢-٣٣}

وختمت تلك التوجيهات بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ... ﴾{٣٤}، وهذه السورة الوحيدة التي تكرر وصف الآيات بالمبينات، وهو وصف يجعلها كالمنيرة للناس.

جاء في وسط السورة بيان مثل نور الله عز وجل، وكأن المقصود من موقع هذا المثل أن يضيء أركان السورة من أولها إلى آخرها ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ..﴾{٣٥}، وجاءت الآية بالحديث عن إبداع الله وجلاله وسط آيات تتحدث عن آداب الأسرة وسلامة المجتمع، لأن التشريع يرتبط بالعقيدة، ويحيا بحياتها، وهكذا القرآن يربط الإيمان بالعمل. فتحدثت الآيات عقب ذلك عن قدرة الله وعظمته، واستحثت أولي الألباب على النظر في الكون، ففي هذا النظر ما ينمي الإيمان ويضاعف نوره.

وأعقب السياق هذا المثل بذكر الذين يهديهم الله إلى نوره، وذكر من المواقع أطهرها وهي بيوت الله التي فيها رجال لا تلهيهم التجارة عن ذكر الله وعن الصلاة والزكاة، ويخافون اليوم الآخر، فأولئك سيجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله.

ولكي تكتمل المقارنة، ذكر السياق مثل المعرضين عن نور الشرع الإلهي: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ... ﴾{٣٩-٤٠}، ووصف أعمالهم بالسراب، لأنهم ليسوا على الحق في شيء، فليس لهم أي أجر، ووصفهم بأنهم في الظلمات في مقابل المؤمنين الذين يعيشون بنور الله تعالى .

ومن أجل التأكيد على أن المجتمع الإيماني إذا التزم بالتشريع المنير كان منسجماً مع الكون الذي أبدعه الله في أحسن صورة، ذكر السياق أن كل من في السماوات والأرض والطير يسبح ويصلي لله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ...﴾{٤١-٤٢}.

وقبل الخاتمة أعاد السياق بيان أن المؤمنين الملتزمين بشرع الله المنير هم الذين ارتضاهم خالق السماوات والأرض للخلافة في الأرض ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ... ﴾{٥٥-٥٦} .

ثم عادت السورة لتكمل الآداب الاجتماعية والأسرية فأمرت القواعد من النساء بعدم التبرج، وحددت البيوت التي يجوز الأكل مع أهلها، وأمرت بإلقاء تحية السلام عند الدخول ليبقى المجتمع طاهراً سالماً من مظاهر الفاحشة ودواعيها.

ثم أعادت أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله، وعدم الانصراف عنه إلا بعد استئذانه، وأمرت بتوقير النبي ﷺ وعدم دعائه كما يدعون بعضهم بعضا، وذلك للحفاظ على مكانة النبي ﷺ في قلوب المؤمنين، كما حافظ عليها حين بين براءة زوجه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها .

وكما افتتحت السورة ببيان أن الذي أنزل هذه السورة وفرضها هو منور السماوات والأرض، خُتمت ببيان أنه تعالى يعلم من يلتزم بشرع الله فيبقى في النور، ومن يعرض عنه فيحرم نفسه من النور، وأنه سيجازي الجميع بأعمالهم يوم القيامة ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ... ﴾

•سورة « الفرقان »

هذا الوحي فرقان، يفرق بين الحق و الباطل، وهذا الذى يحتاجه النبي ﷺ فى تلك المرحلة حتى يكون من اتبعه على بينة وطمأنينة، ويتضح لمن يخالفه المسألة و تتضح الحجة ، فسورة الفرقان تتكلم عن الحرب التي شنها المشركون في مكة على الرسول ﷺ، وسُمى القرآن فرقاناً لأنه الفارق بين كل متلبس، فلا يدع خفاء إلا بيّنه، ولا باطلاً إلا نفاه ومحقه، فيه انتظام

الحياة الأولى والآخرة، فكان دالاً على علم مُنزله. فاسم السورة يدل على أن القرآن فرقان بين الحق والباطل.

جاء فى مقدمة السورة ذكرٌ لعدد من مظاهر عظمة منزل الفرقان سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ... ﴾[١-٢]، ولاحظ بيان كون الفرقان نذيراً للعالمين، فمن شأنه أن يفرق بين الحق والباطل إلى يوم القيامة، ولاحظ الإشارة إلى أن ملك السماوات والأرض لله تعالى، للتأكيد على أن الذي أنزل الفرقان هو خالق الأكوان سبحانه، فهو وحده المستحق للعبادة.

ثم انتقل السياق إلى دحض شبهات المشركين المتعلقة بالله تعالى، وبالرسول ﷺ وبالقرآن: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ... ﴾[٣-٦]، فقد بين السياق أن العبادة لله وحده، لأنه القادر على الخلق والبعث، ثم انتقل السياق بعد أن أثبتت المقدمة أن القرآن من عند الله، إلى الرد على شبهات المكذّبين، فقد قالوا أن الرسول ﷺ اكتتب القرآن من عنده، وأنه كتبه له اليهود والنصارى، وأنه قصص قديمة ، فرد القرآن بأن الذى أنزل هذا القرآن هو عالم السر في السماوات والأرض، ولو اكتتب النبي ﷺ القرآن سراً -وحاشاه أن يفعل- لعلم الله هذا السر، فإذا لم يبق شك فى أن منزل الفرقان إنما هو الله العليم الخبير.
ثم انتقل السياق لرد الشبهات حول النبي ﷺ ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ... ﴾ [٧-١٠]، ولاحظ الرد عليهم من خلال بيان أن الذى أرسل النبى ﷺ هو القادر على فعل ما يشاء.
وقد ذكر السياق مصير هؤلاء المكذبين بذكر مشاهد من عذابهم يوم القيامة، ليكون هذا الفرقان نذيراً للعالمين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ... ﴾ [١١-١٤]، فهم يكذّبون بالساعة ليفعلوا مايشاؤون دون أن يقيموا وزناً لحساب وبيان مصيرهم في ذلك اليوم الذى كذبوه أبلغ رد عليهم، وقد بين السياق أيضاً مصير المؤمنين، فهم في جنة الخلد لهم فيها ما يشاؤون خالدين، وعرضُ مصير الفريقين يؤكد الفرق بين أهل الحق وأهل الباطل.

/https://www.facebook.com/lydbroteam

الجزء التاسع عشر

•سورة « الفرقان »

جاء في مقدمة السورة ذكرٌ لعدد من مظاهر عظمة منزل الفرقان سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ... ﴾[١-٢]، لاحظ بيان كون الفرقان نذيراً للعالمين، فمن شأنه أن يفرق بين الحق والباطل إلى يوم القيامة، ولاحظ الإشارة إلى أن ملك السماوات والأرض لله تعالى، للتأكيد على أن الذي أنزل الفرقان هو خالق الأكوان سبحانه، فهو وحده المستحق للعبادة.

ثم انتقل السياق إلى دحض شبهات المشركين المتعلقة بالله تعالى، وبالرسول ﷺ وبالقرآن: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ... ﴾ [٣-٦]، فقد بين السياق أن العبادة لله وحده، لأنه القادر على الخلق والبعث، ثم انتقل السياق بعد أن أثبتت المقدمة أن القرآن من عند الله، إلى الرد على شبهات المكذّبين، فقد قالوا أن الرسول ﷺ اكتتب القرآن من عنده، وأنه كتبه له اليهود والنصارى، وأنه قصص قديمة ، فرد القرآن بأن الذى أنزل هذا القرآن هو عالم السر في السماوات والأرض، ولو اكتتب النبي ﷺ القرآن سراً -وحاشاه أن يفعل- لعلم الله هذا السر، فإذا لم يبق شك فى أن منزل الفرقان إنما هو الله العليم الخبير.

والرد على شبهة أن القرآن نزل مفرقاً ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ فجاء الرد ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾.

ثم انتقل السياق لرد الشبهات حول النبي ﷺ ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ... ﴾ [٧-١٠]، ولا يعيب بشراً -رسولا كان أو غير رسول- أن يأكل الطعام، فهذه طبيعة الناس التي خُلقوا بها، ولاحظ الرد عليهم ببيان أن الذى أرسل النبي ﷺ هو القادر على فعل ما يشاء.

وقد ذكر السياق مصير هؤلاء المكذبين بذكر مشاهد من عذابهم يوم القيامة، ليكون هذا الفرقان نذيراً للعالمين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ... ﴾[١١-١٤]، فهم يكذّبون بالساعة ليفعلوا مايشاؤون دون أن يقيموا وزناً لحساب، وبيان مصيرهم في ذلك اليوم الذى كذبوه أبلغ رد عليهم.

وقد بين السياق أيضاً مصير المؤمنين، فهم في جنة الخلد لهم فيها ما يشاؤون خالدين، وعرضُ مصير الفريقين يؤكد الفرق بين أهل الحق وأهل الباطل.

ومن أساليب الرد على شبهات المكذبين وتثبيت النبي ﷺ بيان حسرة الكافر يوم القيامة :﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ... ﴾ [٢٧-٣١]، فيتحسر لأنه لم يتخذ مع الرسول سبيلاً، ولم يؤمن بما جاء في الفرقان الذي أُوحي إله ﷺ، وفي الآيات تثبيت للنبي ﷺ بعد شكواه من موقف قومه المعرضين، ببيان أن التكذيب سُنَّة الأقوام قبله، وقوله تعالى ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ الذى فيه من التحنّن والتلطّف بالنبى ﷺ مافيه.

ثم انتقل السياق لآيات تحث العقل أن يفكر في ملكوت السماوات والأرض، وبها دلالة على عظمة منزل هذا الفرقان سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ... ﴾ ٤٥-٥٢]، ولاحظ ربط الآيات الكونية بآيات الوحى المنزلة على الأنبياء، للتأكيد على أن خالق الأكوان هو من يرسل الأنبياء ويؤيدهم بآيات الوحي للدعوة إلى توحيده.

ترى من ينجح في هذا الاختبار ؟ ينجح عباد الرحمن، وشرعت السورة في سرد صفاتهم، وبيان مصيرهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ... ﴾ [٦٣-٦٧].
وكما بين سياق السورة سابقاً موقف أهل الباطل من الرسول ﷺ ورسالته، بينت الخاتمة موقف أهل الحق: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ... ﴾ [٧٣-٧٦]، فهم لإيمانهم بالقدرة المطلقة لمنزل هذا الفرقان، يسألونه أن يهب لهم ذرية تقر بها أعينهم، وأن يجعلهم للمتقين إماماً، وبذلك يجتمع إيمانهم بمنزل الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية، وتكتمل التفرقة بين أهل الحق والباطل.

وكما افتتحت السورة ببيان بعض مظاهر عظمة منزل الفرقان الذى جعله نذيراً للعالمين ، ختمت ببيان أنه لا يعبأ بالبشر إلا بدعاء أهل الحق، وأنه قادر على تعذيب أهل الباطل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [٧٧].

•سورة « الشعراء »

قضت حكمة الله أن تكون آية محمد ﷺ وحياً يُتلى تستمع إليه أجيال المستقدمين والمستأخرين، وهو يخاطب العقول، ويهاجم الخرافات، وهذه السورة تبين أن منهج النبي ﷺ ومنهج القرآن غير منهج الشعراء، فالقرآن يستقيم على نهج واضح ويدعو لغاية محددة، والرسول لا يقول قولاً اليوم وينقضه غدا، بينما الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلبة، تحكم فيهم مشاعرهم وتقودهم إلى التعبير كيفما كانت، فالسورة تؤكد أن القرآن بيانا معجزاً دالاً على أنه من عند الله، وفي ذلك أبلغ رد على من

اتهم النبي ﷺ بأنه شاعر.

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى وصف حال الشعراء، الذين هم أفصح الناس، فالكافرون منهم يهيمون في الحياة بلا هدف، وهم كاذبون مدعون يخالف قولهم فعلهم، وفوق ذلك يغوون ضعفاء النفوس، وقد كان من المفترض أن يكون هؤلاء الشعراء أول من يؤمن ببلاغة القرآن المعجزة، ففي تسمية السورة ب «الشعراء» تعريض بمن كفر ببلاغة القرآن منهم واتبع هواه ولم تنفعه فصاحته، ومدح لمن آمن منهم وسخر فصاحته للدين وانتصر من بعد ما ظُلم.

جاء في مقدمة السورة بيان أن آيات الله تعالى واضحة الحجة بينة الدلالة، ومع ذلك يكذب بها المكذبون حتى استحقوا العذاب: ﴿طسم ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ... ﴾{١-٩}، وهذه أكثر سورة جاء فيها وصف (المبين) لآيات الله تعالى وبيان إعراض الكافرين عن كل آية محدثة من الرحمن دالة عليه سبحانه، وتهديدهم بنزول العذاب إذا أصروا على تكذيبهم، وجاء بيان أنه تعالى هو الذي أنبت في الأرض من كل زوج كريم، وبذلك تجتمع الآيات الكونية مع الآيات القرآنية على الدلالة عليه سبحانه .

ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكد أن آيات الوحي التي أيد الله بها رسله وأنبياءه السابقين، كانت أيضا واضحة الحجة بينة الدلالة، فبذلك يثبت أن مرسل الرسل جميعا هو إله واحد سبحانه.

وكانت أول قصة معروضة هي قصة موسى عليه السلام، وذلك لعدة أمور منها : أنه أُيد بمعجزات محسوسة بالإضافة إلى تأييده بآيات الوحي، والتركيز في الآيات على أن الله تعالى سيطلق لسان موسى عليه السلام بالحجة البينة، وسيؤيده بأخيه هارون عليه السلام، ليتفق ذلك مع وصف آيات القرآن في المقدمة بأنها بينة.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ... ﴾{١٨-٢٩}، لاحظ طول هذه المحاجَّة التي لم تتكرر في القرآن على هذا النحو، وأن موسى عليه السلام دحض بما أيده الله من الحجة الواضحة فريات فرعون حتى ألجأه إلى الاستبداد بقوته.

ثم عرض السياق موقف فرعون وملئه من آيتي العصا واليد، حتى أشاروا عليه بإرجائه وأخيه إلى موعد محدد لمواجهتهما، ثم عرض موقف السحرة الذين آمنوا لهاتين الآيتين البينتين: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ... ﴾{٤٤-٤٨} ، فموقف هؤلاء المؤمنين السحرة الحاذقين في السحر مشابه لموقف من آمن ببلاغة القرآن المعجزة من الشعراء الحاذقين في الفصاحة .

ثم عرض السياق مصير فرعون وملئه المكذبين، إذ أصروا على التكذيب و ملاحقة موسى عليه السلام ومن آمن معه، ومن اللطيف أن هذه السورة هي الوحيدة التي عرضت هذا التصرف من فرعون: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ... ﴾{٥٣-٥٥}، وفيه مزيد تأكيد على تكذيبه بالرغم من الآيات البينات التي أيد بها موسى عليه

السلام، ثم كان مصير تكذيبهم أن الله أغرق فرعون وقومه، وأنجى موسى ومن آمن معه أجمعين .

ثمّ يأمر الله نبيه أن يتلُ على الناس نبأ إبراهيم الخليل، فأفضل الأنباء هو النبأ المتضمن لرسالة النبي ودعوته لقومه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ... ﴾{٦٩-٧٨}، ولاحظ طول المحاجَّة أيضا، وكان إبراهيم عليه السلام متميزاً باستخدام المنهج العقلي في محاجّة قومه، فرد شبهاتهم بما أيده الله من الحجة والبرهان، وأعلن براءته مما يفعل قومه، والذي آتى إبراهيم رشده زوده بإيمان سهل سائغ، فهو يقول عن ربه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ... ﴾{٧٨-٨٩}، ثم عرض السياق مصير المشركين يوم القيامة، وفي ذلك تعريض بمن أصر على الشرك من قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ... ﴾{٩١-٩٧}.

ثم عرض السياق قصة نوح عليه السلام، وخصّ بالذكر موقف استكبار قومه عن الإيمان مثل المستضعفين من المؤمنين، بالرغم من حجة نوح وبرهانه الساطع، وهو مشابه لموقف النبي ﷺ حينما طلب قومه طرد الضعفاء والفقراء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ... ﴾{١٠٥-١١٣}، وقد عرض السياق أيضا أنهم هددوه بالرجم إن لم ينته عن دعوته، حتى اضطر إلى دعاء الله بالنصر، فأنجاه الله ومن آمن معه في الفلك المشحون، وأغرق الباقين .

ثم تأتي قصة هود عليه السلام، وكانت موعظته متوجهة إلى ما فى نفوس قومه من حب الدنيا، حتى أخرجهم ذلك عن العبودية لله ﷻ، ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ... ﴾ أي تتخذون قصوراً وحصوناً منيعة كأنكم تخلدون في الأرض، وإذا سطوتم سطوتم قتلاً بالسيوف وضرباً بالسياط، وذكّرهم عليه السلام بنعم الله عليهم ولكنهم كذّبوه فأهلكهم الله.

وصالح عليه السلام الذى جاءهم بالتوحيد، وخوّفهم بأنهم لن يُتركوا فى النعم وهم على كفرهم، ولما طلبوا آية بيّنة أتاهم بناقة فكانت تشرب الماء يوماً والقوم يوماً، وحذّرهم عليه السلام من مساسها بسوء، ولكنهم خالفوا أمر نبيّهم فعقروا الناقة فأخذهم العذاب، وكان فى سابق علم الله أنه لن يؤمن أكثر ممن قد آمن.

وكذلك قوم لوط الأوائل فى الفاحشة العظيمة، كذبوا نبيّهم الكريم فدعا الله أن ينجّيه وأهله من عملهم الذى بغضه وكرهه، فنجّاه الله إلا امرأته

ثم أصحاب الأيكة وهى الشجرة العظيمة الملتفّة وقيل أنهم قوم مدين، أرسل الله إليهم شعيب عليه السلام ودعاهم لتوحيد الله وتقواه بالوفاء في الكيل والميزان، والانتهاء عن ظلم الناس، ولكن لم يكذّبوا فقط بل طلبوا العذاب، فاصابهم حرّ عظيم ثمّ

أقبلت سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون إليها فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى منها شرراً ووهجاً عظيماً ورجفت الأرض بهم، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم .

ولما ذكر الله تعالى هذا العرض القصصي لدعوة الأنبياء وموقف الأقوام المصرين على التكذيب بالرغم مما أيد الله به رسله من الحجة والبرهان وبيّن عاقبة تكذيبهم، ذكر الرسول الكريم نبي الله المصطفى وما جاء به من الكتاب الذي فيه هداية لأولى الألباب، فأنزله الله على قلب النبي ليهدي به الناس إلى الصراط المستقيم، وامتنّ الله على العرب أن أنزل القرآن بلغتهم، وقد بشّرت به كتب الأولين ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... ﴾{١٩٢-٢٠٢}، فقد كان آية لبنى إسرائيل أن يعلم علماؤهم النبى الكريم، وفي ذلك أبلغ دعوة لقوم النبي ﷺ ، وعلى رأسهم الشعراء الذين هم أفصح الناس، ليؤمنوا ببلاغة القرآن المعجزة والمُكلِف بكل خير كُلفت به الأمم السابقة .

وأكدت الخاتمة على أنه ليس لأحد سبيل على هذا القرآن، حتى لو كان من الشياطين، بل هو محفوظ بحفظ منزله سبحانه، فينبغي أن تكون العبادة له وحده : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ... ﴾{٢١٠-٢١٧}
وكما افتتحت السورة ببيان حجة القرآن وبرهانه الساطع وبلاغته المعجزة مع تهديد المصرين على التكذيب بالعذاب، ختمت ببيان موقف الشعراء الذين ينبغي أن تقودهم فصاحتهم إلى أن يكونوا أول من يؤمن ببلاغة القرآن المعجزة، وأن من يكذّب منهم مع ما أوتي من فصاحة بالقرآن العظيم، فهو من الظالمين المستحقين للعذاب: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ... ﴾{٢٢٤-٢٢٧}

ذُكر في آخر سورة الشعراء الذين ءامنوا وعملوا الصالحات بعد ذكر الشعراء الذين في كل وادٍ يهيمون فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثيرًا وَانتَصَروا مِن بَعدِ ما ظُلِموا﴾، وذُكروا في اول سورة النمل بأعمالهم ﴿الَّذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ وَيُؤتونَ الزَّكاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُم يوقِنونَ﴾ فالمؤمن الحق المُستمسك بالوحي لا يلتفت لقول الشعراء المُكذبين بهذا الوحي، بل هو ماض في عمله ودعوته لله رب العالمين.

•سورة « النمل »

سميت بسورة «النمل» لذكر قصة سليمان عليه السلام حينما سار بجنوده ومر على وادي النمل، فخافت نملة أن يحطمهم عليه السلام وجنوده وهم لا يشعرون، فحذرت النمل وأمرتهم بدخول مساكنهم، فسمع سليمان عليه السلام كلامها وشكر الله

على أن أشهده إعجازه في أحد آيات خلقه. فاسم السورة يدل على أنه ينبغي أن يكون الإنسان شاكرا لله تعالى على أن جعله مؤمناً بآياته المعجزة .

ومن مقاصد هذه السورة بيان أهمية العلم و الحكمة التي ألهمها الله لمخلوقاته فكانت آياتٍ تبرز وحدانيته في الخلق، وتتكلم السورة عن التفوق الحضاري لتثبت أن الدين هو دين علم وعبادة، وتدعو إلى شكر أنعم الله على البشر.

جاءت المقدمة مبينة فضل القرآن العظيم، وما تدعو إليه آياته من أصول الإيمان: ﴿ ... تِلكَ آياتُ القُرآنِ وَكِتابٍ مُبينٍ۝ هُدًى وَبُشرى لِلمُؤمِنينَ ... ﴾ {١-٥}، فآيات الله القرآنية تحوي هدى وتبشير للمؤمنين، وتدعوهم إلى الإيمان بالآخرة والقيام بما ينبني على الإيمان من صلاة وزكاة. وقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القُرآنَ مِن لَدُن حَكيمٍ عَليمٍ﴾ يدل على أن مصدر الآيات المنزلة على سيدنا محمد هو الله ﷻ، وهو ذاته من أرسل موسى عليه السلام بآيات بينات إلى فرعون، وهو ذاته من ألهم النملة الهدى والحكمة حينما أنقذت قومها، فكما تدعو الآيات القرآنية إلى الإيمان به، كذلك تدعو آيات الله في خلقه إلى الإيمان به سبحانه.

ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي متنوع يعرض نماذج مختلفة لمواقف البشر إزاء آيات الله تعالى، فكان أولها :
فرعون وقومه الذين رأوا تسع آيات باهرات لكنهم جحدوا بها﴿ ... وَأَدخِل يَدَكَ في جَيبِكَ تَخرُج بَيضاءَ مِن غَيرِ سوءٍ في تِسعِ آياتٍ إِلى فِرعَونَ وَقَومِهِ ..﴾ {٧-١٢}، وجاء في هذا المشهد تفصيل في عرض آيتي العصا واليد اللتين آيد الله بهما موسى عليه السلام ويُفهم من ذلك أن فرعون لن يكتفي بآيتين، فبين السياق أن مجموع الآيات سيكون تسع آيات خلال الفترة التي سيمكث فيها موسى عليه السلام يدعو قومه إلى الإيمان في مصر .
وجاء موقف فرعون وقومه من هذه الآيات ﴿فَلَمّا جاءَتهُم آياتُنا مُبصِرَةً قالوا هذا سِحرٌ مُبينٌ ... ﴾ {١٣-١٤}، فلما رأوا تلك المعجزات الباهرة، واضحةً بينةً أنكروها وزعموا أنها سحرٌ واضح وكذبوا بتلك الخوارق ﴿واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ﴾ فقد أيقنوا بقلوبهم أنها من عند الله وليست من قبيل السحر، ولاحظ وصف الآيات بأنها مبصرة، أي: لا مجال للشك في دلالتها على الله تعالى، ولهذا قال ﴿فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين﴾ أي انظر أيها السامع وتدبر بعين الفكر والبصيرة ماذا كان مآلُ أمر الطاغين، من الإغراق في الدنيا، والإحراق في الآخرة ! ، وفي ذلك رسالة تهديد لكفار قريش الذين لم يؤمنوا بآيات الله.

ثم انتقل السياق إلى عرض نموذج مختلف تماما إزاء آيات الله في خلقه، يتمثل في موقف داود وسليمان الشاكرين الله على نعمه، وفيه خطة محكمة لبناء مجتمع وأمة غاية في الرقي والتفوق ﴿وَلَقَد آتَينا داوودَ وَسُلَيمانَ عِلمًا وَقالَا الحَمدُ لِلَّهِ الَّذي فَضَّلَنا

عَلى كَثيرٍ مِن عِبادِهِ المُؤمِنينَ..﴾{١٥-١٦} وهنا إشارة لأهمية العلم، وأهمية توارث الأجيال له، والاهتمام بتعلم اللغات المختلفة.

ثم انتقل السياق إلى عرض موقف سليمان عليه السلام حينما رأى آية من إعجاز الله في خلق النمل ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيمانَ جُنودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيرِ فَهُم يوزَعونَ ... ﴾ {١٧-١٩}.

ولاحظ أولا: التناسق في وصف حشر الجن والإنس والطير لسليمان عليه السلام بقوله: (فهم يوزعون)، الدال على كمال الانضباط والترتيب بالرغم من الكثرة.

وثانيا : قول النملة الدال على أن خالقها قد ألهمها الهدى والحكمة وحسن السياسة، فقد أنقذت قومها حين حذرتهم من الخطر بأبلغ تعبير، فكانت بتصرفها الملهم آية دالة على إعجاز الله في خلقه.

وثالثا : موقف سليمان عليه السلام المبادر لشكر ربه عز وجل حينما أطلعه على هذه الآية العجيبة.

ثم انتقل السياق إلى عرض موقف شكر آخر لسليمان عليه السلام إزاء آية أخرى من آيات الله في خلقه، وذلك حينما أنبأه الهدهد بنبأ ملكة سبأ ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ... ﴾{20-44}، وفيها إشارة إلى أهمية تفقد القائد لرعيته، وتحري الأخبار والتأكد من صحتها، وأهمية الشورى، وامتلاك قوة عسكرية.

وقد بينت الآيات أن الهدهد أنكر فعل قوم سبأ المشركين بفطرته المؤمنة التي فطره الله عليها، وأدرك أيضا أن سبب إغوائهم هو الشيطان، فكان موقف سليمان من هذه الآية أن بادر بدعوتهم إلى الإيمان والتوحيد وبرز ذلك في افتتاح كتابه ﴿بِسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ﴾، وبرز أيضا في رده لهدية ملكة سبأ مع بيانه أن ما آتاه الله خير من هديتهم، وانظر قوله حينما أتاه الذي عنده علم من الكتاب بالعرش ﴿ ... فَلَمّا رَآهُ مُستَقِرًّا عِندَهُ قالَ هذا مِن فَضلِ رَبّي لِيَبلُوَني أَأَشكُرُ أَم أَكفُرُ﴾

وفي مقابل شكر سليمان عليه السلام يأتي موقف ثمود، الذين آثروا الغدر والمكر على الإيمان والشكر ، فانظر ماذا كان موقفهم من نبيهم صالح عليه السلام الذي أيده الله بآية الناقة ﴿قالُوا اطَّيَّرنا بِكَ وَبِمَن مَعَكَ..﴾{٤٧-٥٣}

/https://www.facebook.com/lydbroteam

الجزء العشرون

تتابع سورة « النمل »، والتي جاءت لتعرضَ نماذج إيمانٍ وشكر، ونماذج جحودٍ وكفر إزاء آيات الله، وقد عرضت الآيات موقف قوم لوط عليه السلام الذين آثروا شهوة الرجال المخالفة لفطرتهم على شهوة النساء التي أباحها الله وجعلها نعمة منسجمة مع فطرة البشر:﴿وَلوطًا إِذ قالَ لِقَومِهِ أَتَأتونَ الفاحِشَةَ وَأَنتُم تُبصِرونَ ... ﴾{٥٤-٥٨}، فقصة قوم لوط ومن قبلها قوم صالح، تعرضان نموذجين من الجحود والكفر إزاء آيات الله في خلقه، ولاحظ التناسق في المقابلة بين موقف أكثر الناس جحودًا، وبين موقف سليمان عليه السلام الشاكر لله.

ثم تنتقل الآيات بعد هذا إلى بيان قدرة الله في الكون ﴿قُلِ الحَمدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذينَ اصطَفى آللَّهُ خَيرٌ أَمّا يُشرِكونَ ... ﴾{٥٩-٦٤} وكأن هذا الانتقال يحذّر من أن يلهينا التفوق الحضاري عن تذكر الله تعالى وقدرته، فهو الذي سبب الأسباب لكل عناصر التفوق فلا يجب أن ننشغل بالأسباب عن المسبب، ونلاحظ تكرر كلمة (ءإلهٌ مع الله) بمعنى إياكم أن تنسوا رب الكون أو أن تجعلوا له شركاء في تفوقكم، وانظر قوله تعالى المؤكد لذلك﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذو فَضلٍ عَلَى النّاسِ وَلكِنَّ أَكثَرَهُم لا يَشكُرونَ﴾.

بقيت الخاتمة وهي تحوي تأكيدًا لكل ما سبق، وقد ابتدأت بذكر آية من آيات الله تدعو إلى اليقين بآياته تعالى؛ ﴿وَإِذا وَقَعَ القَولُ عَلَيهِم أَخرَجنا لَهُم دابَّةً مِنَ الأَرضِ تُكَلِّمُهُم أَنَّ النّاسَ كانوا بِآياتِنا لا يوقِنونَ﴾، فهذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق.

ولم تخلُ الخاتمة كذلك من التذكير ببعض آيات الله في خلقه الداعية إلى الإيمان والشكر ﴿أَلَم يَرَوا أَنّا جَعَلنَا اللَّيلَ لِيَسكُنوا فيهِ وَالنَّهارَ مُبصِرًا ... ﴾{٨٦-٨٨}.

وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان بآيات الله القرآنية، ودعت في سياقها إلى اتخاذ موقف الإيمان والشكر من آيات الله الكونية، ختمت كذلك بنفس الدعوة ﴿إِنَّما أُمِرتُ أَن أَعبُدَ رَبَّ هذِهِ البَلدَةِ الَّذي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيءٍ ... ﴾{٩١-٩٢}.

• سورة «القصص»

نصل الآن لسورة القصص، والتي نزلت في وقت هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، فيَحكي الله تعالى لنبيه ومن معه من المهاجرين قصة موسى عليه السلام وكيف تحقق وعد الله معه، وفي قصة موسى وخروجه من مصر متخفيًا خائفًا، والعودة إليها منصورًا بعد سنين تشابهٌ عجيبٌ مع خروج النبيّ ﷺ وأصحابه من مكة متخفيين خائفين والعودة إليها منصورين بعد سنينٍ

كذلك، وكأن الله يقول أنّه كما ردَ موسى إلى أُمهِ، فإنه قادرٌ يا محمد على أن يردّك لأحب البلاد إلى قلبك منصورًا ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾. فنزلت آيات الوحي بسورة القصص تبث في النفوس الثقة بوعد الله.

وتعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام، وبين والد بنتيْ مدين اللتين سقى لهما أغنامهما، إذ قصّ موسى عليه القصص التي حدثت معه، فاسم السورة يدلّ على مدى اللطف الذي أحاط الله به عبده موسى عليه السلام في أحداث هذه القصص.

وتضع هذه السورة الموازين الحقيقية للقوى والقيم، فقررت أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود: هي قوة الله الحق، وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون: هي قيمة الإيمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له، فهي تبرز الصراع بين قوة الحق وقوة الباطل المتوهمة، وتبيّن أن العاقبة لأهل الحق والخير.

• وتنقسم السورة إلى أربعة أقسام:
أولًا (المقدمة): جاء فيها موجز مشوّق لبداية القصة، إذ بيّنت الواقع المرير الذي فرضه فرعون على مصر: ﴿ ... نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾{١-٦}، وجاء بيان إرادة الله أن يجعل المستضعفين أئمة، ويُرِي فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من الهلاك، وإن الإفصاح عن نتيجة القصة منذ بدايتها يدلّ أعظم الدلالة على أن الله هو الخالق المالك المدبر، فبيدهِ مقاليد الأمور، وإرادته هي النافذة.

ثانيًا: انتقلت الآيات إلى عرض تفصيلي لتحقّق إرادة الله، فابتدأ عرض الأحداث بولادة موسى عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ موسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾، ولاحظ التأكيد على أن الله سيرده إليها، فتأتي النتيجة مرة أخرى قبل التفصيل.
ثم فصّل سبحانه كيفية وصول موسى إلى بيت فرعون، إذ هيّأ الله امرأة فرعون لتطلب أن يكون قرّة عين لها وله، وهيأ أخت موسى التي قصّت أثره حتى أقنعت أهل بيت فرعون بأهل بيتٍ يكفلونه بعد أن حرم الله عليه المراضع. ثم انتقلت الآيات إلى حدَثِ قتل موسى للرجل القبطي دون عمد، وفصّل السياق أيضا في كيفية خروجه هاربًا إلى مدين، فقد هيّأ الله له رجلًا ينصحه بالخروج بعد أن علم أن الملأ من قوم فرعون يأتمرون به ليقتلوه: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ ...﴾{١٥-٢١}. وفي مدين فصّلت الآيات بأحداث أخرى تؤكد مدى اللطف والرعاية التي

أحاط الله بها عبده موسى، فقد سقى للمرأتين أغنامهما، وكان هذا سببا في دعوة أبيهما إياه ليجزيه أجره، وسببا في زواجه من إحداهما، على أن يأجره ثماني حجج: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ... ﴾{٢١-٢٨}.
ثم انتقل السياق إلى مرحلة النبوة، فلما آنس من جانب الطور نارًا، نودي منها بوحي الله إليه بالذهاب إلى فرعون، وهو ذو الخطر الأكبر عليه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ... ﴾{٣٦-٣٧}، ثم بيّن السياق أن فرعون استكبر هو وجنوده في الأرض، حتى أغرقهم الله في البحر، فقد كان البحر مرة سببًا لتحقيق إرادة الله بنجاة موسى عليه السلام، ومرة أخرى سببًا لتحقيق إرادته في إهلاك فرعون.

ثالثًا: انتقلت الآيات إلى دعوة المكذبين إلى الإيمان من خلال بيان أنّ الذي أرسل موسى الذي قُصت عليهم قصصه، هو الذي أرسل محمد ﷺ بالحق، وهو الله الخالق المدبر: ﴿وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾{٤٧-٤٩}. ومن الشبهات التي أثاروها: ادّعاؤهم أنهم إذا آمنوا سيقصدهم من حولهم بالأذى والمحاربة، ويتخطفوهم من أرضهم! وكأنّ الأحداث القصصية السابقة الدالة على أن الله بيده الأمر والحكم لم تكفهم، فردّ الله عليهم بأنه قد جعلهم في بلدٍ أمين، وحرمٍ معظّم آمن، فكيف يكون هذا الحرم آمنًا في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمنًا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟!
ولكي يكتمل الترهيب مع الترغيب، عرضت الآيات مصير المكذبين يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ... ﴾{٦٢-٦٦}، فلن تنفعهم آلهتهم شيئًا يوم القيامة، إذا أصروا على الشرك والتكذيب، كما لن ينفع فرعون قومه شيئًا في ذلك اليوم.
ثم انتقل السياق إلى عرض بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، ليدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، فالله وحده إذًا هو المستحق للعبادة، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ...﴾{٧١-٧٣}.

وبعد ذلك عرضت الآيات قصة قارون، وهي قصة متعلقة بالطغيان (الاقتصادي) في مقابل الطغيان (السياسي) لقصة فرعون، فكما استكبر فرعون عن الإيمان بالله معتمداً على مُلكه وجنوده، كذلك استكبر قارون معتمداً على ماله وكنوزه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ... ﴾{٧٦-٧٧}، فكان قوله أنه أوتي هذا المال بعلمه وذكائه، وغفل عن الخالق الرازق، حتى استحق أن يخسف الله به وبداره الأرض.

رابعًا (الخاتمة): جاء فيها تأكيد ما سبق، فقد أعادت التذكير بأن الله هو الخالق المدبر الحكيم في الدنيا والآخرة، ويخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يريدون علوا في

الأرض: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ... ﴾{٨٣-٨٤}. وقد أعادت الآيات أمر النبي ﷺ بالصبر على دعوته، مع بيان أن الله سيرده إلى بلده التي أُخرِج منها، كما رد موسى لأمه من قبل: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ... ﴾{٨٥-٨٧}.

ومع أمر الله تعالى للنبي وأصحابه بالهجرة نصرةً لهذا الدين، جاءت نهاية الآيات تدعو بالتمسك بكلمات الوحي والتزام الدعوة إلى الله والتحذير من فتنة المشركين: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، لتبدأ سورة العنكبوت بقضية الصبر والثبات حال الفتن والابتلاء، وحكمة الله التي لا تقتضي عصمة المؤمن من الفتن؛ فلو كان الأمر كذلك لم يتميز الصادق من الكاذب، ولاالمحقّ من المبطل. والناس فى مقام الابتلاء درجات لا يحصيها إلّا الله.

• سورة « العنكبوت»

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى مثلٍ ضربه الله فيها للذين اتخذوا من دونه أولياء بالعنكبوت التي اتخذت بيتاً، فكما أنّ بيت العنكبوت لا يقي من الحر أو البرد شيئا، ولا يصمد أمام أي أذى من ريحٍ أو إنسان، فهو أوهن البيوت، فكذلك لا يغني الأولياء من دون الله شيئا من بأسه تعالى، لأنهم لا يملكون ضرًا ولا نفعًا، فاسم السورة يشير إلى هوان الباطل وأهله عند الله تعالى.

ومحور السورة هو: الإيمان وكيفية تثبيته وقت الابتلاء والشدائد والمحن، فليس الإيمان كلمةً تقال باللسان فقط، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف. فبدأت السورة بحُسبان خاطئ وانتهت بمجاهدةٍ مستمرة، ولذلك تعرض السورة ما يصور ألوانًا من العقَبات والفتن في طريق الدعوة إلى الإيمان، وعدّد الله فيها أنواعًا من الابتلاءات والفتن: فتنة الوالدين - فتنة الناس (التهديد والتعذيب والأذى)- فتنة الحياة الدنيا - فتنة الأمن والأمان - فتنة العلم - فتنة القوة - فتنة الشهوة.

ثم تربط بين الحق في دعواتِ الرسل والحق الذي خلق السماوات والأرض، وتعقب عليها بالكشف عن القوى المرصودة في وجه الحق، مع التهوين من شأنها، والإشارة إلى ضعف العلاقات في المجتمعات القائمة على غير الدين؛ لأن الرابط فيها هو المصلحة غالبًا. فهي سورة ضعف الكافرين وقوة المؤمنين.

جاءت مقدمة السورة تدعو إلى الصبر على الإيمان بالرغم من فتنة الباطل، وتبيّن أن الابتلاء من سنن الله تعالى لتمييز أهل الحق من أهل الباطل: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ... ﴾{١-٣}. وافتتاح السورة بذكر هذه السنة يدعو المؤمنين إلى الثبات، وجاء بعد ذلك ذكر اللحظة التي يطمئن عندها العبد ويبذل الغالي والنفيس لأجلها: ﴿مَن كانَ يَرجو لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾.

ثم انتقلت الآيات إلى تأكيد السنة المذكورة، فعرضت المحاولة الدائبة لأهل الباطل أن يفتنوا أهل الحق عن الإيمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ... ﴾{٨-١١}، فلا يجوز الرضوخ لأهل الباطل حتى إن كانوا من الوالدين.

ثم بدأ العرض القصصي لمُجاهدة الأنبياء وصبرهم على الدعوة إلى الله مع إصرار أهل الباطل على باطلهم حتى استحقوا العذاب. فقد عرضت الآيات قصة نوح عليه السلام وفيها الصبر على الفتن والمجاهدة بطول مدة دعوته -ألف سنة إلا خمسين عامًا- وقد استقر فوطّن نفسه على الدعوة الدائمة لا شيء يشغله إلّاها.

وانتقلت الآيات إلى قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وفيها الحجة الواضحة ببيان أن عبادة الله وحده هي الحق وعبادة الأوثان هي الباطل، وقد بيّن الله هوان شأن آلهتهم كونها لا تملك الرزق، بينما الرزق عند الله تعالى وحده. وكعادة سيدنا إبراهيم عليه السلام فإنّه دعاهم إلى إعمال العقل، ودعا قومهُ للسير والنظر في الأرض إلى الخلق على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، كما دعاهم للنّظر إلى مساكن القرون السابقة و ديارهم وآثارهم، كيف أهلكهم الله ودمّر مساكنهم؟ ولكن جواب قومه لم يكن سوى أن قالوا: اقتلوه أو حرقوه، فأمر الله النار أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم وأنجاه منها.

وبيّنت الآيات مُجاهدة إبراهيم عليه السلام وصبره، فبعد كل هذه الدعوة لم يؤمن له إلا لوط ولكن إيمانه كان فيه الاستسلام الكامل لأمر الله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لوطٌ وَقالَ إِنّي مُهاجِرٌ إِلى رَبّي ... ﴾، فهذه طبيعة الإيمان في وقت الاستضعاف، إيمان عدد قليل لكن القليل هم الرجال! فلوط عليه السلام أُرسل بمفرده لأفجر قوم على وجه الأرض وكانت دعوته امتدادًا لدعوة إبراهيم عليه السلام، وقد عاقبهم الله بالرجفة حين أصرّوا على المعصية وجعل مساكنهم آيةً وعبرة بينة لقوم يعقلون عن الله حججه ويتفكرون فى مواعظه.

وذكرت هذه الآية أول هجرة في التاريخ: هجرة إبراهيم عليه السلام، وقد امتنّ الله عليه بالذرية وجعل فيها النبوة والكتاب بأن جعل محمد ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام، واليوم نقف عند مقام إبراهيم لنصلي، ونستشعر جهده عليه السلام، ويُسنّ لنا قراءة سورة الكافرون حتى نقرّ أننا لن نعبد ما يعبدونه بعد مُجاهدة إبراهيم عليه السلام وامتداد دعوته لأمة محمدﷺ.

ثم انتقل العرض القصصي إلى قصة شعيب عليه السلام مع مدين، الذين أخذتهم الرجفة لما أصروا على التكذيب، وفي قصّة شعيب مواجهةٌ للنظام المالي المُحرم. وكذلك ذكرت الآيات عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان، وفصّلت الآيات في عرض نوع العقوبة النازلة على كل واحد منهم بإرسال الصيحة وخسف الأرض والإغراق؛ فالله هو الحق والأرض أرضه والسماء سماؤه، يفعل ما يشاء، وإن بذل القلب جهده وحقق كمال اليقين صبر أمام الفتن وجاهد لله.

وبعد ذلك عقبت الآيات على تلك القصص بضرب مثل الباطل والحق، في الوقت المناسب بعدما جاء مصير من اتخذ من دون الله ولي: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ... ﴾{٤١-٤٢}. وتبيّن الآية جهد أهل الباطل في البحث عن ولي من دون الله، وعن قوة تنصرهم، لكن بيت العنكبوت لا يحمي إنما يُصطاد به ضعفاء الإيمان ومَن في قلوبهم مرض، ومَن استعان بالله يرى كل جهد أهل الباطل وفتنتهم كبيت العنكبوت، وهذا مترابط تماما مع العرض القصصي السابق، إذ لم تغني عنهم آلهتهم ولا سلطانهم ولا جاههم ولا أموالهم شيئا حينما جاءهم العذاب.

وينتهي الجزء بوصيّة الله للمؤمنين، وهي التمسك بهذا الوحي فهو سبيل النجاة الوحيد: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

/https://www.facebook.com/lydbroteam

الجزء الحادي والعشرون

نتابع سورة «العنكبوت» والتي تميزت بأنها سورة المجاهدة ضد الفتنة وبيان الحُسبان الخاطئ وتكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدن النفوس، فليس الإيمان مجرد كلمة تُقال باللسان، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف، والحياة الدنيا هي دار اختبار وابتلاء، ففيها تثبيت القلب بالإيمان وقت الابتلاء والشدائد والمحن والفتن، وفيها بيان هوان الباطل وأهله مهما علوا وتجبروا.

ولا زلنا في القسم الثالث، وهو تعقيب يبين هوان الباطل وأهله عند الله، مع بيان أن الله هو الحق، حيث أعاد السياق بيان بعض مظاهر كمال قدرته تعالى، مع أمر النبي ﷺ إنذار الناس بما يوحي إليه ربه، وفي ذلك تأكيد على أن مرسل النبي ﷺ والأنبياء من قبله هو الله الحق: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾{٤٤-٤٥} ، ورد السياق على فريات المكذبين الجاحدين في آيات الله تعالى ، من خلال بيان خسران أهل بالباطل والكافرين بالله الحق : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ... ﴾{٥١-٥٢}

و أعادت الخاتمة تحذير المؤمنين من الافتتان بالباطل وأهله : ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ...﴾{٥٦-٥٨}. فإن خافوا على أنفسهم من سلطان أهل الباطل، فليرتحلوا في أرض الله الواسعة إلى مكان آمن يقيمون فيه عبادتهم لله الحق. وقد أعادت التأكيد على أن الله هو الإله الحق بذكر بعض مظاهر إلهيته في الكون وفي العباد: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ... ﴾{٦١-٦٣}.
وكما افتتحت بدعوة المؤمنين المستضعفين الذين كانوا يفتنون عن دينهم في مكة إلى المجاهدة في الصبرعلى الحق، خُتمت بدعوة أهل الباطل المتكبرين في مكة إلى الإيمان بالإله الحق الذي مكّن لهم حرماً آمناً، مع التأكيد على دعوة المؤمنين على الثبات إن أصر أهل الباطل على باطلهم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ... ﴾{٦٧-٦٩}.

•سورة « الروم»
تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى حديثها في مقدمتها عن حادثة هزيمة الروم أمام الفرس قبل هجرة المسلمين إلى المدينة، وهي حادثة أسعدت المشركين في قريش؛ لأن الفرس مشركون والروم أهل كتاب، فتفاءل مشركو قريش أنهم سيغلبوا المسلمين كما غلبت فارس الروم، ولكن الله أخبر أن الروم سيعودون للغلبة على الفرس في بضع سنين، وحينها سيفرح المؤمنون بنصر الله، وقد تحقق وعده سبحانه، فاسم السورة يدل على صدق وعد الله؛ لأن بيده مقاليد الأمور.

سورة الروم فيها بيان الحقيقة الكونية فى أن تصريف الأمور والأحوال والأحداث لله وحده كما قال تعالى ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾، وفي ذلك دعوة للتوحيد فالله هو القادر على كل شيء، قادر على نصر أوليائه، وخذلان أعدائه، فالسورة تتحدث عن العوامل التي تحقق الانتصار للمسلمين على كل الأمم كما نصرت الروم، و تنطلق من وعد الله بنصر الروم إلى وعده بنصرأمة الإسلام، وفيها وعده بالتكفل بأمور الخلق ووعده ببعثهم يوم القيامة، فكأنما هو تدرج من الوعد الأصغر إلى الوعد الأكبر.

أولا: جاء في المقدمة ذكر حادثة هزيمة الروم أمام الفرس، مع وعد من الله تعالى بأنهم سيعودون إلى النصر على الفرس في بضع سنين ﴿... وَهُم مِن بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغلِبونَ ... ﴾{١-٦} وجاء التأكيد بقوله ،﴿ لا يُخلِفُ اللَّهُ وَعدَهُ ﴾ فبسبب قلة علم الناس، هم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ويغفلون عن الآخرة لأنها غيب، بينما الله تعالى هو عالم الغيب والشهادة، وإخباره بنصرالروم دليل على ذلك .

ثانيا: انتقل السياق إلى بيان تجلى قدرة الله ﷻ على التغيير، وقدرة الله المطلقة فى الأمور كلها، وفى الكون كله، من خلال ذكر بعض مظاهرعظمته تعالى في الدنيا والآخرة ﴿أَوَلَم يَتَفَكَّروا في أَنفُسِهِم ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالأَرضَ وَما بَينَهُما إِلّا بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثيرًا مِنَ النّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِم لَكافِرونَ﴾ والتركيز على ذكر القيامة لأنها هي الوعد الأكبر من الله، ووعده الذى لن يخلف.
فانظر مثلا قوله تعالى ﴿.. وَيَومَ تَقومُ السّاعَةُ يُبلِسُ المُجرِمونَ۝وَلَم يَكُن لَهُم مِن شُرَكائِهِم شُفَعاءُ ..﴾{١١-١٦} ،و فيه بيان أن القادر على الخلق قادر على البعث، وإبطال الشرك من خلال بيان عدم نفع الشركاء يوم القيامة، ولذلك الله هو المستحق للتسبيح والتحميد في كل زمان ومكان .

ثم فصّل السياق في تعداد مظاهر عظمته تعالى المتعلقة بالإنسان وبالكون ﴿وَمِن آياتِهِ أَن خَلَقَكُم مِن تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرونَ ... ﴾{٢٠-٢٦}. وفي ثنايا عرض مظاهر عظمة الله تعالى، يدعو السياق إلى توحيد الله بعد أن يعرض من الآيات ما يثبت أن بيده سبحانه مقاليد الأمور، وكأن السورة تقول لنا أن آيات الله ظاهرة وواضحة فمن أراد أن يستدل على الله فعليه بكتاب الله المقروء (القرآن الكريم) وكتاب الله المنظور (الكون).
ويحذر الله ﷻ من عاقبة العُصاة ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ثمّ يخبرنا سبحانه بالمقصد من وجودنا ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾.

ثم تأتي توجيهات متعلقة بالرزق الذي هو بيد الله وحده ﴿أَوَلَم يَرَوا أَنَّ اللَّهَ يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ وَيَقدِرُ ... ﴾، فهو وعد من الله لا يُخلَف، وهو أعظم بكثير من الوعد بنصر الروم، والآيات تدعو إلى الزكاة والصدقة بدلا من الربا، ليربّي نفوس المؤمنين على تحري المال الحلال .

ثالثا : جاء في ختام السورة الكريمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بوعد الله الغيبي الأكبر بيوم القيامة ﴿.. وَيَومَ تَقومُ السّاعَةُ يُقسِمُ المُجرِمونَ ما لَبِثوا غَيرَ ساعَةٍ ..﴾{٥٤-٥٥}، ووختمت السورة كما بدأتت باليقين فى موعود الله ﷻ، ففى أول السورة ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وفى نهاية السورة ﴿..فَاصبِر إِنَّ وَعدَ اللَّهِ حَقٌّ ..﴾{٥٨-٦٠} .

•سورة « لقمان » :

قصة لقمان تضمنت فضيلة الحكمة، وذم الشرك، والأمر بالأخلاق الحميدة، والنهي عن الأخلاق الذميمة، فدلالة هذه القصة على حكمة القرآن وحكمة مُنزِله سبحانه ظاهرة.

نحلّق في السورة مع هذه الوصايا العظيمة التى خلدها القرآن وجاءت على لسان لقمان الرجل الحكيم، وهو على أرجح الأقوال ليس نبياً، بل قال المفسرون أنه كان عبداً نوبيا قصير القامة ولكن الله سبحانه وتعالى كرمه وأعزه وأعلى شأنه بما أتاه من الحكمة، وقد خلد ذكره فى القرآن الكريم مما يدل على أن الناس لا يتفاضلون بألوانهم ولا جمال أجسادهم ولا حسن منظرهم ولا مالهم وإنما بما يؤتيهم الله عز وجل من العلم والحكمة والإيمان والعمل الصالح، فالسورة بمجملها تهدف إلى تعريف المسلم بما يوصّله للحكمة كالتوحيد والاستقامة والتفكر في الخلق، وتعرفه بموانع الاستقامة كاتباع الشيطان والاغترار بالدنيا والاعوجاج الأخلاقي .

أولًا: جاء في المقدمة وصف القرآن بالحكمة للدلالة على أن السورة جاءت لرفع شأن الحكمة، ولذلك ذكر فيها أصناف الناس:

- الصنف الأول: ﴿الَّذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ وَيُؤتونَ الزَّكاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُم يوقِنونَ﴾ فهؤلاء هم أحكم الناس وأعقلهم لأنهم علموا الحق وعملوا به.

- الصنف الثانى: وهم السفهاء ليس عندهم حكمة فقال الله تعالى ﴿وَمِنَ النّاسِ مَن يَشتَري لَهوَ الحَديثِ لِيُضِلَّ عَن سَبيلِ اللَّهِ بِغَيرِعِلمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُوًا أُولئِكَ لَهُم عَذابٌ مُهينٌ﴾.

فالسورة الكريمة تخاطب الفطرة البشرية وتوقظها من الغفلة، وتدعو إلى اتخاذ القرارالحكيم بالإيمان والشكر لله عزوجل، من خلال التفكر في الكون الكبير وما فيه من آيات دالة على حكمة الله، وأن من كفر حرم نفسه من تلك الحكمة.

ثانياً: انتقلت بنا الآيات لعرض قصة لقمان التي يوصي فيها ابنه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ... ﴾{١٢-١٣}، حيث أمره بالشكر والتوحيد لله عز وجل، وهذا لُب الحكمة وأساسها، لأن الحكمة من أعظم عطايا الله، وعلى الإنسان ان يشكر الله على كل نعمة خصوصًا إذا كانت النعمة عظيمة، وليعلم أن الإنسان لا يصل للحكمة بجهده وإنما يصل إليها بتوفيق الله له، ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ فعاقبة شكره تكون له لأنه يستفيد منها فى دنياه، فالله يزيدها له ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ من كفر النعمة سواء بجحدها، أو بنسبتها لغير الله سبحانه وتعالى، أوعدم القيام بالذى توجبه تلك النعمة، فإن كفرت فإنك لا تضر الله شيئاً ولكنك تضر نفسك.

وقد حذّره أن يظلم نفسه حينما بيّن له أن الشرك ظلم عظيم، وعلى عادة القرآن ربط لقمان عبادة الله مع طاعة الوالدين، ولم تخل الوصية من اتخاذ الحكمة في معاملتهما حتى لو كانا مشركين ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ..﴾{١٤-١٥}.

وأراد لقمان أن يبين لابنه علم الله التام بتفاصيل ودقائق هذا الكون حتى يستشعر مراقبة الله له، فالعلم والحكمة متصلان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ... ﴾{١٦} وختمت الآية بـ(لطيف خبير) لطيف كونه يأتى بها من حيث لا يحتسب الناس، خبير لا يخفى عليه أمرها ولا مكانها.

وبعد الجانب النظرى، أمره بالجانب العملى التطبيقى، فذكر الواجبات من الأعمال: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ... ﴾{١٧-١٩}، ثم انتقل إلى الآداب والأخلاق التي تكمل الإنسان، ونهي عن الشرك قطعاً الذي هو أعظم الموبقات، فعبادة الله ومكارم الأخلاق التى أمره بها والنهى عن سيئها من تمام الحكمة.

ولاحظ أنه حذره من التكبر، وهذا متناسق مع ما ذكرته المقدمة من موقف المستكبرين. فقصة لقمان تحتوي أنموذجاً واقعياً على اتخاذ قرارالإيمان الحكيم.

ثالثاً: انتقل السياق إلى تعقيب على قصة لقمان يعيد فيها ذكر بعض آثار حكمة الله تعالى في الخلق، مع بيان موقف الناس من ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... ﴾{٢٠-٢١}، فهؤلاء فريق ولّوا الشيطان زمام عقولهم، فجادلوا في الإيمان بالله بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير، وحرموا أنفسهم من اتخاذ قرارالإيمان الحكيم. أما الفريق الثانى فكان موقفهم غاية في الحكمة: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ... ﴾{٢٢}.

وانظر قوله تعالى المعبر عن بعض حكمة وقدرة الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ... ﴾{٢٧}.

وقبل الختام أعاد السياق ذكر موقف آخر للناس: ﴿ ... إِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... ﴾{٣١-٣٢}، فقد نجّى الله هؤلاء إلى البر لحكمة بالغة، وهى إظهار موقف الناس من تلك النعمة، فمنهم مقتصداً ثابتاً على إيمانه فى البر كما كان فى البحر، ومنهم غدار كفور عاد إلى كفره وشركه بعد أن كان مخلصاً لله وحده في دعائه في البحر.

رابعاً: الخاتمة وهى تدعو إلى رأس الحكمة :(تقوى الله، والاستعداد ليوم الحساب، والتحذير من الاغترار بالدنيا ومن الشيطان): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا ... ﴾{٣٣}، وكما افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر علم الله وحكمته، ختمت كذلك بذكر بعض مظاهر علم الله وحكمته، فالعلم والحكمة متصلان: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ..﴾{٣٤}، وقوله تعالى ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ داع إلى اتخاذ قرار الإيمان اقبل فوات الأوان، وأكد ذلك تكرار عبارة ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ فالإنسان لا يدري ما سيحصل معه في غده، ولا يدري بأى أرض سيموت .

•سورة « السجدة»

تتحدث سورة السجدة عن ما تحدث به السور المكية من تعريف بالله ﷻ وبيان توحيده والإيمان باليوم الآخر والفرق بين العاملين والمستنكفين عن طاعة الله جل وعلا، فالسورة تخاطب القلب البشرى لتقرير التوحيد لله الأحد الصمد، خالق الكون والناس ومدبر السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، والتصديق برسالة النبى ﷺ والاعتقاد بالبعث والجزاء، فهي تقدم براهين على هذه العقيدة من مشاهد الكون، و نشأة الإنسان، ومشاهد يوم القيامة، وبيان جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، فاسم السورة الذي هو دليل الإيمان بعظمة الله والخضوع له، والطمع في ثوابه وحسن جزائه، يدل على تكريم المؤمنين بتلك العقيدة التى تقررها السورة .

جاء في مقدمة السورة بيان أن الله هو الخالق العليم المدبر لشؤون السماوات والأرض، وهو الذى أنزل الكتاب على نبيه ﷺ ليدعو إلى الإيمان: ﴿.. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ..﴾{١-٥}، فبعد هذا التعريف بالخالق، ينبغى على الإنسان الإيمان به واتباع الحق الذى أنزل على رسوله ﷺ، والسجود لعظمته تعالى خوفاً وطمعاً .

وقد فصلت المقدمة في بيان مظاهر أخرى لعظمة الله تعالى فى نشأة الإنسان و أطواره و ما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك ، فهو عالم الغيب والشهادة، وقد أحسن كل شئ خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، وكما هو قادر على خلقه أول مرة، فهو قادر على بعثه بعد أن يتوفاه ملك الموت الموكّل به .

وبعد هذا التعريف بالخالق القادر ، انتقل السياق إلى عرض موقف الكافرين بقدرة الله تعالى، والتى أبرزها القدرة على البعث: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... ﴾{١٠-١١}، فهؤلاء الكافرون لعدم إيمانهم بكمال قدرة الخالق العظيم، يمتنعون عن الإيمان به والسجود لعظمته، وقد عرض السياق مصيرهم يوم القيامة ليؤكد كمال قدرته تعالى على البعث والجزاء: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ... ﴾{١٢}. فإنهم يعلنون يقينهم بالآخرة وبالحق الذى جاءهم، ولكن يأتي يقينهم هذا متأخرا فلا يفيد.

واجتمع الترغيب مع الترهيب، فعرضت الآيات الكريمة موقف المؤمنين بالله تعالى وبآياته، و بين مصيرهم يوم القيامة، وأنهم لا يستكبرون عن السجود والإيمان له تعالى كما يستكبر المكذبون،ثم يصفهم بقوله ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾أى مع شدة إحتياج أجسادهم للمضاجع تتبعد عنها طلبا لما عند الله ﷻ ثم يقول الله ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ما أقامهم فى ظلمة الليل و جعلهم يبتعدون عن راحتهم و محل شهواتهم إلا خوفهم وطمعهم. ولعل هذا يطلعنا على شئ من حكمة اختيار اسم السورة.

وكما عرض السياق موقف المؤمنين من أمة سيدنا محمد ﷺ وجزاءهم، عرضت موقف المؤمنين من أمة موسى عليه السلام وبينت جزاءهم أيضاً : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ..﴾{٢٣-٢٤}، فيقينهم بآيات الله أهّلهم لأن يكونوا أئمة يهدون بأمر الله لما صبروا ، وكأن من يتحمل معنى المجاهدة ويتمثله في سورة العنكبوت، واليقين في سورة الروم، والحكمة في سورة لقمان، والعبادة في سورة السجدة هو من يجعله الله إماما، فيصدق ما عاهد الله عليه ويهزم جيش الأحزاب .

ثم أكّدت الخاتمة ما سبق، فأعادت التذكير بعرض مظاهر دالة على كمال قدرة الله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ... ﴾ {٢٦-٢٧} .

وكما افتتحت السورة بيان أن منزل القرآن على النبي ﷺ هو الله الخالق القادر، وأكدت ذلك بعرض مظاهر قدرته على الخلق والبعث، ختمت ببيان قدرة الله على البعث بعرض حسرة الكافرين في ذلك اليوم بسبب عدم إيمانهم، مع أمر النبي ﷺ بالصبر على الدعوة لأنه على حق: ﴿.. فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾{٢٨-٣٠}.

/https://www.facebook.com/lydbroteam

الجزء الثاني والعشرون

نتابع سورة «الأحزاب» والتي جاءت بتربية المؤمنين على الطاعة التامة والثقة المطلقة بالنبي القائد، من خلال بيان فضله وبعض حقوقه على المؤمنين، في الرخاء أو الشدة، وبين المجتمع المسلم عموما أو فيما يخص أهل بيته، وفيها تنبيه على خطر المنافقين والمتخاذلين .
وقد حوت الآيات توجيهات لأهل بيت النبي ﷺ وللمجتمع المسلم تجاه النبي في الظروف العادية، (...يا نِساءَ النَّبِيِّ لَستُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ...){٣٠-٣٤}، فالمقصود من هذه الأوامر حفظ عرض النبي أن يُمس بأدنى سوء، فهن مأمورات بعدم الخضوع بالقول، والقرار في البيوت وعدم التبرج، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، كل ذلك يؤهلهن لأن يذهب الله عنهن الرجس ويطهرهم تطهيرًا.

وبيّنت الآيات أن كل فرد في المجتمع الإسلامي، مأمور بفضائل الأخلاق، وقد أعد الله لمن التزم بذلك مغفرة وأجراً عظيماً، ومن الأخلاق الفاضلة الطاعة التامة لله ولرسوله، ولذلك جاء هذا الأمر(وَما كانَ لِمُؤمِنٍ وَلا مُؤمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسولُهُ أَمرًا أَن يَكونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِن أَمرِهِم..) وهذا الأمر ممهد لعدم المجادلة فيما يتعلق بأمر الله رسوله ﷺ بالزواج من مطلقة زيد بن حارثة، الذي كان قد تبناه النبي ﷺ، فقد أراد الله إبطال حكم التبني، واختص رسوله ﷺ بالقيام بهذه المهمة، وحينئذ لن يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم .
وبيّنت الآيات بعض مزايا هذا النبي الكريم وعظيم فضله عند الله تعالى (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّا أَرسَلناكَ شاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذيرًا...){٤٥-٤٨}.
وبمناسبة الحديث عن العلاقات الأسرية الخاصة بالنبي ﷺ، بيّن السياق أن لا عدة للنساء المطلقات قبل الدخول، وأتبع ذلك ببيان ما يحل للنبي ﷺ من النساء، وهن اللاتي أتاهن أجورهن -أزواجه التسع- وما ملكت يمينه، وبنات أعمامه وعماته، وبنات أخواله وخالاته، وأية امرأة وهبت نفسها للنبي إن أراد أن يستنكحها بلا ولىّ، وهذا أمر خاص به فقط من دون المؤمنين، وقد جعل الله له مطلق الحرية في اللواتي يعرضن أنفسهن له، فإن شاء ضمهن إليه، وإن شاء أبى، وإن أراد أن يضم إليه امرأة قد أباها سابقًا فله ذلك، ثم حرم الله عليه استبدال أحد أزواجه بأخرى ولو أعجبه حسنها .

ثم انتقل السياق إلى أمر توجيهي آخر للمؤمنين يتعلق بحقوق النبي ﷺ، فقد نهى القرآن المؤمنين عن دخول بيوت النبي بلا إذن، وإذا أُذن لهم فلا يثقلوا عليه بانتظار نضج الطعام، أو الاستئناس بالحديث بعد الطعام، ولكن إذا طعموا فلينتشروا، وقد حرم القرآن على المؤمنين أن يسألوا إحدى نساء النبي شيئا من متاع الدنيا إلا من وراء حجاب، واستثنى السياق من ذلك المحارم من الرجال، وانظر إلى هذا التوجيه (وَما كانَ لَكُم أَن تُؤذوا رَسولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحوا أَزواجَهُ مِن بَعدِهِ أَبَدًا ..)(بعض الآية: ٥٤)، وقد أمر السياق أيضا نساء النبي ونساء المؤمنين بأمر مشترك، وهو أن يدنين عليهن من جلابيبهن ما يسترن به أنفسهن فلا يؤذين من ذي قلب مريض.
وخُتمت هذه التوجيهات بأمر مبين لفضل النبي المصطفى ﷺ وعظم منزلته عند الله (إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا صَلّوا عَلَيهِ وَسَلِّموا تَسليمًا).

..وقبل الختام بيّنت السورة تكريم الإنسان بأمانة العقل التي أشفقت منها السماوات والأرض، وهي أمانة تقتضي منه أن يكون مواليًا ومطيعًا كل الطاعة لله تعالى ولرسوله، وكما افتتحت السورة بأخذ الحيطة والحذر وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، خُتمت ببيان مصير كلا الفريقين (لِيُعَذِّبَ اللَّهُ المُنافِقينَ وَالمُنافِقاتِ وَالمُشرِكينَ وَالمُشرِكاتِ وَيَتوبَ اللَّهُ عَلَى المُؤمِنينَ وَالمُؤمِناتِ ..){٧٣}.

ولما كان حاصل سورة الأحزاب رحمة ولطفاً ونعمة لا يُقدرعظيم قدرها بنصر المسلمين وانهزام جند الأحزاب ، أُعقبت بما ينبغي من الحمد في سورة سبأ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..) .

سورة « سبأ »

سميت باسم سبأ، لذكر قصة سبأ فيها، والسورة جاءت بإثبات حقيقة البعث والجزاء، وذلك بذكر آيات عدة من أوجه قدرة الله وإحاطة وشمول علمه، وقد كانت قصة سبأ المذكورة مع التعقيب عليها دليلاً واضحاً على قدرة الله تعالى على قلب المنحة إلى محنة، و بيان أن الإعراض عن المنعم عز وجل وجحود نعمته أمر مؤد لزوال تلك النعم، وذلك لأن الله بيده مقاليد السماوات والأرض والرزق، فينبغي أن يكون موقف الناس من المنعم سبحانه موقف الإيمان والتوحيد والحمد والشكر، لا موقف الإعراض والجحود والشرك والكفر، وبينت الآيات أن من أسباب زوال النعمة عنهم أيضا الترف والاستكبار واتباعهم للشيطان الذي أوصلهم إلى الشك بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، وفي السورة بيان أن الإيمان والعمل الصالح هما قوام الحكم والجزاء عند الله، وليس الأموال والأولاد، وقد كانت قصتهم أنموذج جحود وكفر في مقابل قصة آل داود التي تمثل الإيمان والشكر.

وقد نزلت سورة سبأ لتواجه المشركين وتستخرج المستضعفين من سلطة المستكبرين، فاشتملت على خطاب لكل هؤلاء، ولذلك بُدئت بالحمد ويأتي معه وصف لله تعالى، فتحمد الله أن كل شئ له تعالى وهم لا يملكون شيء إلا بإذنه :(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..){١-٢}، وقد بين السياق أن لكمال قدرة الله عز وجل ولكمال علمه، قد جعل يوم القيامة ليحاسب فيه المحسن والمسيء، وهو يوم ينكره الكافرون ليتبطروا بنعم الله في الدنيا بلا رقيب ولا حسيب، فجاءت هذه القرية الساخرة من الكافرين التي تحاكي ما حصل مع سبأ حينما بطروا نعمة ربهم: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ..){٧-٩} .

ثم انتقلت السورة إلى عرض قصصي لأنموذجين متقابلين، فكان أولهما أنموذج آل داود الذي يمثل موقف الشكر مثالاً لعطايا الله عزوجل للطائعين، فإذا كان الله وهب لداوود عليه السلام كل هذا الفضل فهو قادر على رزق النبي ﷺ ما يريد: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ..){١٠-١١}،وكذلك العمل الصالح الذي كان يقوم به داود عليه السلام يمثل الجانب التطبيقي للشكر، وكذلك موقف ابنه سليمان عليه السلام: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ..){١٢-١٤}، ولاحظ أيضا كيف سخر سليمان عليه السلام جنوده للأعمال الصالحة التي تعتبر جانبا تطبيقياً لشكر المنعم عز وجل، وقوله تعالى: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) الممهد لقصة سبأ وهم الأنموذج الثاني لمن جحد بالنعم، ليكون في ذلك عبرة للمؤمنين تحذرهم من عدم الشكر (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ..){١٥-١٧}

وهنا عرضت السورة موقفين لسبأ: أولهما، إذ بطروا نعمة الجنتين اللتين أنعم الله بهما عليهما، وأعرضوا عن شكر المنعم وعن الاستغفار، فكانت العاقبة أن أبدلت جنتاهما بجنتين ذواتي ثمر حامض سئ.

وأما الموقف الثاني الذى يدل على الجحود أيضا (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ..){١٨-١٩}، فهم قد بطروا نعمة الأمن التي أنعمها الله عليهم حينما قرب مسافات سفرهم، وطلبوا تطويل المسافات في السفر -وهذا نوع من الخلل العقلي- حتى كانت النتيجة أنهم قد مُزقوا كل ممزق، ولاحظ قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)، الدال على أن موقف الإنسان ينبغي أن يكون صابرًا حال الضراء، وشكوراً حال السراء .

وجاء في التعقيب ذكر بقية الأسباب التي دعتهم إلى بطر النعمة وجحودها (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ..){٢٠-٢١}، فقد زين لهم إبليس بطر النعمة فأطاعوه، وسلطان الشيطان عليهم ليس قوة وإنما

فقط وسوسة حتى وصل الأمر بهم إلى الشك بحقيقة الأخرة، وإنكار الآخرة أمر مشترك بين المتبطرين.
ثم تعيد الآيات التذكير بأن الله تعالى وحده بيده مقاليد كل شيء في الدنيا كما في الآخرة،(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ..){٢٢-٢٤}، وهذه تسمى آيات التجريد التام والملك التام لله ، ولاحظ أن التلاوم بين المستكبرين والمستضعفين يذكرنا بدور إبليس في إغواء سبأ، فهم تكبروا عن أعظم نعمة من نعم المنعم عز وجل عليهم، ألا وهي نعمة الهدى المتمثلة بالقرآن والكتب السماوية، وقادهم تكبرهم إلى المكر بالليل والنهار ليكفروا بالمنعم عز وجل ويشركوا به .

لنصل إلى الخاتمة و قد دعت إلى أن يكون موقف الإنسان من المنعم سبحانه موقف الإيمان والشكر (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)، كما بينت كمال الآيات التي ينكرها المتبطرون (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ..){٥١-٥٣}، فقد انتبهوا بعد فوات الأوان إلى الموقف الذي كان يجب أن يتخذوه من المنعم عز وجل.
وكما افتتحت السورة ببيان أن موقف الإنسان ينبغي أن يكون موقف الإيمان والتوحيد، ختمت ببيان مصير من اتخذ بدلًا من ذلك موقف الجحود والكفر (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ..){٥٤} .

لما أوضحت سورة سبأ أن الله سبحانه هو مالك السماوات والأرض، ومستحق الحمد في الدنيا والآخرة ، أوضحت سورة فاطر أن ذلك خلقه كما هو ملكه فجاءت عدة آيات معرفة بابتداء الخلق والاختراع .

سورة « فاطر »
وفطْرُ الخلق: هو إيجاد الشيء وإبداعه، والفطر هو لحظات البداية ، كمن مازال على فطرته، فوصْف الله تعالى بفاطر السماوات والأرض، يدل على أنه سبحانه هو الذي أوجد هذا الكون وأبدعه .
السورة مقصودها إيقاظ القلب البشري من غفلته، بإيقاعات تهزه هزًا، ليتأمل عظمة هذا الكون وآيات الله المبثوثة فيه، فهى تثبت القدرة الكاملة لله تعالى، ومنها قدرته على البعث، فالإيجاد من العدم أدلّ دليل على ذلك .

بدأت مقدمة السورة بدعوة لتوحيد الخالق بعرض بعض مظاهر كمال قدرته في الكون (الحَمدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالأَرضِ جاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلًا ...){١-٣}، وبعد ذكر بعض الآيات الكونية، انتقل السياق إلى التحذير من الكفر بالآيات القرآنية: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ...){٤-٥}، وجاء التحذير من الكفر، والاغترار بالحياة الدنيا أو بخطوات الشيطان.
ثم انتقل السياق إلى تأكيد القدرة الإلهية على البعث، فالمقدمة أثبتت أن الله هو المبدئ، وهنا سيثبت السياق أن الله هو المعيد: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّت..) فكما أن الله أرسل الرياح بقدرته وتدبيره فساق الماء للأرض الميتة فأحياها كذلك يرسل الرسل فينشروا الخير في الأرض فيُيحي القلوب الميتة.
وفي السورة مَلمح واضح وهو التنوع، فنجد قدرة الله المطلقة وما فيها من تنوع، فخلقنا الله من نفس الأصل ولكنه جعلنا أزواجاً، وكما أن الانسان خُلق من مواد واحدة ولكنه متنوع في الشكل والأخلاق، فكذلك أصل البحر والنهر واحد وهو الماء ولكنهم مختلفين ومتفاضلين (وَما يَستَوِي البَحرانِ هذا عَذبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ...)، وهو تعالى الذي يولج الليل في النهار، وهو الذي سخر الشمس والقمر، وأعاد التذكير بأن الذي له هذه الصفات هو المستحق للعبادة، ولا شريك له : (... ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ...){١٣-١٤}، ثم تقصّي

لأنواع الاختلاف في الناس وعدم الاستواء، فمنهم من دنّس فطرته فهو لا يستفيد من القرآن (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ...){١٩-٢٢} .

وبعد الدعوة إلى التوحيد من خلال الآيات الكونية، انتقل السياق إلى الدعوة بالآيات القرآنية : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ...){٢٥-٢٦} وانظر هذه الآيات: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ..){٢٩-٣٠} فالسياق يدعو إلى توحيد الله عز وجل والإيمان بآياته، من خلال بيان مصير المؤمنين.
وكما اصطفى الله عزوجل نبينا الكريم لتبليغ الرسالة، اصطفى أمة الاسلام لحمل الرسالة الخاتمة، ولكن تنوعت أفعال من وصل إليهم القرآن الكريم (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ...){٣٢}، ولكي يؤكد السياق على حقيقة أن الله تعالى هو المبدئ المعيد، عرض مصير المؤمنين والكافرين يوم القيامة .

لنصل إلى الخاتمة وقد أعادت التقرير بأن الله عز وجل هو المُبدئ والمعيد، فكما هو قادر على جعل البشر يخلف بعضهم بعضًا (جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ)، فهو عز وجل قادر على بعثهم يوم القيامة.
وكما افتتحت السورة ببيان أن الله هو الذي فطر السماوات فهو المُبدئ ، ختمت ببيان أنه هو المعيد: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ..).

•سورة «يس»
القضية التي يشتد عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور، والتأكيد عليها من خلال ذكر بعض المشاهد الكونية المتعددة، كإحياء الأرض بنزول الماء، وسلخ الليل من النهار، وحركة الشمس والقمر. فالسورة تعرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى، مما يثبت أنه تعالى بيده ملكوت كل شيء وأنه سبحانه منزه عن النقائص.

جاء في مقدمة السورة ما ينبغي أن يكون عليه الدعاة من اليقين في مقابل قمة الإعراض من المُنذَرين، فينبغي للنبي ﷺ أن يبقى على يقين من أن الله هو من أرسله لينذر قومه يوم البعث:(..إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرسَلينَ..){١-٨} وكأن السياق يقول: وحقِّ من بيده القدرة المطلقة وهو سبحانه منزه عن النقص، إنك يا محمد من المرسلين، وجاء وصف القرآن بالحكيم، لأنه يحذر من يوم البعث، إذ تتجلى فيه حكمة الله تعالى بإثابة المحسن ومعاقبة المسيء، وجاء الإشارة إلى صورة عذاب المكذب يوم القيامة، لأن سياق السورة كله عن يوم البعث، وفي المقابل بينت المقدمة أن إرسال النبي رحمة لمن آمن وعمل ليوم البعث، وأكدت ذلك بذكر كونه تعالى قادرا على بعث الموتى وحفظ أعمالهم جميعها .

ثم انتقل السياق إلى قصة أصحاب القرية، فانظر قول الرجل الذي جاء يدعو قومه إلى الإيمان بما جاء به الرسل الثلاثة وقد جاء من أقصى المدينة، كان بعيدا عن بيئة الجدل والإعراض فنجا، وجاء يسعى فهذا القلب إن ذاق الإيمان واستشعر حقيقته لن يطيق السكوت، فيسعى في الأرض داعيًا إلى الله (وَجاءَ مِن أَقصَى المَدينَةِ رَجُلٌ يَسعى قالَ يا قَومِ اتَّبِعُوا المُرسَلينَ){٢٠-٢٢} ولاحظ قوله (وَما لِيَ لا أَعبُدُ الَّذي فَطَرَني وَإِلَيهِ تُرجَعونَ) الدال على أن الله الذي فطره أول مرة قادر على بعثه، وانظر قوله تعالى(قيلَ ادخُلِ الجَنَّةَ قالَ يا لَيتَ قَومي يَعلَمونَ){٢٦-٢٧}، فقد نقل إلينا القرآن كلام هذا المؤمن ليؤكد تحقق النعيم له في يوم البعث جزاء إيمانه، وهُنا الفارق بين الأنعام التي لا ترى إلا بعدما تبصر، والإنسان الذي يؤمن بالغيب، فالمؤمن هيؤمن قبل أن يرى يثق بربه يعرف أن كل جهد وعناد أهل الباطل وتدبيرهم ينتهي بصيحة واحدة (إِن كانَت إِلّا صَيحَةً واحِدَةً فَإِذا هُم خامِدونَ)، والحياة تنتهي بنفخة واحدة من مخلوق من مخلوقات الله ! .

https://www.facebook.com/lydbroteam/

الجزء الثالث والعشرون

تتابع سورة «يس»

لنستكمل قصة أصحاب القرية و قول الرجل الذي جاء يدعو قومه إلى الإيمان بما جاء به الرسل الثلاثة، فقد نقل إلينا القرآن كلام هذا المؤمن ليؤكد تحقق النعيم له في يوم البعث جزاء إيمانه، وهُنا الفارق بين الأنعام التي لا ترى إلا بعدما تبصر، والإنسان الذي يؤمن بالغيب، فالمؤمن يثق بربه ويعرف أن كل جهد وعناد أهل الباطل وتدبيرهم ينتهي بصيحة واحدة ﴿إن كانَت إلّا صَيحَةً واحِدَةً فَإذا هُم خامِدونَ﴾، والحياة تنتهي بنفخة واحدة من مخلوق من مخلوقات الله ! .

ثم انتقل السياق إلى تعقيب على تلك القصة يؤكد قدرته تعالى على البعث، فالآيات الكونية كانت كافية لأن يقبلوا على الله، فإن لم تنفع هذه الآيات، فانظروا إلى ما حدث للسابقين ﴿أَلَم يَرَوا كَم أَهلَكنا قَبلَهُم مِنَ القُرونِ أَنَّهُم إِلَيهِم لا يَرجِعونَ﴾{٣١-٣٦}، فالآيات تعرض بعض مظاهر كمال قدرة الله، فهو الذي يحيي الأرض بالغيث، ويخرج منها الحب ويجعل فيها الجنات، وقد نفت الآيات القدرة عن البشر، ثم أثبتت القدرة التامة لله وحده، وذكرت من مظاهر كمال قدرة الله تعالى آية الليل والنهار، وآية الشمس والقمر، وحمل ذرية آدم في الفلك المشحون، ولكي يكتمل التأكيد على إثبات أن الله قادر على البعث، عرض السياق مصير المؤمنين والمكذبين في ذلك اليوم ﴿إِنَّ أَصحابَ الجَنَّةِ اليَومَ في شُغُلٍ فاكِهونَ ... ﴾{٥٥-٦٨}

وينزّه الله تعالى نبيه الكريم عما رماه به المشركون أن الذى جاء به شعر فقال ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾{69-70}

ثم يأمر الله العباد بالنظر إلى ما سخّر لهم من الأنعام وذللها وجعلها ملكاً لهم، لبيان بطلان آلهة المشركين التي اتخذوها مع الله تعالى، فإنها فى غاية العجز "لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ"

ثم ذكر الله شبهة منكرى البعث والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه ﴿أَوَلَم يَرَ الإِنسانُ أَنّا خَلَقناهُ مِن نُطفَةٍ ... ﴾{77-82}

وانتهت السورة بتسبيح الله عز وجل ﴿ فَسُبحانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكوتُ كُلِّ شَيءٍ ﴾

ولما تضمنت سورة يس من جليل التنبيه وعظيم الإرشاد ما يهتدى به الانسان، ويشهد بأن المَلِك إنما هو واحد رغم أنف المعاند والجاحد، اتبعها الله بالقسم على وحدانيته في مطلع سورة الصافات فقال ﴿وَالصّافّاتِ صَفًّا۝ فَالزّاجِراتِ زَجرًا ۝ فَالتّالِياتِ ذِكرًا﴾

•سورة « الصافات »

ويعود إسم السورة إلى وصف حالة الملائكة الكرام، إذ هم يصطفون بانتظام وطاعة ترقبًا لأمر الله إليهم، وحالتهم في الاصطفاف إشارة إلى الصلاة والتسبيح.

نزلت السورة تستهدف بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك بكل صوره وأشكاله، وبخاصة ما كان يتصوره المشركون من ادّعاء نسب بين الله تعالى وبين الجن، وزعمهم أن هذا النسب أنتج الملائكة وهم إناث، ومن ثم اتخذوهم آلهة.

جاء في المقدمة وصف بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، وهذه المظاهر تنفي الإلهية المزعومة للملائكة أو الجن ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ...﴾{1-7} ولاحظ ذكر بعض مهام وصفات الملائكة، فاصطفافهم دليل على أنهم عباد مطيعون لله تعالى يترقبون أمره، ووحدة صفِّهم دليل على وحدة هدفهم، ولاحظ بيان أن الله تعالى رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق، و بيان حفظ الله تعالى السماء من أن يصلها الجن وأن يستمعوا لأخبارها.

وبعد إثبات قضية التوحيد وهي القضية الأكبر في الإيمان، انتقل السياق إلى قضية الإيمان باليوم الآخر، فقد عرض السياق موقف الكافرين والمؤمنين بهذا اليوم، وبين مصير الفريقين يوم القيامة ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ... ﴾{19-24} ولاحظ وصف النفخة في الصور بالزجرة، ليتلائم ذلك مع وصف الملائكة بالزاجرات. ثم يخبر الله ﷻ عن نعيم أهل الجنة، فذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم وعموم النعيم وتفاصيله داخلة في قول ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾، لكن فصّل هذه الأشياء لتشتاق لها النفوس .

ثم يأتينا عرض قصصي يبرز بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، وتمام حكمته في اصطفاء من يشاء من الرسل، فاصطفاؤه للرسل لا يجعلهم آلهة يستحقون العبادة، وكذلك الحال مع الملائكة التي اصطفاها لعبادته، و كانت أول قصة هي قصة نوح عليه السلام ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ... ﴾{75-82}، ولاحظ بيان اصطفاء نوح عليه السلام، فهو مجرد عبد اختاره الله لأداء الرسالة.

وأما القصة الثانية فهي قصة إبراهيم عليه السلام:﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ... ﴾{83-87}، وقد وصفه الله تعالى بصاحب القلب السليم، ليدل ذلك على أن قلبه خالي من الشرك، ثم فصّلت الأيات في بيان إبطال إبراهيم إلاهية أصنام قومه المزعومة، فقد كسّر آلهتهم وأراد قومه إلقاءه في الجحيم، وهنا تظهر قدرة الله مرة أخرى إذ أنجاه الله وجعلهم الأسفلين،

ومن مظاهر كمال قدرة الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام بيان أن الله تعالى وهب له إسماعيل وإسحاق وجعلهما من الأنبياء، ومن مظاهر كمال طاعة إبراهيم لربه أنه شرع في الاستجابة للرؤيا حين رأى أنه يذبح إسماعيل عليه السلام، فبادر هو وابنه إسماعيل إلى تنفيذها، وفداه الله بذبح عظيم، وذكر هذا الجانب من قصتهما عليهما السلام يتلائم مع ما بينته مقدمة السورة من طاعة الملائكة المطلقة.

ومن اللطيف أن القصة الثالثة كانت قصة موسى وهارون عليهما السلام، فما من شك في أن ذكرهما يبرز كمال قدرة الله تعالى في إنجاءهما وقومهما من الغرق، وإغراق فرعون وقومه، وهي قصة مترابطة مع قصة نوح عليه السلام الذي نجاه الله من الغرق أيضا، وقد بين السياق أن الله اصطفاهم لأنهما من المحسنين.

وقصة إلياس عليه السلام تبرز أن عبادة قومه لبعل المزعوم إنما هي عبادة باطلة، لكن القوم كذبوا إلياس عليه السلام فهم مُحضرون للعذاب كما سيحضر الداعون للشرك وأتباعهم، وبينت الآيات أن الله اصطفاه ، لأنه من المحسنين أيضا.
ثمّ يثنى الله ﷻ على عبده يونس عليه السلام، وذكر عقوبته فى الدنيا حين غضب من قومه لما أعرضوا فى أول الأمر عن الإيمان بالله فتركهم وركب السفينة، فأوشكت السفينة أن تغرق لامتلائها، فاقترعوا ليلقوا بعضهم فكان يونس من هؤلاء المغلوبين فألقوه فى البحر فابتلعه الحوت، فلولا تسبيحه فى بطن الحوت بلا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لكان الحوت مقبرته، ولكن أنجاه الله فأخرجه وأنبت عليه شجرة من يقطين تظلّه .

ونصل إلى الخاتمة، فبعد أن ذكر الله إخلاص الملائكة فى عبادته سبحانه، وذكر أحوال الأمم السابقة من المكذبين، خُتمت سورة الصافات بسؤال المشركين الذين جمعوا بين الشرك بالله ووصفه بما لا يليق ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ فهل هذا قول جائز فى حق الله ﷻ؟ سبحانه وتعالى الله عما يقولون علواً كبيرا .

ولما ختمت سورة الصافات باستعجال العذاب ﴿أَفَبِعَذَابِنا يَستَعجِلونَ﴾ ، بدأت سورة ص ببيان هلاك بعض الأمم بالعذاب الذي استعجلوه.

•سورة « ص »

نزلت سورة ص على النبي ﷺ فى بداية أمر الله له بالجهر بالدعوة، فلما جهر ﷺ بالدعوة ، وأراد لقومه أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فقالوا ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾، فنزل عليهم قوله تعالى ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾.

وإنتقلت السورة لتضرب الأمثال لكفار مكة بمن سبقهم من الطغاة المتجبرين، الذين أسرفوا في التكذيب والضلال وما حل بهم من العذاب و النكال، بسبب إفسادهم و إجرامهم ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ۝ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾.

ثم تناولت السورة قصص بعض الرسل الكرام، تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من كفار مكة من تكذيب واستهزاء، وتخفيفاً لآلامه و أحزانه، فذكرت قصة نبى الله داود وابنه سليمان عليهما السلام، الذن جمع الله لهما بين النبوة و الملك، وما نال كلاهما من الفتنة والابتلاء، إذ ابتلى الله عزوجل داوود عليه السلام برجلين تسوّرا محرابه فجأة وعرض أحدهما خصومته أمام داود، فحكم داود لصالحه قبل أن يستمع لقول الآخر، حينها أدرك داود أن هذه فتنة من الله ليربيه على الصبر ﴿... وَظَنَّ داوودُ أَنَّما فَتَنّاهُ فَاستَغفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعًا وَأَنابَ ... ﴾{٢٥-٢٦} ولاحظ بيان عاقبة تربيته على الصبر، إذ جعله الله خليفة في الأرض يحكم بين الناس بالحق.

ثم انتقلت الآيات إلى القصة الثانية وهي قصة سليمان عليه السلام، وقد عرض السياق أنه تعرض لفتنتين من الله من أجل أن يربيه على الصبر، ﴿وَوَهَبنا لِداوودَ سُلَيمانَ نِعمَ العَبدُ إِنَّهُ أَوّابٌ ... ﴾{٣٠-٣٤}، فأول فتنة حين عرضت عليه الخيول الأصيلة السريعة، تقف على ثلاث قوائم، وترفع الرابعة، فلم تزل تُعْرض عليه تلك الخيول الأصيلة حتى شغلته عن ذكر الله، والفتنة الثانية أن الله ألقى على كرسي ملكه شيطانًا متمثلًا بإنسان تصرف في ملكه مدة قصيرة ثم رجع لسليمان ملكه . وقد بينت الآيات عاقبة صبره إذ مكّن الله له في الأرض وسخر له الريح والشياطين .

ثم انتقلت الآيات إلى قصة أيوب عليه السلام، إذ ابتُلي بمس الشيطان بأمر مشق ومتعب، فصبر حتى عافاه الله ووهب له أهله ومثلهم معهم رحمة منه تعالى، وذلك جزاء صبره عليه السلام، وأعقب قصة أيوب ذكر بعض الأنبياء فى بيان سريع لسنة الله في ابتلاء أنبيائه وأصفيائه، وما ينال عباد الله من كرامات وفتح من الله، وأن حسن عبادتهم كان سببا في اصطفائهم من ربهم ﷻ، ووصفهم بأولي الأيدي والأبصار: أى ذوي قوة على عبادة الله تعالى وبصيرة في الدين، ﴿... إِنّا

أَخلَصناهُم بِخالِصَةٍ ذِكرَى الدّارِ ... ﴾{٤٥-٤٩}
فهذا العرض القصصي يعرض تربية الله تعالى لأنبيائه على الصبر حتى تحقق لهم العاقبة الحسنة، وفي ذلك تربية للنبي وبشارة له بحسن العاقبة.

ثم انتقلت الآيات إلى بيان مصير الصابرين على الحق والصابرين على الباطل يوم القيامة﴿هذا ذِكرٌ وَإِنَّ لِلمُتَّقينَ لَحُسنَ مَآبٍ..﴾ {٤٩-٥١}
وجاءت الخاتمة تؤكد ما سبق، فقد أعادت دعوة النبي إلى الصبر على تذكير قومه بالقرآن ﴿قُل إِنَّما أَنا مُنذِرٌ وَما مِن إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الواحِدُ القَهّارُ..﴾{٧٩-٨٣}، وبينت أن الذي دفع إبليس إلى عدم الاستجابة لأمر الله إنما هو تكبره﴿... قالَ أَنا خَيرٌ مِنهُ ... ﴾{٧١-٨٣}، وجاء وصف المؤمنين بالمخلصين بسبب صبرهم على كيد إبليس.

•سورة « الزمر »
هى سورة التوحيد و الإخلاص من أولها لأخرها، جاءت داعية بالتوحيد، تأمر بالإخلاص لله عزوجل، وافتُتحت السورة بمدح الكتاب، وكأنها تتمة لسورة (ص) إذ قال الله تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ و فى بداية الزمر يقول تعالى ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.
وتسمية السورة بـ (الزمر)، يشير إلى تفصيل الجزاء وإلزام الحجة وبطلان المعذرة، فهي إشارة إلى أنه أنزل كلا من المحشورين داره المعدة لهم بعد الإعذار في الإنذار، بعد أن بينت أحوالاً شتى لأفواج متباينة من الخلق في الدنيا، وبذلك تعالج السورة قضية التوحيد وتطبعه في النفوس، ولما كان مشهد الزمر الذي يبين الإهانة والتحقير للكافرين المتكبرين، في مقابل الترحيب والتكريم للمتقين العاملين أدل ما في السورة على مصير كلا الفريقين، سميت السورة به .

في مقدمة السورة تجد مقابلة بين النبي ﷺ المأمور بالتوحيد الخالص لله، وبين حال المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء ﴿ إِنّا أَنزَلنا إِلَيكَ الكِتابَ بِالحَقِّ فَاعبُدِ اللَّهَ مُخلِصًا لَهُ الدّينَ ... ﴾{٢-٣}، وذكرت المقدمة من الأدلة الداعية إلى توحيد الله عز وجل أنه هو الذي خلق السماوات والأرض بالحق، وأنه يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر. وذكر هذه الأدلة في المقدمة فيه تشنيع على المشركين، وزيادة تثبيت للمؤمنين الموحدين.
ثم يبين الله سبحانه و تعالى أنه منزه عن الصاحبة و الولد وعن الأنداد والنظراء والشركاء وأنه لو أراد أن يتخذ ولد لإصطفى مما يخلق ما يشاء، ثم يذكر الأدلة على وحدانيته بأنه هو سبحانه الذى سخر الشمس والقمر، وكور الليل على النهار، والنهارعلى

الليل، وهو جل جلاله الذى خلقنا من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها، وتستمر الآيات تدعو الى التوحيد وتبين فضائله، إلى أن يأتى قول الله عزوجل ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ... ﴾.

ثم انتقل السياق إلى عدد من المقابلات بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، وغالبا ما كان يعقب على تلك المقابلات بذكر مصير الفريقين يوم القيامة .

- المقابلة الأولى بين الكافر الجاحد لنعمة ربه، وبين المؤمن العابد الراجي لرحمة ربه ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنيبًا إِلَيهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعمَةً مِنهُ نَسِيَ ما كانَ يَدعو إِلَيهِ مِن قَبلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندادًا ... ﴾{٨-١٠}.

- المقابلة الثانية بين النبي المأمور بالتوحيد الخالص وأتباعه الموحدين المبشَّرين، وبين المشركين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴿... قُلِ اللَّهَ أَعبُدُ مُخلِصًا لَهُ ديني ۝ فَاعبُدوا ما شِئتُم مِن دونِهِ قُل إِنَّ الخاسِرينَ الَّذينَ خَسِروا أَنفُسَهُم وَأَهليهِم يَومَ القِيامَةِ ... ﴾{١١-١٧}.

- المقابلة الثالثة بين حال المؤمنين الذين شرح الله صدورهم للإسلام وللقرآن، وبين الكافرين القاسية قلوبهم ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدرَهُ لِلإِسلامِ فَهُوَ عَلى نورٍ مِن رَبِّهِ فَوَيلٌ لِلقاسِيَةِ قُلوبُهُم مِن ذِكرِ اللَّهِ ... ﴾{٢٢-٢٤}.

- المقابلة الرابعة في المثل الذي يوضح حال الموحدين وحال المشركين ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَل يَستَوِيانِ مَثَلًا ... ﴾{٢٩}.

https://www.facebook.com/lydbroteam/

الجزء الرابع والعشرون

نتابع سورة «الزمر» وقضية الدعوة إلى التوحيد من خلال عرض مقابلات بين بعض أحوال المؤمنين الموحدين في الدنيا، وبين بعض أحوال الكافرين المكذبين فيها، وبيان جزاء الفريقين في الآخرة .

و لازلنا في ذكر المقابلات بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين:

- المقابلة الخامسة: بين حال الكافرين المكذبين، وبين المؤمنين الصادقين المصدقين ﴿فَمَن أَظلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ... ﴾{٣٢-٣٤}.

- المقابلة السادسة: بين المشركين المتخذين من دون الله شفعاء، وبين النبيّ الموحد ﴿أَمِ اتَّخَذوا مِن دونِ اللَّهِ شُفَعاءَ ... ﴾{٤٣-٤٧}.

- المقابلة السابعة: بين المؤمنين الراجين لرحمة ربهم والمتبعين ما أُنزله إليهم قبل فوات الأوان ﴿ قُل يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسرَفوا عَلى أَنفُسِهِم لا تَقنَطوا مِن رَحمَةِ اللَّهِ ... ﴾{٥٣-٥٩}، وجاء التعبير عن مصير الفريقين متناسق مع مصيرهم في مشهد الزمر.

- المقابلة الثامنة: فهي بين المشركين الجاهلين، وبين النبي المأمور بالتوحيد وبذلك يلتقي آخر السورة بأولها ﴿قُل أَفَغَيرَ اللَّهِ تَأمُرونّي أَعبُدُ أَيُّهَا الجاهِلونَ ... ﴾{٦٤-٦٦}

لنصل إلى الخاتمة، وهي تحوي المقابلة التاسعة: في مشهد سوق الكافرين إلى جهنم زمرا ﴿وَسيقَ الَّذينَ كَفَروا إِلى جَهَنَّمَ زُمَرًا ... ﴾{٧١-٧٢} يقابله سوق المتقين إلى الجنة زمرا ﴿وَسيقَ الَّذينَ اتَّقَوا رَبَّهُم إِلَى الجَنَّةِ زُمَرًا ... ﴾{٧٣-٧٤}.

وبعد أن تكلم الله سبحانه في نهاية سورة الزمر عن التوبة، ذكر توبته على العباد ومغفرته لهم في أول سورة غافر.

•سورة «غافر»

الغفران والمغفرة من الله وهي حماية العبد من أن يمسه العذاب، فوصف الله تعالى بغافر الذنب يدل على أنه دائم المغفرة سبحانه.

والسورة جاءت بالدلالة على عزة الله الكاملة وعلمه الشامل، من خلال بيان تصنيف الناس في الآخرة إلى صنفين، وهي تعالج قضية الحق والباطل، وقضية الإيمان والكفر، وقضية العلوّ في الأرض والتجبر بغير الحق، وفي ثنايا ذلك تعرض موقف المؤمنين ونصر الله لهم، فجو السورة جو المعركة بين الحق والباطل. وتسميتها ب "غافر" تدل على ذلك، فإنه لا يقدر على غفران ما يشاء ولمن يشاء، ونصر المؤمنين وإهلاك الكافرين إلا كامل العزة، ولا يعلم جميع الذنوب ليسمّى غافرًا إلا

كامل العلم .

بدأت المقدمة ببيان أن الله تعالى غافر الذنب لمن آمن، وشديد العقاب ذو الطول أي: ذو القدرة على إنزال الانتقام بمن كفر: ﴿ حم ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ... ﴾ {١-٣}.
وجاء بيان أن الله تعالى إليه المصير، لأنه في يوم القيامة يتجلى غفرانه ورحمته للمؤمنين، ويتجلى انتقامه وعقابه للكافرين، وأكدت الآيات ذلك، فأشارت إلى مصير المكذبين السابقين: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ... ﴾{٥-٦}، وقول ملائكة العرش المستغفرين للمؤمنين ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ... ﴾{٧} فلاحظ قولهم "فاغفر للذين تابوا" قدموا الاستغفار على ذكر التوبة، ليتلاءم ذلك مع وصفه تعالى بغافر الذنب وقابل التوب .

ثم انتقلت الآيات تدعو إلى التوحيد من خلال تأكيد أنه تعالى شديد العقاب وذو الطول لمن كفر يوم القيامة: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ... ﴾{١١-١٢}، ولكي يؤكد السياق الدعوة إلى التوحيد، حذر من يوم القيامة وبين أن الملك فيه لله الواحد القهار، وليس لأحد غيره فيه تصرف ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ...﴾{١٥-١٧} وفي ذلك اليوم تجزى كل نفس بما كسبت، ولا تظلم شيئا.

ثم انتقلت الآيات إلى عرض قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وهي تؤكد حقيقة أن الله تعالى شديد العقاب ذي الطول ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ... ﴾{٢٦-٢٧}، طلب فرعون قتل موسى، وهذا الموقف من فرعون هو الأقبح، وسيأتي بيان أنه سيُعذَّب أشد العذاب يوم القيامة جزاءاً لهذا، ثم استعاذ موسى عليه السلام بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، ثم عرضت الآيات موقف الرجل المؤمن من آل فرعون، وهذا دليل على نجاح موسى عليه السلام فى إيصال دعوته إلى قلب بيت فرعون، ثم أنه آمن بالله وكفر بفرعون وذلك دليل على جرأته وشجاعته ففتح الله عزوجل قلبه للإيمان، فاختار ما عند الله، ومن حرصه على التقرب لقومه أشرك نفسه معهم ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ... ﴾، ولم يلتفت الرجل المؤمن لفرعون بل استمر فى توجيه كلامه للقوم، ولمس قلوب قومه لمسة تاريخية حينما ذكّرهم بمن كان قبلهم من الأحزاب والأقوام الكافرة، ثم انتقل بهم إلى المستقبل ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ... ﴾ نخوفهم المؤمن من مشاهد وأهوال يوم القيامة، ودعاهم للنجاة، ثم ذكرهم بيوسف عليه السلام والذى حكم مصر فترة من الزمن، وخرج بالبلاد من ضائقتها الاقتصادية إلى الرخاء والخصب ومع ذلك ما إن مات حتى فرحوا بذلك وقالوا : لن يبعث الله من بعده رسولاً .
وعندما توجه فرعون إلى هامان وطلب منه بناء صرح ليبحث عن إله موسى فى السماء، لم يتوقف الرجل المؤمن بل قدّم

لهم خلاصة دينه وركز فى تعريفه على العقيدة ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ .
ثم لم يبق إلا ختام البيان الدعوى بالخاتمة المناسبة: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾، لقد كان الرجل المؤمن مع الله عز وجل وفوّض أمره إليه، فوقاه الله مكر فرعون، وأوقع بفرعون وقومه فى عقابه ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ... ﴾{٤٥-٤٦}، ثم بينت الآيات كيف أن فرعون ومن معه يتحاجون مع أهل النار، ويطلبون من خزنتها أن يخفف عنهم ربهم يومًا من العذاب.

وبعد عرض المصير المرعب للكافرين، أعقب السياق تلك القصة بالدعوة إلى التوحيد من خلال الآيات القرآنية وبعض الآيات الكونية، وحذر من عاقبة التكذيب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ... ﴾{٥٦-٥٧}، فقد قطع الحجة على المجادلين في آيات الله، لأن الذي خلق السماوات والأرض هو من أنزل هذا القرآن، ففيم المجادلة إذا؟! وانظر هذه الدعوة الكريمة إلى التوحيد: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾، فكما أنه تعالى هو منزل القرآن، وهو الذي سخر الليل والنهار للإنسان، وهو ذو فضل على الناس، فهو وحده إذا المستحق للدعاء والعبادة .
و قبل الخاتمة حذر السياق من التكذيب بآيات الله تعالى الكونية والقرآنية ببيان مصير المكذبين يوم القيامة : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ... ﴾{٦٩-٧٣}.

لنصل إلى الخاتمة وقد أعادت التحذير من التكذيب بآيات الله القرآنية: (فاصبر) والأمر يؤكد أن عقابه سيطول الكافرين، وحذرت من التكذيب بآيات الله الكونية ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ... ﴾{٧٩-٨١}. وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أن منزل هذا القرآن هو غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، وأنه شديد العقاب ذو الطول لمن كفر، ختمت بالتحذير من التكذيب بآيات الله من خلال بيان مصير المكذبين، وأنهم لو آمنوا قبل العذاب لغفر الله لهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ...﴾{٨٣-٨٥}.

•سورة «فصلت»

المراد من وصف القرآن بـ"كتاب فصّلت آياته" أن آيات القرآن واضحة الأغراض لا تلتبس إلا على مكابر، في دلالة كل آية على المقصود منها، وفي مواقعها وتمييز بعضها عن بعض في المعنى، باختلاف فنون المعاني التي تشتمل عليها، ومن كمال تفصيله أنه بلغة كثيرة المعاني، واسعة الأفنان، فصيحة الألفاظ، فاسم السورة يدل على أن القرآن قد فُصّلت فيه الحجج والبراهين ولم يدع مجالا للشك أو الظن .

هذه السورة تبين أثر القرآن الكريم في حياة البشر بجميع تصوراتها، وتشير إلى أن القرآن هو دستور الحياة الإنسانية الكريمة، وهذا يدل على كمال علم منزل هذا القرآن، ويدل أيضا على أن العلماء هم من حملهم إيمانهم بهذا القرآن على الاستقامة على طاعة الله، كما وأن السورة تبين قضية العقيدة بحقائقها الأساسية: (الإلهية الواحدة - الحياة الآخرة - الوحى - الدعوة إلى الله وخُلق الداعية)، وعلى ذلك كله دل اسمها (فصلت) الذي وصفت به آيات هذا القرآن.

فمحور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان عظمة الله تعالى منزل الآيات القرآنية، وخالق الآيات الكونية، وبذلك يتحقق أن القرآن كتاب فصلت فيه آيات الترغيب والترهيب، وأنه بشير ونذير للناس .

جاء في مقدمة السورة ذكر لبعض مظاهر عظمة الله تعالى من خلال آياته القرآنية ﴿ حم ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ... ﴾{1-4}، ولاحظ اختصاص الاسمين الجليلين «الرحمن الرحيم»، وهما متلائمان مع ما جاء من التفصيل في بيان عظمة الخالق في هذه السورة، وذلك رحمة من الله بالعالمين، ودعوة لهم لكي يؤمنوا بالله الواحد.

وقد عرضت المقدمة عناد المكذبين مع إثبات الحجة عليهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ... ﴾{5-8}، ولاحظ التفصيل في قولهم، فقد وصفوا قلوبهم وآذانهم وحالهم.

ثم انتقلت الآيات إلى عرض بعض مظاهر عظمة الله من خلال الآيات الكونية :﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ... ﴾{9-11}، وقد فصّلت السورة في عرض أحداث هذه الأيام الستة، ليكون ذلك أدعى للإيمان .

ثم انتقلت الآيات إلى عرض مصير المكذبين والمؤمنين في الدنيا والآخرة، وبذلك يتحقق وصف القرآن بأنه فصلت آياته ليكون بشيرًا ونذيرًا ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ... ﴾{16-19}، ولاحظ التفصيل في بيان أن الرسل قد جاءتهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وهذا متلائم مع ما جاء من التفصيل في أساليب الدعوة إلى التوحيد.

ثمّ تبين الآيات قدرة الله ببيان عاقبة من اختار الضلال عن الهدى مثل عاد وثمود. وبيان عظمة الخالق الذي خلق عادًا بهذه القوة، إذ أخذتهم صاعقة العذاب الهون في الدنيا، ونجّى الله الذي آمنوا وكانوا يتقون.

وكذلكّ يخبر الله عن أعدائه الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، حتى أنهم إذا وردوا على النار وأرادوا الإنكار ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ثم عرضت الآيات مصير المكذبين في الآخرة: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ... ﴾{19-24}، وّ يبيّن الله ﷻ أيضا عقوبة الصحبة الفاسدة وجهد أهل الباطل فى تزيين الباطل ﴿ فزيّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ وكذلك صرفهم للناس عن الوحىْ ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾.

ولكي يكتمل التفصيل، عرضت الآيات مصير المؤمنين المستقيمين في الدنيا والآخرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ... ﴾{30-33}، وقد فصّل السياق في بيان صفاتهم، إذ كانوا يدعون إلى الله بالقول الحسن، ويعملون الصالحات، ويدفعون السيئة بالتي هي أحسن، ويصبرون على الدعوة، حتى استحقوا هذا الثواب العظيم.

فالسورة تفصّل في عرض عظمة الله منزل القرآن وخالق الأكوان، وتفصّل في عرض موقف المكذبين وموقف المؤمنين، ومصير الفريقين في الدنيا والآخرة، وبذلك يتحقق وصف القرآن بأنه (فصلت آياته)، وهو الوصف الذي اختير ليكون اسمًا للسورة

وأعادت الخاتمة التأكيد على رحمة الله في إنزال آيات الوحي على الأنبياء لدعوة الناس للتوحيد: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ... ﴾{45-46}، وعرض بعض مظاهر عظمة الله تعالى في خلقه الداعية إلى توحيده ﷻ ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ... ﴾{47-48}، وفصّلت في عرض موقف الإنسان من النعماء والضراء .

وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التوحيد من خلال آيات الله القرآنية للتأكيد على أنه ﷻ منزل القرآن، خُتمت بالدعوة إلى التوحيد من خلال آيات الله الكونية للتأكيد على أنه ﷻ خالق الأكوان ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ... ﴾{52-54} .

https://www.facebook.com/lydbroteam/

الجزء الخامس والعشرون

نستكمل جولتنا مع سور (آل حم) التي قال عنها ابن مسعود أنها ديباج القرآن: أي زينة القرآن كاللباس له يظهرن ما فيه من المعاني الجميلة ، وقد خُتمت سورة فصلت بالكلام عن الوحى، وبدأت به سورة « الشورى »، فالسورة جاءت بإثبات الوحي والرسالة، والدعوة إلى الإيمان والاستجابة لشرع الله تعالى، من خلال بيان بعض مظاهر حكمته تعالى في شرعه، فوحدانية الخالق، ووحدانية الرازق، ووحدانية المتصرف، تؤكد وحدة الوحي والمنهج، ووحدة قيادة البشرية في ظل تلك العقيدة، ولذلك فهي تأمر المؤمنين بالاجتماع على هذا الدين، الذي روح أمره الألفة بالمشاورة المقتضية لمساواة العباد في الأحكام وفي عبوديتهم للشارع سبحانه، ولما كانت السورة تتكلم عن الوحي و سميت بالشورى فكأن الله ﷻ يعلمنا أن الشورى ليست إتباعاً للهوى و إنما تكون الشورى في دائرة الوحي .

بدأت مقدمة السورة بعرض موجز لبعض مظاهر حكمة الله تعالى في شرعه :﴿حم ۝ عسق ۝ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ... ﴾{١-٦}، فخالق السماوات والأرض ومدبر أمرها وحافظها من التفطر، هو الذي أوحي إليك وإلى الرسل من قبلك بالحكمة، وبذلك تجتمع آيات الوحي والآيات الكونية على الدلالة على حكمة الخالق سبحانه، فلا يجوز اتخاذ غيره وليًا، وهو سبحانه الذي أوحي إلى النبي ﷺ بالقرآن العربي لينذر يوم الجمع، وليكون حكمًا بين الناس: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ... ﴾{١٠}.

ثم انتقل السياق إلى التفصيل في عرض بعض مظاهر حكمته تعالى في شرعه الحكيم: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... ﴾{١٣}، فمنزل الوحي على الأنبياء والرسل واحد سبحانه، وينبغي أن يجتمع الناس على شرعه ، فأمر السياق النبي ﷺ والمؤمنين من بعده بالتزام شرع الله :﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ... ﴾{١٥}، وقد قرّعت الآيات المشركين الذين يتبعون أهواءهم، ويعرضون عن شرع الله الحكيم: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ...﴾{٢١}، والله تعالى بحكمته لم يعجل إليهم عذابهم، بل أجلهم ليوم القيامة، ولكي لا يتطرق الشك لأحد في آيات الله، بيّن السياق أن النبي ﷺ ليس له دور إلا التلقي عن الله ما يوحى إليه من الحكمة :﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ... ﴾{٢٤}.

ثم جاء بعد ذلك عرض بعض مظاهر حكمة الله تعالى في خلقه : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ... ﴾{٢٧-٢٩}، فتوزيع أرزاق العباد من أعجب دلائل حكمة الله تعالى، فهو ينزل الرزق بقدر

ليحفظهم من البغي، وينزل بحكمته الغيث متى شاء وأين شاء.

وتحدثنا السورة أن هناك نوعان من الرزق: رزق للدين و رزق للدنيا، فرزق الدين خاص لأهل الإيمان و هذا أفضل أنواع الرزق، و رزق فى الدنيا للناس عمومهم مؤمنهم و كافرهم، وسنن الله فى إعطاء رزق الدنيا غير سننه فى إعطاء رزق الدين، فذكر الله نموذج لعطاءات الدنيا ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ.. ﴾ فهذا العطاء الدنيوي بإرادة الله و لكن ليس له سبباً من أسباب الدين فقد يكون للكافر أو للمؤمن، ثم ذكر الله نموذج للرزق الديني وهو الدعوة إلى الله والأمر بتبليغ الوحي للناس ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ... ﴾، وحتى لا تظن أن أحد يحصل على الرزق بعيداً عن قدرته أو بعيداً عن علمه ﷻ، يقول تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالملك ملكه سبحانه يرزق من يشاء و يمنع عن من يشاء .

ثم تبين الآيات أن رأس الحكمة اتباع شرع الله الحكيم وإيثار الآخرة على متاع الدنيا : ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ... ﴾{٣٦-٤٠} فهذه بعض مظاهر حكمة الله في شرعه، وأهمها الشورى؛ لأنها تجمع المؤمنين على الحق والخير والصلاح.

ولكي يكتمل عرض مظاهر حكمة الله، بيّن السياق مصير الظالمين المعرضين عن حكم الله الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وبيّن استهزاء المؤمنين بهم حيث كانت الشورى تجمع المؤمنين وأهليهم في الدنيا على الحق، حتى سلموا يوم القيامة من العذاب، كذلك كان الظالمون وأهلوهم يعرضون عن تطبيق شرع الله، فاستحقوا العذاب.

لنصل إلى الخاتمة وقد أعادت التذكير بأن الحكمة هي التزام شرع الله: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ...﴾{٤٧} . و

كما افتتحت السورة ببيان أن الله العزيز الحكيم هو من يوحي إلى النبي ﷺ وإلى الذين من قبله بالشرع الحكيم، ختمت ببيان أن الله بحكمته يختار من الرسل من يشاء، وأن ما أُوحي إلى النبي هو الحكمة، وكل الحكمة باتباعه ﷺ : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ...﴾{٥١-٥٣}. وهنا سُمى الله القرآن روحًا للدلالة على أنه لا تستقيم حياتنا من دون القرآن كما لا تستقيم الأبدان من دون الأرواح ، وهذا من ولاية الله لأهل الإيمان أن أنزل عليهم القرآن ،وأخرجهم به من الظلمات إلى النور .

ومن منظومة آل حم سورة (الزخرف)

وفيها بيان القيم القرآنية الصحيحة و نقض التصورات الجاهلية الفاسدة . فبعد أن استمر الكافرون على مر العصور من بداية فرعون و ملئه وجدالهم لمؤمن آل فرعون في سورة غافر، ثم جدالهم فى سورة فصلت و لغوهم حين تلاوة القرآن، ثم تتابع نزول آيات الوحى فى سورة الشورى مما اضطر الكافرين إلى محاربة الدين بمناهج مضادة للقرآن، ولكن بقوة ولاية الله و تشاور المؤمنين ووحدتهم لم ينجح منهج الكافرين فاضطروا لزخرفة مناهجهم، وإثارة الشبهات ليضلوا الناس بزخارف الدنيا.

وسميت السورة بهذا الاسم لما فيها من التمثيل الرائع لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع بالزخرف الذي يخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولهذا يعطيها الله للفجار والأبرار، لكنه لا يمنح الآخرة إلا للمتقين، ولما كان ما هيّأه الله من مقومات وأسباب الزخرف في الدنيا يُفترض أن يكون دالًا على الرحمن سبحانه، لا أن يكون سببًا للكفر أو الإشراك به ، سُميت السورة به لبيان أنه ليس معيار التفاضل عند الله ، بل المعيار هو الإيمان والتقوى .

جاء في مقدمة السورة بيان أن الآيات القرآنية والآيات الكونية المسخرة للإنسان تدلان على رحمة الله عزوجل ، فينبغي أن تكون داعية للإيمان والتوحيد ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ... ﴾{١-٨}، فالقرآن نزل بلغة العرب، فهو بين الدلالة على منزّله سبحانه ، ولاحظ رحمة الله إذ أرسل إليهم الرسول ومعه آيات الوحى مع كونهم قومًا مسرفين في المعاصي. أما الآيات الكونية ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا .. وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ... وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ ..﴾{١٠-١٤}، فهم مع ايمانهم بوجود الله واقرارهم برحمته المتجلية في آياته، إلا أنهم يشركون معه آلهة أخرى .

ثمّ انتقل السياق إلى بيان موقف الكافرين العجيب بعدما عاينوا آيات الله إذا هم يشركون به، وينسبون له البنات سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ... ﴾{١٥-١٧}، وزعموا أيضا أن الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناث، وعبدوهم من دون الله، وزعموا أن هذا هو هدي آبائهم ولن يغيروه، فانظر ماذا كان الرد الإلهي عليهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾{٢٣}، ولاحظ تخصيص المترفين بالذكر ، لأنهم أنساهم زخرف الدنيا عن الرحمن سبحانه، حتى ضلّوا عن السبيل، ولكي تكتمل إقامة الحجة عليهم، ذكرت الآيات الموقف الحقيقي لإبراهيم عليه السلام، الذي يزعم العرب أنهم ينتسبون إليه في دينهم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ..﴾ {٢٦-٣٠}، فقد كان موحدًا مخلصًا لله تعالى، وأوصى ذريته بالتوحيد.

وتبين الآيات أن متاع الدنيا وزخرفها هو الذي قاد الكفار إلى التكذيب بالرسول مع أنه يدعوهم إلى الحق، ومما يؤكد ذلك أنهم طلبوا أن ينزل القرآن على رجل عظيم من إحدى القريتين : مكة أوالطائف، ولم يعلموا أنها - أي الرسالة - رتبة روحانية تستدعي عظم النفس بالتحلي بالفضائل ، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية.

ثم انتقل السياق إلى بيان مظهر آخر من مظاهر رحمة الله تعالى بالإنسان :﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ... ﴾{٣٣-٣٥}، فلو شاء سبحانه أن يفتح على الكافرين أبواب الدنيا وزخرفها إلى درجة أن تكون سقف بيوتهم وأبوابها وسررهم من فضة، وأن تكون لهم معارج فخمة يظهرون عليها على الناس لفَعل، ولكنه رحمة بالضعفاء الذين سيُفتنون بهذا الزخرف إلى الكفر لم يفعل ذلك، وقسّم معيشة الناس حسب حكمته .
ثم حذر السياق من استغلال الشيطان زخرف الدنيا ليشغل الإنسان به عن ذكر ربه تعالى ، ولن ينفع الإنسان يوم القيامة التبرؤ من الشيطان إذا مات على كفره و شركه .

وتنتقل الآيات إلى قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه الذين أنساهم زخرف الدنيا الرحمنَ سبحانه، وكذبوا رسوله موسى حتى أغرقهم الله، ومما يؤكد ذلك قول فرعون في هذه السورة الذي لم يتكرر في القرآن : ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ... ﴾{٥١-٥٦}، فموقف فرعون مشابه تمامًا لموقف المشركين حينما طلبوا أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم.

وعرضت الآيات انحراف آخر لدى البشر وهو الشرك ، فالله تعالى هو المنعم، وبالتالي هو وحده المستحق للعبادة ،فجاءت الآيات بحقيقة عيسى عليه السلام كونه أكثر شخصية دارت حولها فريات الشرك لإبطاله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾{٥٧-٦١}، فقد ظن المشركون - بجهلهم - أن عبادة الملائكة أقرب إلى الله من عبادة عيسى عليه السلام، لاعتقادهم أن بين الله تعالى وبين الملائكة نسبًا، وبما أن السورة قد فندت فريتهم في بدايتها، أكدت تفنيدها هنا مرة أخرى، فليست الملائكة آلهة، ولا عيسى كذلك .

وليكتمل الترغيب والترهيب، عرضت السورة مصير المؤمنين والكافرين يوم القيامة، فالمؤمنون في الجنة يطاف عليهم بصحاف وأكواب من ذهب، وقد تحقق لهم الزخرف الأخروي الأبدي، بينما المكذبون المجرمون في عذاب جهنم خالدون، وما حصل لهم ذلك إلا لأنهم ظلموا أنفسهم حينما تلهّوا بالدنيا وزخرفها عن الإيمان بالله وأشركوا معه آلهة أخرى.

لنصل إلى الخاتمة وقد قد أعادت الدعوة إلى التوحيد وبيان بطلان الشرك، والتحذير من أن تقودنا الدنيا وزخرفها إلى كفر المنعم أو الإشراك به :﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ... ﴾{٨١-٨٥}.

وكما افتتحت السورة بذكر الآيات القرآنية وما سخره الله للإنسان من الآيات الكونية لبيان دلالتها على الله ، ختمت بالتحذير من التكذيب بهذه الآيات مع أنهم يُقرون بفضل الله عليهم، ولكنهم يكذبون رسله ويشركون معه آلهة أخرى: ﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ ... ﴾{٨٦-٨٩}.

•سورة «الدخان»

يعود اسم السورة إلى حديثها عن تهديد المشركين بآية الدخان، وهى إما أن تكون آية ناتجة عن دعاء النبي ﷺ على قريش بسنين عجاف، حتى أصبح أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة دخان من الجهد والعناء، وإما أن تكون لوناً من ألوان عذاب الكافرين يوم القيامة، وعلى كلا المعنيين تكون آية الدخان دالة على قدرة الله تعالى على إهلاك المكذبين والبعث والجزاء.

محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بما يدعو إليه النبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن، وبيان كمال قدرة الله تعالى على إهلاك المكذبين -بعد الإنذار بالآيات- والبعث ثم الحساب .

تبدأ المقدمة بإنذار المكذبين بآية الدخان كونها دالة على قدرته تعالى على العذاب يوم القيامة، وجاء فيها دعوة إلى الإيمان بهذا القرآن وما فيه من الإخبار عن كمال قدرة الله تعالى : ﴿حم ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ... ﴾{١-٨}، فالذى أنزل القرآن هو رب السماوات والأرض وما بينهما وهو الله القادر على البعث.

وقد بينت الآيات في المقابل موقف المكذبين: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ... ﴾{٩-١٢}.

ثم انتقلت السورة إلى عرض قصصي يؤكد قدرة الله تعالى على إهلاك المكذبين : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ... ﴾{١٧-٢٣}، فالآيات التى أنذر بها موسى عليه السلام قومه ودعاهم بها إلى الإيمان، مشابهة لآية الدخان التى أُنذر بها قوم النبي ﷺ، ثم ذكرت دعاء موسى عليهم، المشابه لدعاء النبى ﷺ على قريش وقد استجاب الله لموسى وبشره بالفرج وإهلاك المجرمين.

ثم انتقل السياق إلى تعقيب يبين قدرة الله تعالى على البعث، بعد بيان قدرته على إهلاك المكذبين: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ... ﴾{٣٤-٣٩}، ثمّ الرد عليهم ببيان مصارع المكذبين، وكما أن الله هو خالق السماوات والأرض بالحق فهو قادر على بعث الجميع يوم القيامة.

وأعادت الخاتمة التأكيد على قدرة الله تعالى على البعث والجزاء، ببيان مصير المكذبين في ذلك اليوم ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ...﴾{٤٣-٥٣}، ووصف مصير المتقين بالمقام الآمين ، لأنهم لما آمنوا بالآيات الدالة على قدرة الله على إهلاك المكذبين استعدوا للقاء الله بالعمل الصالح فأمّنوا أنفسهم من العذاب (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ) .

وختمت السورة بأمر النبي ﷺ بالصبر على دعوة الناس بهذا القرآن، وأمرته بارتقاب إهلاك المكذبين إن اصروا على تكذيبهم، وما سيصيرون إليه يوم القيامة ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ .

سورة « الجاثية »

سميت السورة بهذا الاسم، لتبين حال الأمم يوم القيامة "وترى كل أمة جاثية " إذ إنها ستجثو كل أمة بين يدي ربها الجبار ذي الكبرياء والعظمة، لتنال كل أمة جزاءها العادل بكل خضوع واستسلام وخوف، وستحاسب كل أمة بعملها، وذلك يدل على قدرة الله على البعث والجزاء، وتسمى بسورة الشريعة، و فيها آيات قدرة الله عزوجل، ليقول الله أن الذى خلق هذا الكون بلا عيب أو نقص قادر على أن ينزل شريعة لا عيب فيها ولا نقص .

بدأت السورة بذكر من أعرض عن آيات الله بسبب الكبر ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ ، وختمت أيضا بذكر الكبرياء ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وذلك لضبط عقيدة المؤمن فى ربه و فى أسمائه و صفاته ، وألا يتعدى كونه عبد .

وتحوي مقدمة السورة بعض الآيات الكونية والقرآنية، لترفع عينك فى السماء والبحر وتتفكر فى قدرة الله سبحانه وملكوته، ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾{٣-٥}، ثم انتقلت الآيات الى بيان حال الفريق الأول من الناس تجاه الإيمان بعظمة الله وحكمته ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ... ﴾ {٧-١١}، ولاحظ أن الآيات ذكرت المصير الأخروي لهذا الفريق، إذ أنه أحد الأمم الجاثية في ذلك الموقف.

وقبل الانتقال للفريق الثاني أعادت السورة ذكر آيات الله الكونية الدالة على عظمته تعالى، ثم أمرت المؤمنين المستضعفين بالصبر على المكذبين ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ... ﴾{١٤-١٥}،

والتناسق بين تلك الأدلة وأمر المؤمنين واسم السورة واضح، فهو سبحانه مع عظمته يمهلهم لكن لا يهمل حسابهم، وسيرى المؤمنين بأن هؤلاء المكذبين سينالون جزائهم في اليوم الذي سيجثون فيه بين يدى الله.

ثم انتقلت الآيات إلى الفريق الثاني وهم أهل الكتاب الذين من الله عليهم، و لكنهم كفروا ببينات الله و آياته ولم يتبعوا شريعته فسيقضى الله بينهم يوم القيامة بقدرته عليهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ...﴾ {16-١٧}
أما الفريق الثالث فهم الأمة الإسلامية متمثلة بقيادة سيدنا محمد، الذين إستبدل الله بني إسرائيل بهم ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ... ﴾{١٨-١٩}، فأمرت السورة النبي باتباع شرع الله تعالى، وبينت أن الله ولي المؤمنين المتقين، وأن الأمة الإسلامية إحدى الأمم الجاثية في موقف القيامة، ثم يدخل الله من آمن وعمل صالحا منهم في رحمته، وذلك هو الفوز المبين .
ولاحظ التعقيب على ذكر الفرق الثلاثة بما يؤكد حقيقة مشهد جثو الأمم يوم القيامة مع بيان عظمة الخالق سبحانه : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾{٢١-٢٢}
ثم انتقلت الآيات إلى الفريق الرابع ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ... ﴾{٢٣}، كل من ابتعد عن شريعة الله فيضله الله ويصرفه عن الهدى ويجعله فى الدنيا حيران .
وبقي الفريق الخامس، وهم الدهريون المنكرون للحياة الآخرة: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ... ﴾{٢٤-٢٥}

ثم تأتي الخاتمة، وفيها بيان حال تلك الفرق جميعا يوم القيامة في مشهد الجثو بين يدي الله، ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة على مدى الأجيال واختلاف الأجناس فريقين اثنين : الذين آمنوا والذين كفروا ، فهاتان هما الرايتان الوحيدتان عند الله، وهذان هما الحزبان : حزب الله وحزب الشيطان، وما عدا ذلك من الملل والنحل والأجناس والأمم فإليهما يعود ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ...﴾{٢٧-٢٨}
وتصف الآيات الله تعالى بصفات عظيمة ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ {٣٦-٣٧}، وهكذا يلتقي ختام السورة مع مفتتحها الذي بين عظمة الله وحكمته.

الجزء السادس والعشرون

• سورة « الأحقاف »

نفتتح هذا الجزء بآخر سورةٍ من (آل حم): سورة الأحقاف، وهي سورة مكية. ولكن ما هي الأحقاف؟ هي ديار عاد، فيُلاحَظ من دلالة اسم السورة، أنّ في ذكر موقع مساكنهم التي دُمرت ويعرفها العرب جيداً، مزيدٌ من التهديد والترهيب لهم، لأنهم كانوا مشركون أيضًا، وإشعارٌ بأن إنذارات القرآن متحققة. ولذا فإن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد وتصديق الرسول كونهُ أحد الرسل الذين أرسلهم الله للعالمين مبشرين ومنذرين، وإقامة الحجة على المكذبين وإنذارهم بالعذاب وقد تكرر فيها لفظ الإنذار.

جاءت المقدمة بذكر حِكمة مُنزِل الكتاب سبحانه وكمال قدرته، وذِكر خلق السماوات والأرض بالحقّ وهي من الآيات الكونية الدالة على عظمته سبحانه، مع بيان بطلان ما يعبده المشركون: ﴿... قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ {١-٥}.

وبعد أن ذكرت المقدمة إعراض أهل مكة عن الله سبحانه وتعالى، ذكرت إعراضهم عن القرآن: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وإعراضهم عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتنفي الآيات فِرية اتهامه -صلى الله عليه وسلم- بالسحر، وتنفي عنه فرية افتراء القرآن، وتأكّد أنه ليس بدعًا من الرسل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ...﴾ {٧-٩}.

ثمّ تنقل الآيات قولًا آخر من أقوال المشركين وهو كلامهم في إنكار البعث وجدالهم، وتعرض موقفين مُتقابلين للبشر من قضية تصديق النبي وتصديق رسالته:

فكان أولهما (موقف المؤمن الشاكر): ﴿ ... حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ...﴾ {١٥}، ثمّ بيّنت الآيات جزاءه وثوابه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ...﴾ {١٦}، وقد قيل أنّ الآية (حتّى إذا بلغ أشدّه...) نزلت في أبي بكر الصديق، وقال آخرون أنها نزلت في **سعد** بن أبي وقاص -رضي الله عنهما-.

وكان الموقف الثاني (موقف الكافر بالله تعالى وبالآخرة): ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ...﴾ {١٧-١٨}.

وبعد ذلك عرضت الآيات موقفين من قضية الإيمان بالله ورسالاته، أولهما في قصة (الأحقاف)، وهي تمثل نموذجًا تحذيريًا للمشركين: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ...﴾{٢١-٢٣}، ثم بيّنت الآيات مصير أهل الأحقاف المكذبين: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ...﴾{٢٤-٢٥}. ثم جاء التعقيب الإلهي على القصة محذرًا الكفار: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ...﴾{٢٧-٢٨}.
والموقف الثاني موقف (النفر من الجن)، الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ حين سماعهم للقرآن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ...﴾{٢٩-٣٢}. وقد كان ذكرهم بمثابة نموذج الإيمان المقابل لنموذج الكفر المتمثل بأهل الأحقاف، ولاحظ أنهم استشهدوا على صدق القرآن بصدق كتاب موسى عليه السلام، وهذا يؤكد أن النبي ليس بدعًا من الرسل، وانظُر كيف أنهم لم يكتفوا بالإيمان المجرّد، بل رجعوا إلى قومهم داعين إياهم إلى الإيمان بالنبي ﷺ وبالقرآن .

ونصل إلى ختام السورة، والتي أعادت التذكير ببعض مظاهر قدرة الله في الخلق. وكما افتُتحت السورة بدحض باطل المشركين وحذرتهم من الإصرار عليه، ختمت كذلك بالتحذير ذاته، وبيان أن النبي ليس أول رسول يُبعث حتى يستغربوا رسالته وهو مأمور بالصبر كما صبر الرسل مِن قبله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ...﴾{٣٥}.

ختمت سورة الأحقاف بقوله تعالى: ﴿فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون﴾، وبدأت سورة محمد بـ: ﴿ الذين كفروا وصدّوا ﴾، وهذا تلاحم بحيث أنه لو أُسقطت البسملة بين الآيتين لكانت كآيةٍ واحدةٍ متصلة.

• سورة « محمد »

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى نبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ، المرسَل بالحق من الله تعالى، وما نتج عن بعثته من انقسام الناس لفريقين: فمنهم كافرُون أضل الله أعمالهم في الدنيا وحرمهم الأجر في الآخرة، ومنهم مؤمنون هداهم الله فأصلح بالهم في الدنيا والآخرة. ولأنه ﷺ نبي الملحمة، سُميت السورة أيضًا بسورة (القتال)، فبدأت بقتال المشركين وخذلانهم وإبطال أعمالهم، وخُتمت بالأمر ذاته. وبذلك يكون محور السورة هو الصراع بين المؤمنين والكافرين، سواء كان ماديًا يسّعّره الكافرون أو خفيًا يدبره المنافقون، ولذلك تعرض السورة ملامح شخصيات أعداء الدين وملامح شخصية المؤمنين المتبعين لمنهج النبي ﷺ.

تبدأ السورة الكريمة بإعلان الحرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول فيها: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، ثم تعرض الآيات بإيجاز موقف رؤساء الكفر وأئمة الضلال وتبيّن مصيرهم للتحذير منه، وموقف المؤمنين وجزاءهم للترغيب فيه {١-٣}.
ثم يأتي أمرٌ صريح للمؤمنين بخوض الحرب ضدهم في صيغةٍ رنانة قوية: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ..﴾{٤-٧}، فيرشدهم الله إلى ما فيه صلاحهم ونصرهم على أعدائهم؛ فاضربوا منهم الأعناق، حتى تكسروا شوكتهم، فإذا فعلتم ذلك ورأيتم الأسر أولى وأصلح فلتشدوا منهم الوثاق حتى تطمئنوا. ثم يلي ذلك عرض مفصّل لموقف الكافرين والمنافقين ومصيرهم للتهوين من شأنهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ..﴾{٨-١١}، ونلاحظ كيف ربط الله تعالى مسألة قبول العمل واحباطه بطاعة الرسول ﷺ.

وتمضي الآيات بعد ذلك في ألوانٍ من الحديث حول الكفر والإيمان، وحال المؤمنين وحال الكافرين في الدنيا والآخرة، وتفرّق بين متاع المؤمنين بالطيبات وتلذّذ الكفار بالنعم الدنيوية: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ... كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾{١٥}، فليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات، وسبحان من فاوت بين الدارين والجزاءين، والعاملين والعملَيْن.
ثم انتقلت الآيات للحديث عن فريقٍ آخر وهم المنافقون: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا..﴾؛ فهم يكرهون القتال خشية الموت، حتى استحقوا لعنة الله واستحقوا عقابه بأن يُعمي أبصارهم فلا يتدبرون القرآن ولا يلتزمون بما جاء فيه من أحكام.

وأخيرًا، نصل إلى خاتمة السورة التي أعادت توجيه المؤمنين لإطاعة الرسول وما يجب أن يكونوا عليه، وبيّنت موقف الكافرين ومصيرهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ..﴾{٣٣-٣٥}، كما جاءت بآية تُحذر المؤمنين إن هم بخلوا بإنفاق المال، وبالبذل في القتال:﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ..﴾{٣٨}.

سورة محمد هي سورة القتال، وبعد القتال يأتي الفتح.

• سورة «الفتح»

سورة الفتح هي سورة مدنية نزلت في السنة السادسة من الهجرة، والمُرجّح أنّ (الفتح) كناية عن صلح الحديبية، حين صدّ المشركون الرسول ﷺ لما جاء مكة معتمراً مع أصحابه. ومن عظيم الخطاب القرآني وعظم الرسالة أن تسمّى هذه السورة بذلك، مع أنها تتحدث عن فترة هدنة وصلح، وهذا دليل على أنّ الإسلام يدعو للصلح ولا يدعو للحرب كما يصوّره البعض من ضعفاء النفوس. ولقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرسول : أفتحٌ هو؟ قال : "يا عمر، إنّه لفتح"، فقد كانت فترة الهدنة هذه من أهمّ الفترات في انتشار الرسالة، فكان فتحًا في الدعوة، وفتحًا في الأرض، إذ تم التخلص من يهود خيبر بعدها بقليل، وفتحًا لموقف المسلمين الذي ازداد قوة في جزيرة العرب.

وهي من أكثر السور التي ذكر فيها الصحابة بخير، لأنهم لمّا غضبوا بعد منعهم من العمرة كان غضبهم لله ورسوله وليس لأنفسهم فلما كانوا مخلصين جاء التفضّل عليهم من رب العزة بالمدح والثناء في هذه السورة الكريمة.

جاءت مقدمة السورة بامتنانٍ من الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه في ذلك الصلح، فأنزل الله السكينة عليهم وزادهم إيمانًا في قلوبهم. ولم يقتصر الامتنان الإلهي على المؤمنين في حال الدنيا فقط، بل امتد إلى الآخرة أيضا: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ...﴾{٥}، وبينت المقدمة أيضًا الصورة المقابلة للمؤمنين الصادقين، وهم المنافقون والكافرون: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ..﴾{٦-٧}. وقد امتدحت المقدمة رسول الله ﷺ وبينت الموقف السليم الذي يجب أن يكون عليه المؤمنون تجاهه ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ..﴾{٨-٩}، وقد كان من تعزير المؤمنين لنبيهم وتوقيرهم له ﷺ أنهم ثبتوا معه حين عقد الصلح ولم يستمروا في جداله فيه بسبب بعض البنود المجحفة للمؤمنين فيه. ثم عادت الآيات لتؤكد أن صدق الثبات مع النبي ﷺ والثقة به يورثان الأجر العظيم من الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ..﴾{١٠}.

ثم انتقلت الآيات إلى بيان موقف المخلفين من الأعراب، الذين لم يخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى أداء العمرة، ومن تحصيل ما ترتب على صلح الحديبية من رضا الله وتهيئة نصره: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ..﴾{١١-١٣}. وبيّنت الآيات أنهم جبناء إذا علموا قتالًا، ومبادرون إذا علموا بوجود الغنائم، يريدون أن يبدلوا كلام الله الذي نزل وحكم بأن لا يخرج لقتال يهود خيبر وأخذ غنائمهم إلا من خرج مع النبيﷺ وكان معه في الصلح. ولكن الله عز وجل منحهم فرصة أخرى ليتوبوا:﴿... فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾{١٦}، وقد ترتّب على الطاعة -الدالة على صدق الإيمان والثقة- الأجر الحسن من الله، والعذاب الأليم لمن تولى منهم، وقد استثنى الله تعالى من هذا الحكم أصحاب الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض.

إذا فالحديث عن موقف المخلفين أكمل الصورة في بيان فضائل الثبات على صدق الإيمان والثقة بالله وبرسوله ﷺ، فمن كان صادق الإيمان فله الرضى والنصر من الله، ومن تولى وجبن بلا عذر فله الحرمان من النصر والغنائم، وفوق ذلك العذاب في الآخرة.

..

وقد بينت الآيات هوان الكفار وجبنهم، فهم لو قاتلوا المؤمنين لوَلَّوْا الأدبار، ومن خيرات هذا الصلح أن الله قد كفى المؤمنين القتال بعد أن أظفرهم بطليعة من أربعين رجلًا من الكفار، ومنه أيضاً أنه لما منع المؤمنون من الهجوم على مكة، كان في ذلك حماية لمن كان قد آمن فيها ولم يميز من الكافرين، فقد كان احتمال قتل أناس بالخطأ من هؤلاء المؤمنين واردة. فهذه من الخيرات العظيمة التي أكرم الله بها المؤمنين الصادقين يوم صلح الحديبية، بالإضافة إلى نيل رضاه.

وأخيرًا، جاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، فأعادت ذكر فضائل هذا الصلح، وأكّد الله لهم صدق هذه الرؤيا، ونبّأهم أنها منه، وأنها واقعة ولا بد. وأن وراءها ما هو أكبر من دخول المسجد الحرام أيضاً -فتح مكة- : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ..﴾ {٢٧}. وكما افتتحت السورة ببيان فضل الله تعالى على النبي ﷺ وعلى المؤمنين الصادقين في إيمانهم وثقتهم، وكيفية تهيئة أسباب النصر لهم، اختتمت السورة بالمقصد ذاته :﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..﴾ {٢٨-٢٩}.
﴿واختتمت السورة بتلك الصورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله ﷺ ، وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة المؤمنة السعيدة التي رضيَ الله عنها، وبلغها رضاه فرداً فرداً: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾.

• سورة «الحجرات»

ثمّ بعد الفتح و زيادة عدد المسلمين فى عام الوفود تأتي سورة الآداب العامة ليُختتم بها الجزء. وتتحدث السورة عن أدب العلاقات والتعامل مع الرسول، وتركّز على الرقي بالمجتمع المسلم لكمالات الإيمان والأخلاق، بعد كثرة الذين أسلموا، فكأنّما أراد الله تعالى أن يجمع لهم صفات العبادة والعمل مع الصفات الخلقية والذوقية حتى يكونوا أهلاً للفتح من عند الله تعالى.
وسُميت السورة بذلك نسبةً إلى حادثة قدوم وفد (بني تميم) في العام التاسع من الهجرة -الذي سُمي عام الوفود- فقام جماعة منهم بمناداة الرسول ﷺ من وراء حجراته بصوت عالٍ وباسمه الصريح، فاسم السورة "الحجرات" يحذر من هذا الفعل الذي فيه إساءة أدب مع النبي ﷺ.

تبدأ مقدمة السورة مُبينةً بعض الأخلاق الخاصة تجاه النبي ﷺ، فافتُتحت بتوجيه المؤمنين لعدم إبرام أمر من الأمور قبل نزول الوحي على رسولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ..﴾{١-٣}، وقد قدمّت السورة ذكر هذا الأمر كونه أكثر التصرفات جرأةً على رسول الله ﷺ وعلى الوحي والشرع، وبينت أن التحلي بالأخلاق الحميدة في التعامل معه ﷺ من مظاهر تقوى الله عز وجل. ثم انتقلت المقدمة إلى ذكر حادثة بني تميم -السابق ذكرها- :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ..﴾{٤-٥}.

ثم انتقلت السورة إلى ذكر عدد من الأخلاق التربوية العامة في حق المجتمع المسلم، وكان أولها يتعلق بالقتال لخطورته، فقد حذرت من أن تكون الإشاعة سببًا في قتال أناس أبرياء بلا بينة، وأعادت ذكر فضل النبيّ ﷺ، فهو البار الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة، ولو أنه يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم، ولكنه يرشدكم، والله تعالى يحبب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم بما أودع فيها من محبة الحق وإيثاره، ويكرّه إليكم الذنوب الكبار والعصيان بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ..﴾{٧}.

ثم بيّنت السورة أدب الأخوّة بين المؤمنين، ووضعت منهجًا للإصلاح بين المتخاصمين، فأمرت أولًا بمحاولة الإصلاح بين الفئتين المتخاصمتين، فإن أبت إحداهما أو بغت قوتلت من قبل المجتمع المسلم حتى ترجع إلى أمر الله، فإن رجعت عادت محاولة الإصلاح بينهما على أساس من العدل والقسط. وانظر إلى هذا الأمر: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فهو عقدٌ عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان في مشرق الأرض ومغربها: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإنه أخٌ للمؤمنين أخوةً توجب أن يحبّ له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم.
ثم انتقلت الآيات بعد ذلك إلى التحذير والنهي عن السخرية، وعن اللمز والتنابز بالألقاب، وأمرت باجتناب الظن، ونهت عن التجسس والغيبة، وهي أوامر موجهة للرجال والنساء على حد سواء، وقد ذُكر الاسمين الجليلين: العليم الخبير، وهما متناسبان مع علمه تعالى بما يكون في داخل النفوس.

وأخيرًا، نصلُ إلى الخاتمة التي أعادت التحذير من سيئ الأخلاق مع الله ومع رسوله ﷺ، وذكرت مثالًا على ذلك مما قام به الأعراب: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ..﴾{١٤-١٧}، فهم يكذبون ويظهرون الإيمان، والحقيقة

أنه لم يدخل في قلوبهم، ولا يكتفون بذلك بل يمنون على النبي ﷺ إسلامهم، والحقيقة أنه مِنَّة من الله تعالى عليهم! وفي ذلك تنبيهٌ إلى أنّ المقياس الحقيقي للناس هو مقدار الإيمان الذي في قلوبهم.

وكما افتتحت السورة بتربية المؤمنين على الرقابة الداخلية في نفوسهم من الله عزوجل، وذكرت بعض مظاهر تمام علمه تعالى بما في النفوس، خُتمت بالمقصد ذاته: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ {١٨} .

•سورة «ق»

نصل إلى ختام الجزُء مع سورةٍ تثبت براهين قدرة الله تعالى على البعث، وتذكر بعض مظاهر علم الله الحفيظ فيما يتعلق بالدنيا والآخرة، كما تتحدث عن حجاب الغفلة الذي يحجب الإنسان عن الآخرة.

تبدأ السورة بمقدمة تثبت حقيقة البعث يوم القيامة، فافتُتحت السورة بالقسم على قدرة الله تعالى، وأقسم الله تعالى بالقرآن الكريم الذي حوى علوم الأولين والآخرين على البعث، ولكنّ أكثر الناس لا يقدّر نعم الله "بَلْ عَجِبُوا" فكان استغرابهم دلالة على مدى جهلهم وضعف عقولهم؛ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾، وكشفت حقيقة المشركين وبعدهم عن الحق، فالحق هو النقطة الثابتة التي يقف عليها فلا تتزعزع قدماه، ودعتهم الآيات إلى النظر إلى الآيات الكونية لكي يعتبروا، فالسماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذي فارقوه، ثم دعتهم للنظر إلى الأرض؛ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ... ﴾{٦-٩}، فهذه تبصرة تكشف الحُجب، وتنير البصيرة، وتفتح القلوب.

ثم تستمرّ الآيات بعرض صفحات من كتاب التاريخ البشري بعد عرض صفحاتٍ من كتاب الكون، تنطقُ بمآل المكذبين الذين خالفوا وجادلوا في قضية البعث، فحقّ عليهم وعيد الله: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ...﴾. وفي ظل هذه المصارع، تعود الآيات إلى قضية البعث من جديد، فيسأل سُبحانه: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾؟ .. والخلقُ شاهد حاضر، فلا حاجة إلى جواب!

ومن مظاهر علم الله الحفيظ فيما يختص بالإنسان -في الدنيا والآخرة-، ففي الدنيا: خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه ووكّل عليه ملكين يسجلان أقواله وأعماله، وفي الآخرة: جعل لكل نفسٍ ملكيْنِ موكّلين به أحدهما يسوقها إلى الله، والآخر يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شرّ.

وقد ذكّرت الآيات بحقيقة الموت، فهو أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغ منه، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص، ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾. ثمّ تنتقل المشاهد من سكرة الموت إلى وهلة الحشر وهول الحساب، ويكفي استحضار هذا المشهد في النفس لتقضي رحلتها كلها على الأرض في توجّس وحذر وارتقاب. ثمّ وفي لحظة الحساب، يتبرأ المتبوع من التابع: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾، فربما كان القرين هنا هو الشيطان الموكل به ليغويه.

وعلى الضفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر رضي جميل؛ إنه مشهد الجنة، تقرب من المتقين، حتى تتراءى لهم من قريب مع الترحيب والتكريم، ذلك لمن خاف الله في سره حيث لا يراهُ أحد إلا الله ولقي الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ... ﴾{٣١-٣٥}، فليدخلوها دخولًا مقرونًا بالسلامة من الآفات والشرور، مأمونًا فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم، ولا كدر ولا تنغيص. وفي تتابُع ذكر مصير الغافل والمتّقي حكمة، ليخبرك أيّ المصيرين تختار: جنةٌ أم نار؟

https://www.facebook.com/lydbroteam/

الجزء السابع والعشرون

• سورة «الذاريات»

سورة الذاريات هيَ سورةُ بيان أنّ الله هو الباعث، كما أنه هو الرازق. ويعود اسم السورة لوصف الرياح التي تذرو أسباب الرزق، فكما هيّأ الله عزوجل رزق العباد من السماء والأرض فهو قادرٌ على بعثهم ومجازاتهم، ولذلك جُعلت الرياح (الذاريات) اسمًا للسورة كونها من أهم أسباب الرزق.

افتتحت السورة بالقسَم بالرياح التي تذرو السحب والحبوب وغيرها من أسباب الرزق﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾، ثم بالسحب المحملة بالغيث، ثم بالسفن الجارية وما تحمله من أسباب الرزق، ثم أخيرًا بالرياح التي تقسّم السحب حسب إرادة الله، فأقسم الله بذلك على أنّ وعده تعالى برزق عباده لصادق، وأن يوم الدين الذي فيه حساب الخلق لواقع؛ ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾.

ثم أكّدت الآيات قدرة الله على البعث ببيان مصير المكذبين الغافلين، ومصير المتقين العاملين: ﴿والسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ...﴾{٧-١٥}، فأقسم الله بالسماء ذات الحسن والاستواء، وما فيها من السحب التي تحمل رزق العباد وكأنها محبوكة حبكًا، وأن الناس مختلفون حول الإيمان باليوم الآخر، فمنهم كاذبون لاهون عن الاستعداد لذلك اليوم، ومنهم متقون مؤمنون مستعدون للقاء الله. وذكر الله بعضًا من صِفات المتّقين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ...﴾{١٧-١٩}، فنومهم بالليل قليل، وأما أكثر الليل فإنهم قانتون لربهم ما بين صلاةٍ وقرآن وذكرٍ ودعاءٍ وتضرع، ثمّ قبيل الفجر -وهو وقتٌ فاضل- يستغفرون ربهم، وكما رزقهم الله من واسع فضله، أنفقوا في سبيل الله ليوسعوا على الفقراء من أموالهم.

ثم جاءت الآيات بعرض قصصي، بدأ بقصة إبراهيم عليه السلام: ﴿هلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِين ...﴾{٢٤-٣٧}، وقد برز فيها شدة يقين إبراهيم عليه السلام برازقه سبحانه حين قدم لضيوفه عجلًا سمينًا مع أنه لا يعرفهم، و قدرة الله في الرزق في بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام وزوجته (سارّة) بغلام عليم، مع كونها عجوزًا عقيمًا.

ثمّ بيّنت الآيات قدرته تعالى في إهلاك قوم لوط بحجارةٍ من طين، بعد أن أعرضوا وفضلوا إتيان الرجال شهوة. ثم قدرته في إهلاك فرعون الذي كان يزعم أنه الرب الأعلى، ولو كان يملك من أمر رزقه شيئاً -قبل رزق الناس- لدفع عن نفسه الهلاك! ثم برزت قدرة الله في إهلاك عاد وثمود وقوم نوح عليه السلام، وهم قد أُمِروا بالاستغفار ليرزقهم الله ويمتعهم متاعًا حسنًا، لكنهم أعرضوا عن دعوة خالقهم حتى استحقوا العذاب.

وختامًا، أعادت الآيات الدعوة إلى الإيمان بقدرة الله على البعث من خلال بيان مظاهر قدرته على الرزق وبيان الوظيفة الأساسية من خلق الإنس والجن وهي (العبادة): ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾. وكما افتتحت السورة بالقسم ببعض مظاهر أسباب الرزق على أنّ اليوم الآخر حق، اختُتِمت بالتأكيد على كون الله تعالى وحده الرازق، مع التحذير من التكذيب باليوم الآخر.

• سورة «الطور»

الدلالة السياقية لاسم السورة تعود إلى جبل الطور الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربه سبحانه وتعالى، ومحور السورة هو: إثبات صدق الوحي من خلال القسَم بالأماكن التي أوحى الله عزوجل بها لنبييه الكريمين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. كما ركّزت السورة على دحض شبهات المكذبين من خلال عرض الحجج والبراهين، ودحض الشكوك والشبهات حول اليوم الآخر.

بدأت السورة بالقسم بستّة أمور، فأقسم الله بأماكن الوحي على أن وقوع العذاب على الكافرين حقّ، واقعٌ بهم لا محالة ولا يمنعه مانع. ولعل التفسير الأنسب لهذه الآيات أن يكون القسم بالطور إشارة إلى المكان الذي أوحَى الله فيه لموسى عليه السلام، والقسم بالبيت المعمور إشارة إلى الكعبة الموجودة في مكة، وهي المكان الذي أوحى الله فيه لسيدنا محمد ﷺ، وأما القسم بالكتاب المسطور فهو يدل على الكتب الإلهية، ثم أقسم الله عزوجل بآيتَي الأرض والسماء وهذا معهود في السور التي تتحدث عن أهوال القيامة.

ثم عرضت الآيات مصير المكذبين الكافرين والمؤمنين المتقين، وقد تقدّم ذكر مصير المكذبين لأنه الأنسب إلى السياق، فهم كانوا يكذبون بالوحي ويدعون أنه سحر، فها هم الآن ينظرون إلى الحقائق التي وعدهم الله بها ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ...﴾ {١١-١٦}. ثم ردّت الآيات على شبهات المكذبين المتعلقة بالوحي، ومن الملاحظ أن حرف الإضراب (أم) تكرّر خمسة عشر مرة، وذلك يطلعك على مدى تنطُّع المكذبين وإنكارهم للوحي!

وبعد ذلك، يأمرُ تعالى رسوله ﷺ أن يذكّر الناس، مسلمهم وكافرهم ﴿فَذَكِّرْ﴾، لتقوم حجة الله على الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفّقون، وأن لا يبالي بقول المشركين المكذبين وأذيتهم التي يصدون بها الناس عن اتِّباعه، ولهذا نفى الله تعالى عنه كل

نقص رموه به فقال: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾، بل أنت أكمل الناس عقلًا، وأعظمهم صدقًا، وأجلهم وأكملهم.

ونصل إلى خاتمة السورة وقد أعادت التأكيد على أنّ عذاب المكذبين في يوم القيامة حق، وذِكرُ صعقهم في ذلك اليوم ملائمٌ مع صعق موسى عليه السلام على جبل الطور. وكما أقسم سبحانه في مفتتح السورة بالسماء التي هي كالسقف المرفوع، ختم السورة بأمر النبي ﷺ بتسبيح الله تعالى مع ذكر آيتيَ الليل والنجوم، وهما آيتان متعلقتان بالسماء، وهكذا التقى البدء والختام على محور إثبات أنّ الوحي وما يخبر به من الحقائق -التي من أهمها حقيقة اليوم الآخر- حقٌ لا مرية فيه.

• سورة «النجم»

مرّ الوحي بمراحل كثيرةٍ على مدار ٢٣ سنة ووصل لذروته في سورة النجم عند سدرة المنتهى، أعلى درجات الإتصال المباشر بالمعاصرة والرؤية: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾.. قرأ الرسول ﷺ السورة، وكأنه يقرأ بيانًا تحذيريًّا إلى مشركي قريش؛ فالسورة فيها من القوارع ما فيها، ولم يقدر على مقاطعته أحد.

وتعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القسَم بالنجم الذي يكون في السماء في حال هويه، وذلك يعطي دلالة على بطلان عبادة النجوم والكواكب، فمن جعل للنجم مساراً يهوي به، قادرٌ على خرق قوانين السماء وأن يعرُج بعبده فيخترق السماوات السبع حتى يصل إلى سدرة المنتهى!
فمحور السورة هو: بيان أن ما يوحي الله تعالى به إلى الأنبياء من العلم حق، وأن الحقائق التي يدعو إليها الوحي -والتي أهمّها التوحيد- حق، وأن ما سواه جهل وضلال، فكانت حادثة المعراج بالنبي ﷺ أدلّ ما في السورة على صدق الوحي الذي يتلقاه من ربه.

ابتدأت السورة بقسَمٍ من الله تعالى بالنجم في حال هويّه على أنّ النبي ﷺ ليس بصاحب ضلال ولا غواية، ثمّ يوضح الله تنزل جبريل عليه السلام قرب النبي ﷺ، وتلقيه القرآن و الوحي منه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ..﴾ {١-١١}.

ثم انتقلت الآيات إلى إثبات أنّ ما يقوم به المشركون المكذبون من عبادة الأصنام و تكذيب النبي ﷺ إنما هو راجع إلى جهلهم وضلالهم ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ..﴾{١٩-٢٢}. ثم تعرض الآيات موقفًا آخر يبرُز جهل المشركين المكذبين

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۝ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ۝ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾{٣٣-٤٠}، فهذا المكذب الذي يمنع الخير عن الناس، إنما دفَعه جهله وضلاله إلى ذلك، ولو أنه آمن بما جاء به وحي الأنبياء من العلم لما منع خيره عن أحد. ولاحظ التفصيل في ذكر ما جاء في صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام، ليتلاءم ذلك مع المحور المذكور للسورة، وهو أن ما يأتي عن طريق الوحي من العلم هو الحل، وما عداه جهلٌ وضلال.

ثم تؤكّد الآيات أنّه سُبحانه وحدَه من تنتهي إليه الأمور، وتصير إليه الأشياء والخلائق ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾{٤٢-٥٤}. وأنه سبحانه الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، والخير والشر، والفرح والسرور والهم والحزن، وأنه المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا. وأنه يعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات، أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب والحرف، وأنه ربّ النجم المعروف بـ (الشعرى)، وأنه أهلك الأمم السابقة التي كذبت وطغت، كلٌّ بعذابٍ عظيم.

وكما افتتحت السورة بالقسم على أن الوحي حق، خُتمت ببيان أن النبي ﷺ إنما هو كمن سبقه من الأنبياء، يتلقى العلم والوحي من الله، وأن ما يدفع المشركين إلى التكذيب هو جهلهم وضلالهم ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ۝ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ...﴾، وحذّرت من اقتراب القيامة، ودنُوّ وقتها. ثم كانت الآية الأخيرة من السورة، أمرٌ بالسجود لله خصوصًا، ليدل ذلك على فضله وأنه سرّ العبادة ولُبها.

• سورة «القمر»

خُتِمت سورة النجم بالحديث عن القيامة وهذا ما بدأت به سورة القمر، فبعد صدق الوحي وعظمة المعراج في سورة النجم جاءت سورة القمر التي ركزت على الآيات والنذر وبيان مصير المكذبين بها، وقد اشترك النجم والقمر في أنهما كوكبان.

وقد سُمّيت بين السلف (سورة اقتربت الساعة)، وهي سورة مكية. بدأت السورة بالحديث عن معجزة انشقاق القمر للنبي ﷺ، وهي الآية الدالة على صدقه ﷺ. ومحور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بآيات الله التي أيّد بها نبيه، مع تهديدٍ ببيان مصير المكذبين السابقين بآيات الله ورسله.

ولما كانت السورة المباركة تدور حول آيات الله وتكذيب المشركين بها، افتتح الله السورة بذكر آية من أعظم الآيات وقتها وهي انشقاق القمر، فينذر الله تعالى عباده بدنوّ القيامة، وقُرب فناء الدنيا، وأمرهم بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم، وهم عنها في غفلة ساهون. وتذكُر الآيات تهديدًا للمكذبين بهذه المعجزة بالعذاب الأخروي من الله بعد أن لم تكفهم آياته في الدنيا: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ...﴾ {١-٧}.

ثم انتقلت الآياتُ لعرضٍ قصَصي يؤكد إهلاك الله للمكذبين السابقين بدعوة رسل الله وآياته التي آيّدهم بها، وقد ابتدأت بقصة نوح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ..﴾ {٩-١٥}، ثم عرضت الآيات إهلاك عاد بعد أن كذّبوا هودًا، وإهلاك ثمود بعد أن كذّبوا صالحًا وعقروا الناقة، وإهلاك قوم لوط بعد أن أعرضوا عن نعمة الله عليهم وارتكبوا الفاحشة الّتي ما سبققهم بها أحدٌ من العالمين، وخُتم هذا العرض القصصي بإهلاك فرعون وقومه.

وبين كل قصّةٍ من قصص إهلاك السابقين، تتكرّر الآية مُذكّرةً: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ فلقد يسر الله وسهّل هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظًا وأصدقه معنى وأبينه تفسيرًا، فكل من أقبل عليه يسَّر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، و(الذكر) شاملٌ لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن -حفظًا وتفسيرًا- أسهل العلوم وأجلّها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أُعينَ عليه، ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾؟

ونصل إلى الخاتمة التي أعادت التهديد بالعذاب الأخروي لمن كذّب بآيات الله ومعجزاته في الدنيا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ {٤٣-٤٦}، ثم بيّنت المصير الأخروي للفريق المقابل وهم المؤمنون: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾، فهم في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون.

• سورة «الرحمن»

(الرحمة) من العطف والرأفة، وافتُتحت السورة وسُميت باسم الله (الرحمن)؛ الدالّ على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله. ومحور هذه السورة هو: الدلالة على عظيم ملك الله وتمام اقتداره، بعموم رحمته وسبقها لغضبه، فالسورة

إعلان عام في ساحة الوجود الكبير بآلاء الله الباهرة في جميل صنعه وإبداع خلقه، وتحث على شكر هذه النعم وتحذر من تكذيبها.

ابتدأت السورة بتعداد نعم الله تعالى على عباده التي لا تحصى ولا تُعَد، خلق الله عز وجل الإنسان ثم علّمه القرآن، وقد ذكر الله خلق الإنسان بين تعليم القرآن وتعليم البيان وفي ذلك تأكيدٌ على مظاهر رحمته تعالى بالإنسان، إذ لو أنّ الإنسان خُلِق بلا تعليم لما كان حاله أحسن من البهائم، لكن الله كرّمه بذلك.
ثم أسهبت الآيات في ذكر باقي نعم الله على الإنسان، فقد سخّر له ما في هذا الكون ليتمكن من العيش بكرامة في الأرض، وخلق الشمس والقمر يجريان متعاقبين بحساب لا يضطرب، وجعل النجوم دالةً على قدرته، وكذلك شجر الأرض، وقد رفع السماء ووضع للكون ميزان، فلا ينبغي للإنسان ولا للجانّ أن يطغيا فيه، وهذا كلّه يدل على مظاهر رحمة الله تعالى بالإنسان والجان، وأّكد ذلك السؤال التقريري بعد ذكر هذه النعم: فبأيّ آلاءِ ربكما تكذبان؟!
وبعد أن أقرّ الله نعمة الإمداد، انتقل إلى نعمة الإيجاد، فذكر أصل خلق الإنسان والجان: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ {١٤-١٨}، وبيّنت الآيات بعدها أنّه سبحانه هو الذي مرج البحرين العذب والفرات وجعل بينهما برزخًا حتى لا يبغي أحدهما على الآخر.

ثم بعد هذه الآيات الجليلة، ذُكِرت الحقيقة البيّنة: أنّ كل ما على الأرض سيفنى، ويبقى الحي الذي لا يموت ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويبجَّل ويجَلّ لأجله، فهو موجد الخلق أول مرة، كما أنه هو المعيد لهم في الآخرة. ثمّ بيّنت الآيات أن تسخير الكون للإنس والجن لا يعني أن لهما مطلق الحرية فيه، بل هما مأسورين فيه لا يستطيعان النفاذ منه، كما أخبرت بعجزهما وضعفهما إذا جمعهما الله في موقف القيامة، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أيها الثقلان...﴾ {٣١-٣٤}.
وتنتقل الآيات للحديث عن المجرمين، وبالرغم من ذلك إلا أن التعبير ما زال منسجمًا مع اسم السورة، فلم يذكَر شيءٌ عن الحساب، بل يؤخَذ المجرمون إلى جهنم مباشرةً وقد ثبت من جرائمهم أنهم أهل النار ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

كان هذا بيان بعض آلاء الرحمن على الإنس والجن في الحياة الدنيا، ثم تعرض آيات الوحي الكريم بعض آلائه سبحانه عليهما في الآخرة، وبذلك يتحقق أن الله تعالى هو المنعم الرحمن ابتداءً وانتهاءً. فيبدأ الحديثُ عن أهل الجنة ونعيمهم، وقد قسّم الله أهل الجنة لقسمين، وجعل لكل فردٍ من القسمين جنتين!

فابتدأت الآيات بالحديث عن المقربين: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ {٤٦-٥٤}، وهذه الآية عامّة في الإنس والجن، فهي من أدلّ دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا؛ ولهذا امتنّ الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء. ثم أتبَع ذلك الحديث، ذِكر جنتين أخريَيْن دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة؛ لمن هم دون المقربين من أهل الجنة: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ {٦٢-٦٨}.

ولما ذكر سعة فضله وإحسانه في تتابع آيات هذه السورة الكريمة، قال سُبحانه في الختام: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، فتعاظمَ الله وكَثُر خيره، الذي له الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه، هو -سبحانه- أهلٌ أن يجَلّ فلا يُعصَى، وأن يُشكَر فلا يُكفَر، وأن يُذكَر فلا يُنسى.

• سورة «الواقعة»

الواقعة من سقوط الشيء، والواقعة هي القيامة؛ لأنها تقع بالخلق فتغشاهم. ويمكن القول بأن محور السورة هو: إقامة الحجة على أن القيامة واقعةٌ لا محالة، من خلال بيان قدرة الله تعالى على البعث بالأدلة العقلية، والتأكيد على ذلك ببيان مصير الناس في ذلك اليوم.

تبدأ السورة بوصف القيامة بصفتها التي تُنهي كل قول: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، وتذكُر من أحداث هذا اليوم وأهواله ما يميزه عن أي يوم ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا...﴾ {٣-٦}. ثم تبيّن أن الناس سينقسمون يومئذٍ إلى ثلاثة أقسام: (السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال)، فالقيامة تخفض أقدارًا كانت رفيعةً في الأرض، وترفع أقدارًا كانت خفيفة.
ثم تفصّل الآيات مصائر تلك الأفرقة الثلاثة، فابتدأت بالمقربين، ثم أصحاب اليمين، ثم أصحاب الشمال. وتصف ما يلقون من نعيم وعذاب وصفاً مفصلاً أوفى تفصيل، يوقِع في الحس أن هذا أمرٌ كائن واقع، لا مجال للشك فيه، وهذه أدق تفصيلاته معروضة للعيان؛ حتى يرى المكذبون رأي العين مصيرهم ومصير المؤمنين، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ...﴾ {٤٥-٤٨}.

ثم تنتقل السورة إلى ذكر عدد من الأدلة العقلية على حقيقة البعث؛ فالذي خلق الإنسان من المنيّ وصوّره في الأرحام، هو الذي سيُميتُه ثم يبعثه للحساب كما أنشأه أول مرة، والذي أخرج الزرع من الأرض ولو شاء أن يجعله حطامًا لفعل، هو القادر على إخراج العباد من الأرض لحسابهم، والذي أنزل الماء الذي فيه حياة العباد ولو شاء أن يجعله أجاجًا لفعل، هو القادر على بعثهم كما أحياهم بذلك الماء، والذي أخرج الشجر فاستفاد منه العباد وأوقدوا فيه النار، هو القادر على إخراجهم

من الأرض كما أخرج ذلك الشجر، وبذكر النار يذكرهم -سبحانه- بنار الآخرة التي يشكون فيها. ثم يَعقُب ذلك، قسمٌ بمواقع النجوم، ويعظم الله من أمر هذا القسم لتوكيد أن هذا الكتاب هو قرآنٌ كريم مُنَزّلٌ من رب العالمين.

وختامًا، تعرض الآيات مشهد الاحتضار، في لمسةٍ عميقة مؤثرة، حين تبلغ الروح الحلقوم، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر، ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين، لا يملكون له شيئاً، ولا يدرون ما يجري حوله، ولا ما يجري في كيانه، ويكون أمره كله لله.

وكما بدأت السورة بذكر منازل الناسٍ يوم القيامة، وتقسيمهم إلى فرقٍ ثلاثة، خُتمت بتقسيمهم أيضًا وبذِكر مصيرهم وحالهم عند الموت: فالسّابقون يبشَّرون بالروح والريحان وجنات النعيم، وأصحاب اليمين في أمن وسلام، وأصحاب الشمال في الحميم والجحيم. ثم تختم السورة بتوكيد الخبر الصادق، وتسبيح الله الخالق: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

• سورة «الحديد»

ختمت سورة الواقعة بالتسبيح، وبدأت سورة الحديد بالتسبيح كذلك. نزلت السورة في المدينة، ومحورها هو الدعوة إلى الإيمان، والبذل في سبيل الله وفي سبيل الجهاد لنصرة الدين، مع بيان بعض مظاهر عظمته تعالى الدالة على أنه قادر على جزاء المنافقين والمجاهدين في سبيله خير الجزاء في الدارين.

افتتحت السورة بالتسبيح وتكررت في أول أربع آيات من السورة أسماء الله وصفاته (خمسة عشر) مرة، فكان مطلعها خاصةً مجموعة إيقاعات بالغة التأثير، تواجه القلب البشري. واحتوَت مقدمة السورة على بعض مظاهر عظمة الله تعالى، وتسبيحه وتنزيهه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ...﴾ {١-٦}.

ثم انتقلت السورة إلى دعوة المؤمنين إلى الإنفاق نصرةً لله ونبيه، وأكثر ما يحتاج إلى النفقة هو (الجهاد)؛ لما فيه من ضرورة تجهيز الجيوش وإعداد الجند ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا ...﴾ {٧-٨}، وأكدّ ذلك ما بيّنته الآيات من عدم التساوي بين منٍ أنفق وقاتل من قبل الفتح، ومن أنفق وقاتل منٍ بعده: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ..﴾ {١٠}. وقد تعددت أساليب الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله في هذه السورة، فبعد الإنفاق ذُكر الإقراض ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ {١١- ١٢}.

ثمّ ذكر الله جزاء هؤلاء المؤمنين المنفقين، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾، فإذا كان يوم القيامة، وصار الناس في الظلمة، فحينئذٍ تراهم يمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كلٌّ على قدْرِ إيمانه، ويبشَّرون عند ذلك بأعظم بشارة: {جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ..}، وذكر مع ذلك موقف المنافقين والمنافقات، وكيف يفصل الله بينهم وبين المؤمنين يومئذ.

ولما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين على عدم ذلك، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ...﴾{١٦}، ومن أجل الزيادة في ترغيب المؤمنين في النفقة والقتال لنصرة الدين، بيّن السياق تميز المؤمنين على من سبقهم من أهل الكتاب، إذا هم التزموا بما جاءهم من الحق ونصروه.

وبعد الإقراض، جاء التصدق: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾{١٩}. وحذّرت الآيات الكريمة من فتنة الدنيا التي قد تمنع العبد من النفقة ومن القتال، وكذلك حذرت من البخل، وبيّنت للمؤمنين أن كل ما أصابهم من المصائب في سبيل نصرة الله سيوفون أجره: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ...﴾{٢٢- ٢٤}.

وفي الختام، أعادت الآيات الترغيب في القتال لنصرة الله ورسوله، واستخدام نعمة الحديد لأجل ذلك، كصُنع آلات الحرب، كالسلاح والدروع وغير ذلك. ثم تأتي آية: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، فهي شجرة واحدة باسقة، متشابكة الفروع، فيها النبوة والكتاب، فأمّا الذرية التي جاءتها النبوات والكتب فلم تكن على شاكلة واحدة: (فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون).

وكما افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر عظمة الله تعالى، لبيان قدرته على جزاء المؤمنين المنفقين والمقاتلين لنصرته خير الجزاء مع استغنائه تعالى عن خلقه، ختمت بإعادة دعوتهم إلى الإيمان والتقوى، ونصرة الرسول، مع بيان أنه تعالى سيؤتيهم ضعف الأجر، وبيان تفضيلهم -إذا التزموا نصرة الله ورسله- على أهل الكتاب الذين نكلوا عن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ..﴾{٢٨-٢٩}.

الجزء الثامن والعشرون

يُخبرنا الجزء الثامن و العشرون عن أحداث السيرة فى المجتمع المدنى، ويشتمل على أحكام وآداب ينبغى على الأمة المسلمة أن تعمل بها، وبه تقويم لمواقف ، وتحذير من الأعداء الداخليين، فبعد القتال في سورة الحديد تكوّن المجتمع المسلم، ولكن حتى لا يضيع جهد القتال أتى الجزء الثامن والعشرون لتنظيم حياة المؤمنين بجميع جوانبها الأسرية والإجتماعية، فبدأ الجزء بامرأة وهي خولة بنت ثعلبة وخُتم بإمرأة وهي مريم عليها السلام، فوضع حلّاً شرعياً لمشكلة أسرية وهي الظهار في سورة المجادلة، ثم تأتي سورة الحشر فنجد أن المجتمعات تتلاقى وكُسرت حواجز المكان بين مكة والمدينة وأصبح المؤمنين فئة واحدة أمام اليهود، وفي الممتحنة تنقية للمؤمنين بإمتحانهم، ثم نصبح صفًا واحدًا في سورة الصف، ونجتمع على الطاعة في سورة الجمعة، ثم يحاول المنافقون خلخلة الصف، ثم التغابن تحذيرًا من اللغو والغُبن، ثم الطلاق فإذا كان الإجتماع يؤدي إلى غبن في الطاعة يحدث الإنفصال الشرعي وليس بالظهار .

•سورة «المجادلة» :

من مقاصد هذه السورة بيان تمام علم الله وكمال قدرته، أن سمع قول المجادِلة، وهى خولة بنت ثعلبة، التي جادلت النبي ﷺ في موضوع ظهار زوجها منها، ومن ثم بيانه تعالى لحكم الظهار،وهو أن يقول الرجل لزوجته (أنت علي كظهر أمي)، وكان كان أحد مظاهر الخروج من الفطرة السوية للإنسان بما يلحقه بالزوجة من الأذى.

فقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾. وهذا يدل على كرامة المرأة في الإسلام والحرص على حقها. والمرأة عندما تتيقن أن هذا الدين ينصفها ويعطيها حقها، تربي أسرتها على مبادئ هذا الدين.

ثم انتقلت السورة إلى تربية المجتمع الإيماني على الالتزام بحدود الله تعالى فيما يتعلق بما هو خارج هذا المجتمع، فابتدأت بتهوين شأن الكافرين بآيات الله والمحادّين لله ورسوله ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ... ﴾{٥}، ومن تمام علم الله وكمال قدرته أنه سينبئهم يوم القيامة بأعمالهم التي أحصاها لهم ونسوها .

ثم عاد السياق إلى داخل المجتمع الإيماني، فحذرت السورة من النجوى المحرمة، وأمرت المؤمنين أن يتناجوا بالبر، فالنجوى قد تكون في الخير، وتكون في الشر، وذكرت السورة حادثة أخرى و هى (حادثة النجوى) وهو أن اليهود كانوا يتحدثون بكلام سئ عن المؤمنين، وكان يؤذي المؤمنين هذا التناجى فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ... ﴾ وحذرت من فعل اليهود الذين كانوا يسيئون الأدب في تحيتهم النبي، ويسرون في أنفسهم ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك،

ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم، فقال تعالى في بيان أنه يمهل ولا يهمل: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وذلك يبرز تمام علم الله بما يكون في هذه النجوى الخفية.

ثم تذكر السورة آدب أخر فى مجالس العلم إذا ضاق بكم المجلس فتوسعوا في المجالس والارفاع منها لأهل الفضل إذا طُلب منهم ذلك، وفي هذا تربية لهم على أن لا يكون في قلوبهم كبر.

ثم يذكر الله ﷻ آدب آخر للمؤمنين حتى لا يشغلوا النبي ﷺ بكثرة أحاديثهم، فأمرهم بتقديم الصدقة إذا أرادوا مناجاة الرسول ﷺ فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ... ﴾ حتى اذا إعتاد الناس أن لا يذهبوا للنبي ﷺ إلا فى الأمور العظيمة ولما امتثل الناس للآدب، نسخ الله ﷻ هذا الحكم ورفع عن المؤمنين الحرج وأزال عنهم الحكم وأمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ... ﴾.

وأعادت الخاتمة التذكير بتمام علم الله وقدرته وبأن الله سينتصر على المحاربين لله ولرسوله ﷺ .

•سورة «الحشر» :

الحشر المقصود في السورة متعلق بيهود بني النضير الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ لما قتل أحد المسلمين رجلين من المشركين وترتب على ذلك دفع الدية ولم يكن النبى ﷺ يملك مالاً فى هذا الوقت فطلب من اليهود أن يعينوه على دفع دية هذين الرجلين، فجلس النبى ﷺ فى ظل بيت رجل منهم فتحالفوا فيما بينهم أن يأخذوا حجراً عظيما ويلقوه على رأسه ليقتلوه، فكشف الله لنبيه غدر اليهود ونقض عهده معهم وجهز النبى لهم جيشاً وعُرفت فى السيرة بغزوة بنى النضير فنزلت سورة الحشر، وكان اليهود يغترون بحصونهم، وتحالف معهم رأس النفاق (عبدالله بن أبى بن سلول) وقال أنه سوف يكون شوكة فى ظهر النبى ﷺ، فنزلت فيه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ...﴾. وحاصرهم النبي ﷺ واستسلم اليهود، وقد كانت نفوس المؤمنين تستبعد ذلك لحصانة حصونهم، فهذا الانتصار العسكري الظاهر. أما الانتصار النفسي فقد كان بقذف الرعب في قلوبهم وخروجهم من ديارهم بعد أن خربوها حتى لا يسكنها المسلمون. وبينت الآيات كمال انتصار الله عليهم حتى في الآخرة، وسبب ذلك كله أنهم شاقوا الله ورسوله، والله شديد العقاب. فكان ذلك الحشر أول إخراج لليهود من أرض الجزيرة العربية.

ثم انتقلت السورة إلى بيان بعض مظاهر فضل الله على المؤمنين التي برزت من هذا الحشر ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ {٥-٦}، ولاحظ أن السياق ذكر أن المؤمنين لم يكن لهم دور ملحوظ في هذا الحشر إلا فيما يتعلق بقطع شجرهم وتخريب بيوتهم، وخرج اليهود من المدينة وتركوا غنائم كثيرة آثر الأنصار بها المهاجرون وأعطوها لهم، فأنزل الله ﷻ فيهم قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا

يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾،{٩-١٠}،

ثم انتقلت السورة لأمر خطير يبرز تمام علم الله بعالم الغيب، فقد علم ما دار بين المنافقين والكافرين من التآمر على النبي ﷺ والمؤمنين، بل وبيّن أن تآمرهم لن يفضي إلى نتيجة فعلية وأنهم كاذبون ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ... ﴾{١١-١٣}

وجاءت الخاتمة التي أمرت المؤمنين بتقوى الله تعالى، لأنه ذو العلم المطلق والقدرة التامة، وهو وحده بيده النصر﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ {١٨-٢٠}، وذكر عظمة القرآن الكريم ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾{٢١}،فعظمة القرآن إنما هي من عظمة الله عزوجل، لذلك أُردف السياق بذكر بعض أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ...﴾{٢١-٢٢}.

•سورة «الممتحنة» :

سميت السورة بالممتحنة لأن بها امتحان للنساء اللواتي هاجرن من مكة في إيمانهن وولائهن لله ولدينه. وتركز السورة على تخليص قلوب المؤمنين من الانتماء والولاء لغير دين الله ﷻ.

بدأت السورة بمقدمة تدعو إلى الولاء لله ولدينه ولرسوله والتبرؤ من موالاة الكافرين: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ....﴾، وذكر كثير من المفسرين، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي صلى الله عليه وسلم غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ، ليتخذ بذلك يدا عندهم لا نفاقا، وأرسله مع امرأة، فأُخبر الله النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب. وعاتب حاطب، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ، ونزلت الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه السلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقي من مجهوده في العداوة شيئا.

تفاصيل القصة: تذكر سورة الممتحنة حادثاً معيناً نزل فيه، وقد قيل في هذا الحادث: إن حاطب بن أبي بلتعة كان رجلاً من المهاجرين. وكان من أهل بدر أيضاً. وكان له بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفاً لعثمان.

فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة لما نقض أهلها عهد الحديبية أمر المسلمين بالتجهيز لغزوهم، وقال: «اللهم عَمِّ عليهم خبرنا». وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحابه بوجهته، كان منهم حاطب. فعمد حاطب فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة مشركة جاءت المدينة تسترفد إلى أهل مكة، يعلمهم بعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على غزوهم، ليتخذ بذلك عندهم يداً. فأطلع الله تعالى رسوله على ذلك استجابة لدعائه. وإمضاء لقدره في فتح مكة. فبعث في أثر المرأة، فأخذ الكتاب منها فقال النبي صلى

الله عليه وسلم لحاطب : «ما حملك على ما صنعت؟» قال حاطب: والله ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، أردت أن تكون لي عند القوم يد. يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. فقال: «صدق لا تقولوا إلا خيراً» فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه. فقال: «أليس من أهل بدر؟ فقال: لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو قد غفرت لكم» فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم .

فنزلت سورة الممتحنة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ من الحق ...)

ثم دعت السورة إلى التأسي بإبراهيم عليه السلام في موضوع الولاء والبراء ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ..﴾، ونهت السورة أيضا عن الإستغفار للمشركين، وكرّر الله ﷻ الحثّ على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام ومن كان معه من المؤمنين ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ...﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب يسّهل على المؤمن كل عسير.

وبينت السورة أن الإسلام لا ينهى عن التعامل مع غير المسلمين، وإنما النهي يكون عن الذين يقاتلون المسلمين ويؤذونهم ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ...﴾.

ثم جاءت الخاتمة بالأمر بامتحان النساء اللواتي هاجرن من مكة إلى المدينة، لمعرفة السبب الحقيقي في هجرتهن، فلا يكون تخلصاً من زواج مكروه، ولا طلباً لمنفعة، ولا جرياً وراء حب فردي في دار الإسلام! ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ...﴾ وهذا الامتحان يعتمد على ظاهر حالهن واقرارهن مع الحلف بالله. فأما خفايا الصدور فأمرها إلى الله، لا سبيل للبشر إليها: {الله أعلم بإيمانهن} فإذا أقررن {فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون له}..

وكما افتتحت السورة بنداء المؤمنين لموالاة الله ودينه ورسوله ، ختمت بالنداء ذاته وبالمقصد ذاته: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ...﴾ {١٣} .

•سورة «الصف» :

يعود اسم السورة إلى أمرها المؤمنين أن يقاتلوا الأعداء صفًا كأنهم بنيان مرصوص، وهي بذلك تشير إلى أن المؤمنين ينبغي أن تكون قلوبهم وعقولهم وتحركاتهم متحدة في الهدف المطلوب منهم في الحياة، وهو نصرة دين الله، ولا يمكن أن يكونوا صفًا في القتال إلا إذا كانوا صفًا واحدًا في حياتهم الاجتماعية أيضًا، فالسورة تهدف لأمرين:

- أولهما: أن تقرر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهي للبشرية في صورته الأخيرة.

- الثاني مبني على الأول: وهو أن يكون شعور المؤمن بهذه العقيدة شعورًا يدفعه إلى صدق النية في الجهاد لإظهار دين الله على الدين كله كما أراد الله، وعدم التردد بين القول والفعل، فاسم السورة يشير إلى اتحاد القلوب والنيّات في موالاة الله، ومعاداة من عاداه، بانضباط ووحدة وتماسك، ولذلك بينت اختلاف بني إسرائيل على موسى وعيسى عليهما السلام عن نصرة دينهم وأنبيائهم.

تبدأ السورة بعد إعلان تسبيح الكون وما فيه لله، بدعوة إلى أن يوافق قول المؤمنين فعلهم،﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ..﴾{١-٤}.

ثم تذكر رسالة موسى عليه السلام لتقرر أن قومه الذين أرسل إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا، فانتهت قوامتهم على دين الله، ولم يعودوا أمناء عليه .

ثم تذكر رسالة عيسى عليه السلام ليقرر أنه جاء امتداداً لرسالة موسى، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة، وممهداً للرسالة الأخيرة ومبشراً برسولها، ووصلة بين الدين الكتابي الأول والدين الكتابي الأخير، فقد جاء ليسلم أمانة الدين الإلهي التي حملها بعد موسى إلى الرسول الذي بشر به. وكان مقرراً في علم الله وتقديره أن تنتهي هذه الخطوات إلى قرار ثابت دائم. وأن يستقر دين الله في الأرض في صورته الأخيرة علي يد رسوله الأخير: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾{٩}.

ثم تدعو السورة إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ...﴾{١٠-١٣}

وتختم السورة بنداء أخير للذين آمنوا، ليكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أصحاب عيسى أنصاره إلى الله، على الرغم من تكذيب بني إسرائيل به وعدائهم لله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ...﴾{١٤}

•سورة «الجمعة» :

يعود اسم السورة إلى حادثة قدوم عير تجارية إلى المدينة المنورة، و كان رسول الله لا يزال يخطب حينها خطبة الجمعة، فلما سمع بقدومها المسلمون ثار الناس إليها ولم يبق أمام النبي ﷺ إلا القليل، فأنزل الله تعالى قوله معاتباً وموجها لهم ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ..﴾.

ومن مقاصد هذه السورة أن يقر في أخلاد المؤمنين أنهم المختارون لحمل أمانة العقيدة، وأن بعثة النبي ﷺ فيهم منّة كبرى تقتضي النهوض بالتكاليف التي حملوها بعد تخاذل بني إسرائيل عن حملها، والتخلص من الجواذب المعوقة عن هذه الأمانة مثل الحرص والرغبة العاجلة في الربح، واسم (الجمعة) يفيد فرضية الاجتماع فيها والإقبال على الله والتجرد عن غيره، و يدل على ذلك ما جاء في المقدمةإذ إفتُتحت هذه السورة بذكر الأسماء الجليلة ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، يتناسب مع يوم

الجمعة لأنه إنما شُرع لذكر الله تعالى، وفي ذكر هذه الأسماء تربية للمؤمنين على عدم ترك الجمعة رغبة في الدنيا، لأنه سبحانه يملك الفضل كله وهو خير الرازقين، ووصف العرب بالأميين ليكون ذلك أظهر في بيان فضل الله تعالى في بعثة النبي ﷺ، امتداد هذا الفضل إلى يوم القيامة ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ..﴾ ثم انتقل السياق إلى التحذير من اليهود الذين تخاذلوا عن حمل أمانة دينهم، فتركوا هدي نبيهم والكتاب الذي أنزله الله عليه، وبين السياق أنهم تلهوا بالدنيا عن الآخرة، ففي ذكرهم تحذير للمؤمنين .

وكما افتتحت السورة ببيان فضل الله على المؤمنين ببعثة النبي ﷺ، ختمت بالتحذير من التشاغل عن هديه ﷺ والتلهي بالدنيا.

•سورة «المنافقون» :

تعود دلالة اسم السورة إلى ذكرها بعض صفات المنافقين، وبعض مواقفهم مع رسول الله ﷺ، التي تثبت أنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، وتثبت استحقاقهم للغضب واللعنة من الله تعالى، فالسورة تعرض أمراض المنافقين القلبية وما نتج عنها من أخلاق ذميمة وتحذر المؤمنين منها بتوجيهات تربوية .

ذكر الله ﷻ في مقدمة السورة من شأن المنافقين، وصفاتهم، وأقوالهم، وأفعالهم ما لايعلمه إلا الله ﷻ، قال الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ...﴾ ويذكر الله ﷻ لنبيه ﷺ ألا تغتر بهم ولا بكلامهم ولا بصفاتهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ ثم يأتى التحذير ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ويذكر الله ﷻ من افعالهم أنه لما عاد النبي ﷺ من غزو بنى المصطلق وفى الطريق صار كلاما بين بعض المهاجرين والأنصار كدّر الخواطر، فظهر حينئذ نفاقهم، وقال كبيرهم عبد الله بن أبي بن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء-يعني المهاجرين- إلا كما قال القائل (سمن كلبك يأكلك)، وقال: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) يقصد بالأعز هو ومن معه والأذل فيقصد به النبى ﷺ و من معه. فقال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

ثم يأتي تحذير المؤمنين منها بتوجيهات ربانية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ يحذرنا الله ﷻ من أن الطريق الأول للنفاق والبعد عن الدين إنشغال العبد بالدنيا.

• سورة «التغابن» :

الغبن :كلمة تدل على ضعف، واهتضام، وخداع، وغلبة، وهو ما سيقع بالكفّار يوم القيامة، ويوم التغابن هو يوم القيامة، وأما دلالة اسم السورة فتعود إلى وصف حال الناس في ذلك اليوم، إذ سيظهر غبن الكافرين لعدم إيمانهم، وسيظهر غبن بعض المؤمنين لتقصيرهم في الأعمال الصالحة التي تُرصد لذلك اليوم. ووصف القيامة بيوم التغابن يعطي دلالة على أنه لا

تغابن حقيقة إلا في ذلك اليوم، فمن عاش في الدنيا ونظره على الدار الآخرة لا يُغبن أبدًا. واسم السورة يحذر مما جاء في سورة المنافقون السابقة لها من إقامة الدليل على أنه لا بد من الحساب. فمحور السورة هو إثبات حقيقة يوم القيامة من خلال التحذير مما أوقع الكافرين في الغبن الأكبر يوم القيامة، والتحذير من التقصير لئلا يقع المؤمن في الغبن في ذلك اليوم.

تذكّر المقدمة أن الله خالق الناس جميعًا بأحسن صورة وخالق السماوات والأرض، قادر على جمع الناس ليوم التغابن ويظهر لهم أعمالهم. ثم تحذر السورة مما أوقع الكافرين في الغبن الأكبر يوم القيامة، وهو تكذيبهم بالبعث، فأكّد الله لهم أنهم سيبعثون ليوم الجمع. وفيها تحذير للمؤمنين، فالغبن يلحق أيضا يوم القيامة بمن قصّر في الإحسان من المؤمنين، فيتمنى أن لو زاد في الإحسان فتعلو مرتبته في الجنة، فأمرتهم الآيات بالصبر على المصائب، وعدم الاغترار بالأموال والأولاد حتى لا يُحرموا من الأجر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وختم السورة بذكر وصايا لوقاية المؤمنين من الوقوع في الغبن يوم القيامة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ..﴾ {١٦-١٧}.

•سورة «الطلاق» :

سورة الطلاق مُبينة لأحكام أهم الموضوعات المتعلقة بالأسرة، وهو الطلاق، فقد فصّلت السورة في بيان أحكام العدة والمسكن والنفقة والإرضاع، مع الأمر بالمعروف والتزام التقوى، فاسم السورة يعطي لهذا الموضوع أهمية عظمى ويدعو إلى التزام الأحكام الإلهية المتعلقة به، ويحذر من التلاعب بها فضلاً عن الإعراض عنها، ومن الممكن أن تقسم السورة لقسمين:

- الأول: هو بيان أحكام الطلاق وما يترتب عليه، وتهيئة النفوس لتقبل هذه الأحكام والامتثال لها.

- الثاني: وصل هذه الأحكام بقدر الله في السماوات والأرض، وسننه في إهلاك المخالفين لأمره، والفرج والسعة لمن يتقونه، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾، كل ذلك يطلعنا على خطورة هذا الموضوع وتوليه أهمية كبرى، لدرجة أن السورة افتُتحت بنداء النبي ﷺ قائد الأمة بشخصه لأهمية هذا الأمر.

وهكذا تتبعت النصوص سائر حالات الطلاق، وما يتخلف عنها، بأحكام مفصلة دقيقة، ولم تدع شيئاً من أنقاض الأسرة المفككة بالطلاق إلا أراحته في مكانه، وبينت حكمه، في رفق وفي دقة ووضوح.

•سورة «التحريم» :

تهتم السورة بالجانب التربوى للأسرة المسلمة من خلال أحداث وقعت في بيت النبوة

ابتدأت الآيات بعتاب للنبي ﷺ عتاباً رقيقاً حين حرّم على نفسه سريته (مارية) أو شرب العسل مراعاة لخاطر بعض زوجاته، وقد شرع الله للمسلمين كل ما تحل به الأيمان قبل الحنث وما تكفر به بعد الحنث﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مرضاة أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ..﴾{٢}.

ثم تناولت أمراً خطيراً ألا وهو إفشاء السر بين الزوجين وضربت مثالاً بالسيدة حفصة التي أفشت سر رسول الله ﷺ لعائشة حتى هم بتطليق أزواجه، قال تعالى:﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾{٣}، فوجهت الآيات الخطاب للزوجتين الكريمتين :(حفصة وعائشة رضي الله عنهما)، فعرضت عليهما التوبة وعاتبهما الله تعالى في الآيات وحذرهما من التعاون على ما يشق على النبي ﷺ فالله تعالى وملائكته والمؤمنين هم أعوان لرسول الله، وحذرتهما من الطلاق واستبدال النبي ﷺ بأزواج خيرا منهن .

ثم يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبهم في بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير، فيقوا أنفسهم وأهليهم من النار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ..﴾{٦} ثم يبين لهم الطريق لوقاية أنفسهم من النار﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً..﴾.

وخُتمت السورة بعرض النماذج الصالحة والفاسدة، وهما إمرأتىّ نوح ولوط عليهما السلام اللتين عاشتا في بيئتين صالحتين ولم تنفعهما، ثم النموذج الصالح في البيئة الفاسدة وهى إمرأة فرعون، ثم النموذج الصالح في البيئة الصالحة وهى مريم عليها السلام، فزادت صلاحًا على صلاحها .

https://www.facebook.com/lydbroteam/

الجزء التاسع والعشرون

•سورة «الملك» :

سُميت سورة الملك (بالملك، وتبارك، والمانعة، والمنجّية) (لأنها تنجّي صاحبها من عذاب القبر)، وكان النبي ﷺ لا ينام إلا بعدما يقرأ سورة الملك، وقال عنها "سورة ثلاثون آية شفعت لصاحبها حتى يُغفر له".

جاء في المقدمة وصف الله تعالى بأنه بيده الملك، ليدل على أنه سبحانه هو وحده المالك لكل الوجود، وهو وحده بيده الأمر والنهي والتصرف في الوجوه كيفما أراد، ويظهر ذلك من خلال سائر الصور التي عرضتها السورة لتؤكد الخضوع للقدرة الإلهية، فالسورة تتناول عناصر الملك الكامل وهي: القدرة المطلقة، والتنزه عن العبثية ، والسيطرة العامة، والقدرة على مكافأة المحسن ومعاقبة المسيء، فالله ﷻ بيده كل تدبير وبقدرته إظهار ما يريد، لا مانع له من شئ، ولا كفؤ له بوجه، هو الذي زيّن الله السماء بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين وليُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، والله ﷻ يعلم النيّات والإرادات والأقوال والأفعال ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فهو اللطيف الذى لطف صنعه حتى عجزت عنه الأفهام، والخبير الذى انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها .

وحينما تتفاعل مع السورة تجدها متميزة بكثرة الأسئلة لترسيخ عبادة التفكر عند المسلم، فسألت عن الخلق والعلم والقدرة والأمن والرزق والإهلاك والإنجاء، فكأنها مراجعة عقدية يومية للمسلم قبل نومه، فحينما تتفكر في الأسئلة تنام على الفطرة.

وختمت السورة بذكر حال الكافرين المكذبين عند رؤيتهم العذاب يوم القيامة، ولما كان المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم الذين يردون دعوته، ينتظرون هلاكه، ويتربصون به، أمره الله أن يقول لهم: أنتم وإن حصلت لكم أمانيكم وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك بنافع لكم شيئًا، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتم العذاب، فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم؟ وأمر الله نبيه أن يخبر عن حاله وحال أتباعه، ما به يتبين هداهم وتقواهم، بأن يقولوا: (آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا) ثم أخبر تعالى عن انفراده بالنعم، خصوصًا بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي فقال: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) أي: لا يقدر أحد على ذلك غير الله تعالى.

ولما ختمت سورة الملك بالوعيد بالكافرين ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾،بدأت سورة القلم أيضا بالوعيد لهم ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾.

•سورة «القلم»:

القسم بالقلم دلالة على أن هذا الدين بنى على أساس متين من العلم ، وأن الأخذ بالقلم سبب عظيم من أسباب الرقى و الحضارة، وما أخذت أمة بالقلم إلا علت وارتفعت ، والقسم بما يسطرون إشارة إلى الكتابة، بمعنى أن الله تعالى يُقسم بالقلم وما يكتبه الكاتبون على نفي فرية الجنون عن سيدنا محمد ﷺ.

السورة بها دعوة لمعالى الأخلاق ، وإظهار علم النبي ﷺ وخُلُقه ﴿وإنك لعلى خلقٍ عظيم﴾ وتأييد الله ﷻ له، ونهىْ النبي ﷺ عن طاعة المكذبين وإظهار نواياهم له ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، فالنصف الأول من سورة القلم يحوي أبرز النقاط العظيمة في هذا الدين في احترام العلم والأخلاق، لتجسد هذه النقاط شخصيتك فتدعو بها إلى الله وتجادل، وتكون إنسان ذو أخلاق حتى مع الفقراء والمساكين، لا تفعل مثل أصحاب الجنة الذين اغترّوا بالجنة حين أينعت ثمراتها فعزموا على منع المساكين وطلبوا حرمانهم وهم قادرون على نفعهم ، فأصبحوا بحال لا يقدرون فيه إلا على المنع والحرمان، وعجّل الله لهم العقوبة قبل التلبس بمنع الصدقة، فدلّهم أوسطهم (أفضلهم وأقربهم للخير) على تسبيح الله ﷻ وتنزيهه من كل نقص لأنهم ظنوا أن قدرتهم مستقلة فاستدركوا بعد ذلك قائلين ﴿ قالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ثم تنطلق لتجادل في المنتصف الثاني من السورة وترد على شبهات من يحارب هذا الدين ويجادل في عقيدتك، فحكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين المنقادين لأوامر ربهم، كالمجرمين الذين وقعوا في معاصيه، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه، وأن المجرمين إذا ادّعوا ذلك، فليس لهم مستند، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فإذا كان يوم القيامة، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحينئذ يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله، طوعًا واختيارًا، ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود، وهذا الجزاء ما جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا فيستكبرون. فلا تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة.

وتُختم السورة بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم للصبر فى إشارة سريعة ليونس عليه السلام، تحذيرا للنبي ﷺ أن يكون مثله فى الاستعجال حين ذهب مغاضباً وترك دعوة قومه لما لم يستجيبوا له ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾

ختمت سورة القلم بذكر قصة يونس لتسلية النبيﷺ، وبدأت الحاقة بقصص أقوام آخرين لتكملة التسلية .

•سورة «الحاقة»:

الحق : نقيض الباطل، والحاقة القيامة، وهو الوقت الذى يُحقق فيه الجزاء، وتُعرف فيه الأمور على حقيقتها، ودلالة اسم السورة تعود إلى تهويل شأنها، وبيان أنها حق لا مرية ولا هزل فيها، وأكّد هذا السؤال عنها مرتين في مفتتح السورة

﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ﴾، فمحور السورة هو: إثبات أن يوم القيامة يوم حق جد لا مجال فيه للهزل، من خلال بيان مصير المكذبين ومصير المؤمنين في ذلك اليوم، تقسم السورة لثلاثة أقسام: أولا :تبدأ السورة بمقدمة تهوّل أمر القيامة وتبين مصير الأقوام المكذبة بذلك اليوم العظيم في لمحات سريعة عن عقاب فرعون وقرى لوط الذين انقلبت ديارهم ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾، ثم يأتي بيان هول المشهد الذى ينتظر هؤلاء المكذبين، وإشارة للكرامة التى ينالها المصدقين للرسل ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ...﴾ {١٣-٣٧}، جاء بعد ذلك القسم بصدق الرسول وصدق ما جاء به من الله ، وردّ افتراءات المشركين حين قالوا أن القرآن سحر وكهانة ، وجاء في الآيات البرهان القاطع على صدق القرآن في تصوير يهز القلوب هزاً ويثير في النفس الفزع من هول الموضوع (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ {٤٤} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ {٤٥} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) ، وختمت السورة بالتسبيح، بعد تمجيد القرآن وبيان أنه رحمةً للمؤمنين وحسرةً على الكافرين،﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ثم تأتي سورة المعارج كالمتممة لسورة الحاقة في وصف يوم القيامة والنار .

•سورة «المعارج»:

العروج : الارتقاء، والمعارج المصاعد، ودلالة اسم السورة تعود إلى وصف الله تعالى بذي المعارج، وقد فسّرته الآية التالية له، فيكون المعنى: أن العذاب الذي سأل عنه السائل واقع بالكافرين ولا دافع له، وهو سيقع بهم من الله ذي المعارج، أي : صاحب المعارج وخالقها، وهي المنازل التي ترتقي بها الملائكة، وهنا دعوة المؤمنين أن يحرصوا على أعلى درجات الجنان، وهذا العروج كائن يوم القيامة، وهو اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة، فاسم السورة يدل على طول ذلك اليوم على الكافر، وقدرة الله تعالى على البعث وعذاب الكافرين في ذلك اليوم الذي يستبعدونه .

تقوم السورة على إثبات القيامة وتصوير عظمتها وطول يومها وأنه قد اقترب، وإنذار من كفر بها وذكر بعض سماتهم ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ... ﴾{١-١٤}، والتركيز في هذه السورة على الهول النفسي لما فيها من ذكر الجزاء وموازينه، أكثر من مشاهد الكون وحركاته، وبيان للنفس الإنسانية وأنها لا تكون إلا مريدة عاملة، وإن لم توفّق للإرادة الصالحة وقعت فى الإرادة الفاسدة والعمل الضار ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فأخبر تعالى أن الإنسان خُلق على هذه الصفة، وأن من كان على غيرها فلأجل ما زكّاه الله به من فضله وإحسانه، وقد ذكرت السورة بعض صفات ترتقي بأصحابها على باقي البشر وتعرج بهم إلى ربهم ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ...﴾{٢٢-٢٥} وفي المقابل حقّرت شأن قسم آخر من الناس وهم الكافرون .

وختمت بالقسم الجليل برب العالمين على أن البعث والجزاء حق لا ريب فيه ، وأن الله تعالى قادر على أن يخلق خيراً منهم ، قال تعالى: (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ...) {٣٤-٤٤}

ويتآخى مطلع سورتي نوح والمعارج في ذكر العذاب الموعود به للكافرين .

•سورة «نوح»:

سُمِّيت هذه السورة الكريمة باسم نوح عليه السلام، لأنها تبين خلاصة دعوته لقومه، وخلاصة موقفهم منها، فقد استخدم عليه السلام شتّى أساليب الدعوة من الجهر والإسرار، والدعوة بالليل والنهار، فهو مثال سامي للدعاة، وبيّنت السورة عناد قومه واستكبارهم عن الحق، وفيها بيان تمام القدرة الإلهية على تحقيق دعوة نوح على قومه، وتبديلهم بغيرهم.

ومن مقاصد السورة التسرية عن النبيّ ﷺ وعن الجماعة المؤمنة في مكة، وعن كل داع إلى الله في الأرض، لأن السورة تعرض تقديم نوح عليه السلام حسابه الأخير بعد صبره على الدعوة المضنية ألف سنة إلا خمسين عاما، ففيها تثبيتاً للمؤمنين وتهديداً للمكذبين.

بدأت السورة بمقدمة تحوي خلاصة المقصد من دعوة نوح عليه السلام وهي التوحيد ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، ثم ذكرت خطاب لنوح عليه السلام مع ربه عز الذي يبرز فيه عدم تقصيره في دعوته لقومه، ومن جانب آخر يبرز تكذيب قومه له ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ...﴾ {٥-٢٥}، وختمت السورة بدعاء نوح على قومه فعاقبهم الله بالطوفان الذى أهلكهم جميعاً ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ...﴾ {٢٦-٢٨} وهي خاتمة تبرز بغضه للكفر والكافرين، ومودته وحرصه على المؤمنين إلى يوم الدين.

سورة نوح تذكر حال من لا يستجيب لدعوة الله وسورة الجن تذكر حال من يستجيب لدعوة الله، لكن العجيب أن سورة نوح تذكر من لم يستجب مع أن نوحًا عليه الصلاة والسلام ظل يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، والجنّ الذين آمنوا كم ظلّ النبي ﷺ يدعوهم؟ هي ليلة، جاءوا فيها يستمعون القرآن واهتدوا دون عناء طويل لكن نوح يقول (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا) لفظة (كلما) تدل على الاستمرار والتكرار (دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ) غطّوا بملابسهم (وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾) ألا تياس منهم؟! لكن نوح عليه السلام ظل فترات طويلة يدعوهم (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾) مرة سرًا ومرة علنًا بلا فائدة! أما الجن فسمعوا مرة واحدة (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾) والجنّ تعجبوا من القرآن مع أنهم مخلوقات في عالمهم ما نتعجب منه لكنهم تعجبوا من هذا القرآن فعلى الإنسان أن يبحث في القرآن أين هذا العجب الذي

جعلهم يؤمنون. قالوا (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) مع أنهم كانوا على الشرك قبل ذلك كما تدل الآيات ودارت الآيات حول التوحيد. إذن نستفيد من سورة نوح والجن أن الهداية بيد الله وأنها قد تأتي لمن لا تقصد أنت أن تهديه وقد يُحرم منها من تسعى لهدايته بكل سبيل والحلّ أن تقول يا رب، اللهم اهدهم. توجّه إلى الله لأن الهداية ليست بيد البشر.

•سورة «الجن»:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى حادثة استماع نفر من الجن إلى قراءة النبي ﷺ القرآن فلما سمعوا آمنوا به، فهذه السورة تبرز إقرار هؤلاء النفر من الجن بالإيمان من خلال ما بيّنوه من صدق الإيمان ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ {١-٢}، وصحة الاعتقاد بتمجيدهم لله تعالى و إفرادهم له بالعبادة ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً ... ﴾{٣-٥})، وكشف الباطل المتوهم حول عالم الجن كالاستعانة بهم والاعتقاد بأنهم يعلمون الغيب وغير ذلك ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ... ﴾{٦-١٠}. فسورة الجن تمهيد لإزالة المعتقدات الباطلة . إنها شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التي كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها أشد الجدل، وما كانوا يزعمونه أن محمداً ﷺ يتلقى من الجن ما يقوله عنهم! فتجيء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التي يجحدونها ويجادلون فيها، بتكذيب دعواهم .

وانتقلت الآيات للحديث عن دعوة رسول الله ﷺ والتفاف الجن حوله حينما سمعوه يتلو القرآن ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾{١٩} فالجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه منه ﷺ ، فسهم منه ما يدهش ويذهل، وملأ نفوسهم وفاض حتى ما يملكون السكوت على ما سمعوا. ثم أمرت الآيات الرسول ﷺ أن يعلن استسلامه وخضوعه لله وأن يخلص عمله كله لله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ...﴾{٢٠-٢٥}.

وختمت السورة باختصاص الله تعالى بمعرفة الغيب، وإحاطته بمعرفة جميع ما في الكائنات ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ...﴾{٢٦-٢٨}.

•سورة «المزمل»:

المزمل: أصله المتزمل، وتعني المتلفّف بثيابه، والمقصود (النبي ﷺ)، فاسم السورة يعود إلى وصف حالة النبي ﷺ في فترة الوحي أول البعثة، حينما رأى جبريل عليه السلام بين السماء والأرض، فأسرع إلى بيته ودخل على خديجة رضى الله عنها قائلًا : زملوني زملوني، فدثروني، فاسم السورة يدل على أمر النبيّ ﷺ بعدم الخوف الذي يدعوه إلى التزمل والاستعانة على

أداء واجبات الدعوة بصلاة قيام الليل، فهو زاد الدعوة ، لأن تكليف حمل أمانة الدعوة ثقيل، ويحتاج لجهاد طويل، فلم يعد هناك نوم.

ابتدأت السورة بنداء الرسول ﷺ نداءً لطيفاً رحيما بعبده الذي كان يجهد نفسه في عبادته ابتغاء مرضاته ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ...﴾ {١-٥}، ثم تناولت الآيات موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله ليقوم بتبليغه للناس، وأمرت الرسول ﷺ بالصبر على أذى المشركين وهجرهم هجراناً جميلاً ، ثم تحدثت عن وعيد الله تعالى للمشركين بالعذاب والنكال يوم القيامة ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ...﴾ {١٢-١٩}

وختمت السورة بتخفيف الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حين قاموا في الليل حتى تورمت أقدامهم، رحمة بهم، ليتفرغوا لبعض شئون الحياة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ..٢٠}

وسورتي المزمل والمدثر متآخيتان في الافتتاح بخطاب النبي ﷺ، ومطلع كلتيهما نازل في قصة واحدة، وهما سورتان متكاملتان...

•سورة «المدثر»:

الدثار : الثوب الذي يُستدفأ به ، ويعود اسم السورة أيضا إلى وصف حالة النبيّ ﷺ في فترة الوحي أول البعثة، حينما رأى جبريل عليه السلام بين السماء والأرض، فأسرع إلى بيته وقال لخديجة "زملوني زملوني، فدثروني"، ففي هذه السورة دعوة النبيّ ﷺ إلى الجد والاجتهاد والتشمير وحمل النفس على النهوض، ومواجهة قريش بالدعوة والإنذار جهارًا، وهو أمر يترتب عليه مشاق كثيرة متنوعة بحاجة إلى استعداد كافٍ .

تضمنت السورة في مطلعها ذلك النداء العلوي بانتداب النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الأمر الجلل؛ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ مع توجيهه ﷺ إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم، والاستعانة عليه بهذه التوجيهات: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ وتشمل تطهير النفس من الشرك ومن ما يغضب الله عز وجل ، والإحسان في دعوة الناس، والاستمرار في الدعوة إلى أن يُنفخ في الصور، وكان ختام التوجيه هنا بالصبر كما كان في سورة المزمل!

وتضمنت السورة بعد هذا تهديداً ووعيداً للمكذبين بالآخرة، وتحدثت عن (الوليد بن المغيرة) ذلك الفاجر الذي سمع كلام الله ورق قلبه له ولكنه أنكره وقال عنه أنه سحر ، ثم أقسم الله تعالى بالقمر وضيائه والصبح وبهائه، على أن جهنم إحدى البلايا العظام ، وتحدثت الآيات عن الحوار الذي يدور بين المسلمين والمجرمين في سبب دخولهم الجحيم ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ...﴾ {٤٢-٤٨} ، وختمت السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان .

والصلة بين سورتي القيامة والمدثر تتجلى في الحديث عن القيامة وأهوالها وأحوال الناس في هذا اليوم العظيم .

•سورة «القيامة»:

دلالة اسم السورة تعود إلى القسَم بيوم القيامة الدال على قدرة الله على بعث الناس ليقوموا بعد موتهم بين يدي الله، والقَسَم باسم السورة يدل على أن يوم القيامة لا مفر منه .

تتضمن السورة تعظيم الله عز وجل الذي لا يتناهى ثوابه وعقابه في ذلك اليوم

تبدأ السورة بمقدمة تبين استبعاد الإنسان المكذب وقوع يوم القيامة مع الرد عليه، وفي السورة كلمتان نستطيع أن نجمع السورة فيهما الأولى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ٣﴾ ، والثانية آخر السورة ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾{٣٦} وهما اعتقادان خاطئان تصححهما السورة: الاعتقاد الأول أن الانسان لن يُبعث، وأثبت الله البعث وذكر بعض أحداث ذلك اليوم ليؤكد أنه لا مفر منه، والاعتقاد الثاني أنه خُلق سدى، والذي يعتقد أنه خلق بدون فائدة لن يعتقد بالبعث ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى...﴾{٣٦-٣٩} هذا الخلق العظيم بعد أن كان شيئًا حقيرًا لا شك أن له صانع، فهل يُعقل أن يصنعه هذا الصنع البديع ليتركه بعد ذلك سدىً؟! حاشاه سبحانه وتعالى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ بلى هو قادر سبحانه وتعالى.

وفي وسط الآيات تثبيت لقلب النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي، وشرع في تلاوته عليه، بادره النبي ﷺ وتلاه معه حرصا على حفظه، فنهاه الله عن هذا، وقال (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه، ويجمعه الله في صدره،﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ...﴾{١٧-١٩} فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون .

وفي آخر سورة القيامة ذكر الله مبدأ خلق الإنسان من نطفة، وذكر مثل ذلك في مطلع سورة الإنسان .

•سورة «الإنسان»:

فيها بيان أن الله تعالى هو خالق الإنسان إذ لم يكن شيئا مذكورًا، فخلقه الله من نطفة أمشاج، وجعل له السمع والبصر، وبيّن له سبيل الهداية والإيمان والشكر من سبيل الضلال والجحود والكفر، فهي بمثابة هتاف نديّ إلى الطاعة والالتجاء إلى الله وابتغاء رضاه، وتذكّر نعمته والإحساس بفضله واتقّاء عذابه، وذلك بحديثها عن أصل الإنسان وبيان مصيره .

فمحور السورة هو: دعوة الإنسان إلى الإيمان والعمل الصالح لنيل الأجر العظيم الدائم حين يُبعث للحساب يوم القيامة، وهو اليوم الذي يتلهى عنه الإنسان الكافر مع علمه بقدرة الله عليه .

تبدأ السورة بمقدمة تثبت قدرة الله على خلق الإنسان وبعثه و جزائه، ثم يأتي التفصيل في عرض أعمال المؤمنين الشاكرين وجزاؤهم يوم القيامة للترغيب فيه، ومما يلفت النظر فيها أنها أكثر سورة ذكر فيها وصف الجنة واختصر في وصف النار قال ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾{٤} ثم قال (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾{٥-٢٢} وخُتمت السورة بأن هذا القرآن هو تذكرة لمن له قلب يعي أو فكر يستضيء بنوره ، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً ﴾{٢٣-٣١}

ولما أخبر الله تعالى في ختام سورة الإنسان أنه ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، افتتح سورة المرسلات بالقسم على أن ما توعدون لواقع .

•سورة «المرسلات» :

المحور الذي تدور حوله هذه السورة هو إثبات اليوم الآخر من خلال بيان ما له تعالى من القدرة على إنبات النبات، وإنشاء الأقوات، فالسورة تسهم في تصحيح موازين القيم في حياة الناس، وبخاصّة فيما يتعلق بالاعتقاد باليوم الآخر الذي هو حجر الأساس في العقيدة السماوية، ولما كانت الرياح التي تسوق السحاب الذي فيه الغيث لإحياء الأرض بعد موتها أدل ما في السورة على تلك المظاهر، اشتق من إرسال اللهُ تعالى لها حيث يشاء اسم السورة .

تبدأ السورة بالقسم بأنواع الملائكة المكلّفين بتدبير شؤون الكون على أن القيامة حق ، ثم تعرض مشاهد من يوم القيامة تبرز مصير الكافرين والمؤمنين في ذلك اليوم، ويتكرر في السورة كثيرا قوله تعالى (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) وقبلها وبعدها دائمًا تجد دلائل البعث أو أشياء تتعلق بالبعث كأنه بعد أن يذكّرك يقول هل ستتذكر وتؤمن أم لا؟ وتحدث الآيات عن دلائل قدرة الله تعالى على إعادة الإنسان بعد الموت، وقدرته في الخلق ونعمه الكثيرة على البشر﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾{٢٠-٢٨} ثم تنقل الناس نقلة عجيبة إلى يوم القيامة وتحدث عن مآل المجرمين في الآخرة، وما يلقون من عقاب ونكال ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۞ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ...﴾{٢٩-٣٩} ثم تذكر حال المؤمنين المتقين وما أعده الله لهم من إكرام ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ...﴾{٤٠-٤٤}. وفي آخر السورة (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) فالذي لا يؤمن بالقرآن بماذا يؤمن؟! الذي لا يصدّق بهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه فبماذا يصدّق؟

الجزء الثلاثون

جزء عم، من أوائل ما نزل على النبي ﷺ، ومع أن السور آياتها قصيرة ولكنها طرقات على القلب الغافل .

سورة « النبأ » :

النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، وهو الخبر الذى يلهى عن ما سواه من أخبار، ودلالة اسم السورة تعود إلى تساؤل المكذبين عن اليوم الأخر، مع بيان أنه نبأ من الله تعالى لا مجال لتكذيبه أو الشك فيه، والاسم يوحي كأنه ليس هناك نبأ غيره، فيوم القيامة هو النبأ الأعظم.

تبدأ السورة بإستنكار الله على من يتعجب من يوم القيامة ولا يصدق به، ثم تعظم الآيات شأن اليوم الآخر وتؤكد قدرة الله تعالى بعرض بعض مظاهر قدرته تعالى على الخلق والبعث في الدنيا ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً ..﴾، ثم عرض لمصير الطاغين المكذبين وحالهم في جهنم، ومصير المؤمنين المتقين والنعيم الذي ينعم الله تعالى به عليهم في الجنة في ذلك اليوم ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً...﴾.

وختمت بالحديث عن يوم القيامة حين يخضع الكون بكل ما فيه لله تعالى وحده، ويلقى كل امرئ جزاء عمله ويتمنى الكافر لو يموت ويفنى ويكون ترابا من شدة الحسرة والندم .

سورة « النازعات » :

النزع هو قلع الشيء، وأما دلالة الاسم فتعود -على أرجح الأقوال- إلى وصف حال الملائكة وقت احتضار الكافر للموت، فهي تنزع روحه من جسده نزعة بليغة شديدة مهما تفرقت روحه في جسده .

تبدأ السورة بالملائكة وهم يدبرون شؤون الخلق بأمر الله تعالى وينزعون أرواح الكافرين نزعا شديداُ، أما روح المؤمنين فتخرج بخفة و نشاط ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾، ثم بعد ذلك تأتى صور قيام الساعة وحال الكافرين وتعجبهم من بعثهم بعد الموت ووقوفهم للحساب بلا نوم ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ... ﴾.

ثم تناولت الحديث عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية وكيف كان عقابه وذلك للاعتبار﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى...﴾ ثم يستنكر الله عليهم كفرهم به وبقدرته ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ...﴾ ثم يأتى تذكير بيوم القيامة مرة أخرى، وحال الكافرين والمتقين فيه، وإنذار لنا بأن نعتبر و نتقى ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ... ﴾.

وتُختم السورة ببيان وقت الساعة الذي يستبعده المشركون .

سورة «عَبَسَ» :

العبوس: قطوب الوجه من ضيق الصدر، ودلالة اسم السورة تعود إلى حادثة مجيء عبد الله بن أم مكتوم إلى النبي ﷺ، وقد كان يدعو جماعة من كبار قريش يأمل إسلامهم، فألّح ابن أم مكتوم على النبيّ ﷺ في طلب الهدى وهو لا يعلم حال النبي ﷺ لأنه أعمى، فكره النبي ﷺ فعل ابن أم مكتوم وعبس في وجهه، وجعل يعرض عنه ويقبل على الأخرين، فأنزل الله هذه السورة معاتبة نبيه ﷺ في إعراضه عن طالب الهدى، وإقباله على المستكبرين .

تبدأ السورة بمعاتبة للنبي ﷺ في حادثة ابن أم مكتوم ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى...﴾ وتبين أن الهداية من الله فضل لا يدري النبي ﷺ من يستحقه، ثم انتقل السياق إلى بيان علوّ شأن القرآن، ثم ذكر موقف الإنسان من هذا الفضل الإلهي ونكرانه و تكبره ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ..﴾ وفيها من التأنيب للبشر كلهم تعقيبا على القسم الأول من السورة أن الانسان كما يتكبر على من هو أضعف منه من البشر وينسى أن ما هو فيه من فضل فهو من الله القادر على نزعه منه يوم القيامة، يوم يأتيه مجرد من وسائل قوته فى الدنيا ندمان على ما ضيع.

وختمت ببيان أهوال القيامة وفرار الإنسان حتى من أقاربه فزعاً وخوفاً ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۝ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ...﴾.

سورة «التكوير»:

كور الشيء: إدارته وضم بعضه إلى بعض. ودلالة اسم السورة تعود إلى حدث تكوير الشمس يوم القيامة، وتكوير الشمس هو: فساد جِرمها لتداخل ظاهرها في باطنها بحيث يختل تركيبها فيختلّ لاختلاله نظام سيرها.

واسم السورة يدل على أن من جعل للشمس مدارًا خاصًا بها في الدنيا، قادر على إفساد جرمها يوم القيامة، فحور السورة هو التهديد بيوم الوعيد وإثبات حقيقة الوحي.

ابتدأت بذكر الانقلاب الكوني الهائل الذي يحدث يوم القيامة فيتغير كل شيء في الكون في مشاهد تثبت قدرة الله وتبعث الرعب والذهول فى نفوس الناس ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ..﴾، ثم قسم الله بالكواكب التي تظهر بالليل وتختفي فى النهار وأقسم بالليل والنهار، وأن هذا الوحي والقرآن الذي أُنزل على النبى محمد ﷺ حق من عند الله، فاستمسك به يكن لك النجاة من أهوال يوم القيامة .

وخُتمت ببيان بطلان مزاعم المشركين حول القرآن العظيم ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ...﴾

سورة «الإنفطار» :

أصل الفطر: الشق طولًا، ودلالة اسم السورة تعود إلى وصف السماء بالانفطار مما يفيد بأنها ستنشق شقًا عظيمًا متزايدًا يؤدي بالنهاية إلى دمارها، فاسم السورة يدلّ على كمال قدرة الله تعالى .

ومقصود السورة التحذير من الانهماك في الأعمال السيئة اغترارًا بإحسان الرب و كرمه، ونسيانًا ليوم الدين الذي سيحاسب فيه على النقير والقطمير.

ابتدأت السورة ببيان مشاهد الانقلاب الكوني الرهيب الذي يحدث يوم القيامة وتأثيره على كل شيء ﴿إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ..﴾، ثم تحدثت عن جحود الإنسان وكفرانه بنعمة ربه، وذكرت علّة الجحود والإنكار، ووضحت أن لكل إنسان ملائكة يتعقبون أعماله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ..﴾، وذكرت السورة انقسام الناس لقسمين: أبرار وفجار وبينت عاقبة كلا الفريقين. ثم خُتمت بتصوير هول القيامة وتفرد الله تعالى بالحكم والسلطان ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾.

سورة «المطففين» :

التطفيف: نقص المكيال والميزان، وطفف على الرجل: أعطاه أقل مما أخذ منه، فالوصف المطففين يدل على أنهم إذا كان لهم الحق أخذوه مع زيادة، وإن كان عليهم الحق أعطوه مع تخسير، والذي دفعهم لذلك هو عدم إيمانهم بميزان العدل الإلهي يوم القيامة.

نزلت لتعالج حالة التطفيف في الكيل و سائر الحقوق والواجبات، فتبدأ بتوعد الله لمن يُنقص فى الوزن والكيل فى الدنيا إما فى التجارة أو المعاملة أو مع الله فلا يقدر الله حق قدره ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ...﴾، وتعتبر هذه إحدى حالات الظلم والانحراف الأخلاقي الذي كان سائدًا في الجاهلية، وكان يقودهم إلى ذلك التكذيب بالحساب يوم الدين، حتى استحقوا الوصف بالفجار، والتحذير من هذا الفعل يجعل السورة تبني في نفوس المؤمنين الرقابة من الله تعالى فهو العادل، عنده أعمال الكافرين والمؤمنين محفوظة ليجازيهم بها، فتتحدث السورة عن الأشقياء الفجار وتصور جزاءهم يوم القيامة ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ...﴾، وتتحدث عن المتقين وما لهم من نعيم في الآخرة ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ..﴾.

وتُختم السورة ببيان حال الكفار و المؤمنين ففى الدنيا يستهزأ الكفار من المؤمنين ويستضعفوهم أما فى الآخرة يضحك المؤمنون من الكفار .

سورة «الإنشقاق» :

تعود دلالة اسم السورة إلى وصف السماء بالانشقاق يوم القيامة، وهو يدل على تصدعها وسمعها لربها وطاعتها له في أمره، فاسم السورة دليل على كمال قدرة الله تعالى وكمال خضوع واستسلام الكون له يوم القيامة، واستسلام السماء والأرض في طواعية وخشوع ويسْر.

ومقصد السورة بيان أن أولياء الله يُنعمون وأعدائه يعذبون، لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث، فينقسمون حين ذلك إلى أهل ثواب وأهل عقاب، فتبتدئ السورة بذكر بعض مشاهد الآخرة ﴿ إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ..﴾ ثم تتحدث عن الإنسان الذي يكدّ في سبيل عيشه ليقدم لآخرته ما يشتهي من صالح أو طالح فيحاسب عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ ..﴾، وتُختم السورة بتوبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالله مع وضوح الآيات وبشرتهم بعذاب أليم ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ..﴾ .

سورة «البروج» :

البروج: القصور، فوصف نجوم السماء بالبروج يدل على أن الله تعالى خلقها على نحو بارز منيع ليُستدل بها على عظمته تعالى وكمال قدرته، فقد أقسم الله بالسماء التي خلق الله فيها هذه البروج ، ليؤكد حقيقة أن خالق هذه البروج شاهد على ما يجري في كونه، وقادر على إنزال بطشه بالظالمين.

يدور محورها حول حادثة (أصحاب الأخدود) وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان، فهي تسلية المؤمنين بأن ما أصابهم من الفتن قد أصاب غيرهم ما هو أكثر منه، فلما كانت الأخاديد خطوطًا جُعلت في الأرض مشتعلة بالنار لتفتن المؤمنين، أقسم بالله بما تضمنته السماء من بروج تشبه مدارات متلألئة بأنوار النجوم الملتهبة على أنه منتقم من الظالمين . ابتدأت السورة بالقسم على هلاك كل المجرمين ﴿وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ..﴾ ثم توعدت الفجرة الذين أصرّوا على فتنة المؤمنين ليحيدوا عن طريق ربهم، وبيّنت مصير المتقين في جنات النعيم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ..﴾، خُتمت بقصة فرعون وثمود ليأخذ المجرمين العظة والعبرة من هلاكهم، وأن بطش الله أقوى من بطشهم و أنه محيط عليهم يفعل بهم ما يريد وأنه تعالى يحفظ القرآن فى لوح محفوظ .

سورة «الطارق» :

الطارق: السالك الطريق، لكن خُص في التعارف بالآتي ليلًا. فالدلالة اللفظية تعود لمعنيين، أحدهما أن يكون وصف النجم بالطارق عائدًا على ظهوره ليلا، أو عائدة على طرق الشهب للشياطين المسترقة للسمع .

ابتدأت بالقسم بالسماء ونجومها على أن كل إنسان قد وُكّل به من يحرسه ويتعهده من الملائكة الأبرار، ثم ساقت الأدلة على قدرة الله تعالى على إعادة الإنسان بعد فنائه ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ..﴾، وأخبرت عن هتك الأستار وكشف الأسرار يوم القيامة حيث لا معين ولا نصير للإنسان ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، وخُتمت ببيان معجزة القرآن وصدقه وتوعدت الكفرة بعذاب أليم ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ..﴾.

سورة «الأعلى» :

الأعلى : هو الله الذي هو أعلى من كل عالٍ، بمعنى التنزه والتسامي والترفع عن أي شائبة نقص.

فالسورة تتضمن الثابت من قواعد التصور الإيماني، من توحيد الرب الخالق وإثبات الوحي الإلهي، وتقرير الجزاء في الأخرة، وهذه مقوّمات العقيدة الأولى، ثم تصل العقيدة بأصولها البعيدة بذكر صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، فالسورة تدل على وحدة الحق، وهو الأمر الذي تقتضيه وحدة الجهة التي صدر عنها أنه حق واحد يرجع إلى أصل واحد، وهو الله الأعلى المنزه عن النقائص.

بشرت رسول الله ﷺ بحفظه للقرآن فلا ينساه أبداً، وبينت علم الله تعالى للغيب وتيسيره أمور نبيه ﷺ بقدرته ﴿سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى ...﴾، وأمرت بالتذكير بهذا القرآن العظيم بالموعظة الحسنة التي ينتفع بها أصحاب القلوب الحية ويستفيد منها أهل الإيمان ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى...﴾، وخُتمت ببيان فوز من طهّر نفسه من الأثام وزكاها بصالح الأعمال .

سورة «الغاشية» :

الغاشية: كل ما يغطي الشيء،والمقصود بها (القيامة)، وأما دلالة الاسم فتعود إلى بيانها بعض ما يغشى الناس من أهوال ذلك اليوم، فينعكس أثره على وجوههم، فمنها وجوه خاشعة عاملة ناصبة، ومنها وجوه ناعمة لسعيها راضية .

تبدأ بالحديث عن القيامة و أحوالها و أهوالها وجزاء الكافر والمؤمن وقتها ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ...﴾، ثم تسوق الأدلة والبراهين على وحدانيته تعالى و جلاء قدرته فى خلق الإبل، ورفع السماء، ونصب الجبال، وتسطيح الأرض .

وتُختم بالتذكير برجوع الناس جميعا لله تعالى، فأنت يا محمد ﷺ وكل داعية إلى الله ليست لك سيطرة عليهم و لكن الله هو من سيحاسبهم على قدر أعمالهم ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ...﴾.

سورة «الفجر»:

الفجر هو وقت ابتداء ظهور نور الشمس حينما تأخذ ظلمة الليل في الانصرام، و هو وقت مبارك، فيه ينتهي وقت النوم، وفيه صلاة الفجر، ومن ثَمَّ يبدأ وقت الإقبال على أعمال الحياة، وكأنه يعلن عن الحياة بعد الموت، فينتج عنه انبعاث النيام،

وكأنه بعث جديد بعد موت متكرر، والقسم بالفجر وما تبعه من الأزمان يدلّ على بديع صنع الله تعالى وقدرته فيما أوجد من نظام لهذا الكون .

تبدأ بذكر قصص بعض الأمم المكذبة لرسل الله وتذكر عاقبتهم ليطمئن الله قلوب المؤمنين بأنه كما أهلك عاد الظالمة التى اتخذت فى الجبال بيوت فارهة محكمة بالأعمدة وأهلك ثمود وقوم فرعون بطغيانهم، فإن ربك بالمرصاد لمن يطغوا عليكم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ...﴾، ثم تبيّن سنة الله في ابتلاء عباده بالخير والشر والغنى والفقر وحب الإنسان الشديد للمال ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ...﴾، ثم تنتقل للحديث عن الآخرة و أهوالها وتبين مآل الكافر والمؤمن فيها .

سورة « البلد » :

تعود دلالة اسم السورة إلى القسم بمكة، وهي البلد الحرام، ومقصود السورة هو نفي القدرة عن الإنسان وإثباتها لخالقه سبحانه، بذكر ما للإنسان من هموم الحياة وضنكها، وهي تذكر السبب المخلص من هذا الضنك والموصل إلى السعادة الأبدية، وهو اتّباع هدى الوحي المنزل في البلد الحرام، ليتحقق للمؤمن الراحة الأبدية يوم القيامة، وأما من أعرض فسينتهي إلى الكبد الأكبر يوم القيامة، ويكون من أخسر الأخسرين.

ابتدأت بالقسم بالبلد الحرام الذي هو سكن الرسول عليه السلام تعظيما لشأنه ، وبيانا للمشركين أن إيذاؤه فيه من أكبر الكبائر عند الله تعالى، وتحدثت عن كفّار مكة الذين اغترّوا بقوتهم، وأنفقوا أموالهم ظنا أن إنفاق المال يدفع عذاب الله، ثم تناولت أهوال القيامة وشدائدها وعقباتها التي لا يمكن أن تُجتاز إلا بالعمل الصالح ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾، وخُتمت بالتفريق بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ومآل السعداء ومآل الأشقياء .

سورة «الشمس» :

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القسم بالشمس، كونها أحد أبرز مظاهر كمال قدرة الله تعالى، سورة الشمس والوضوح والفطرة التي تبعث النفس عليها فإما تمضى فى طريق الفجور و إما تمضى فى طريق التقوى،

ومقصد السورة هو إيقاظ النفس البشرية واستعداداتها الفطرية وما جبلها الله تعالى عليه من خير وشر وهدى وضلال، ليتحمل الإنسان دوره في شأن نفسه، وربط ذلك بالقسم بالظواهر الكونية الدالة على الخالق، ثم يذكر الله قصه ثمود قوم صالح بعد أن أتاهم الله آية فلم يحافظوا عليها و أختاروا طرق الفجور حتى أهلكهم الله وباتوا عبرة لمن يعتبر ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ..﴾

سورة «الليل» :

تعود دلالة اسم السورة إلى القسم بالليل حال كونه يغطي الأشياء في ظلامه الدامس، ويدل على أن الله الذي خلق الليل يعلم ما يغطيه هذا الليل وما يجري فيه من أمور غيبية في الخفاء، ومقصد السورة هو بيان التصرف الإلهي التام في النفوس، من خلال الإيحاء بما وراء تقلب الليل والنهار، فإن الذي يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر، ولا يتركهم سُدى ولا يخلقهم عبثًا، كما وأن الليل والنهار اللذيْن أقسم الله بهما يتناسبان مع المُقسَم عليه وهو أن سعي الناس منه خير وشر، ثم نهايته إما إلى النعيم أو إلى الجحيم.

ابتدأت بالقسم بالليل إذا غشي الخلائق ، وبالنهار إذا أنار الوجود ، وبالخالق العظيم للذكر والأنثى ، أن عمل الخلائق مختلف ، وطريقهم متباين ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾، ووضّحت سبيل السعادة وسبيل الشقاء، وبيّنت طريق طالب النجاة وأوصاف الأبرار والفجار.

وخُتمت بذكر نموذج المؤمن الصالح الذي ينفق في وجوه الخير ليزكي نفسه ويصونها من عقاب الله ، فضربت مثلا بأبي بكر رضي الله عنه حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾

سورة «الضحى» :

الضحى: حين تطلع الشمس فيصفو ضوئها. ودلالة الاسم تعود إلى قسم الله تعالى بهذا الوقت الدال على ابتداء النهار على أنه تعالى ما ترك سيدنا محمدًا منذ خلقه، وما كرهه منذ أحبه، وفي ذلك رد على امرأة من قريش زعمت أن الوحي انقلع عنه ﷺ لأن ربه قد تركه بغضاً له. فمقصد هذه السورة بيان أن النبيّ ﷺ في عين الرضا دائما لا ينفك عنه في الدنيا ولا في الآخرة، وأن انقطاع الوحي لفترة ما هو إلا ابتلاء له حكمة، فالسورة كلها تسرية وتسلية وترويح وتطمين له ﷺ، واسمها دال على ذلك، لأنه قسم بأشرف أوقات النهار، وهو ﷺ أشرف الخلق، ونور الضحي الحسي يشبه نور النبي ﷺ المعنوي ، ثمّ إن الضحى بما يحمل دلالة الأنس بإبتداء حركة الناس، متلائم مع تأنيسه ﷺ في بداية الدعوة .

سورة «الشرح» :

شرح الصدر: أي بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه، وشرح الله صدره لقبول الخير، فالدلالة اللفظية تفيد بسط النفس وإزالة الشدة من قلبه ﷺ من تحمل أعباء الرسالة وما يلقاه من أذى الفجار.

وتحدثت السورة عن إعلاء منزلته ﷺ، ورفع مقامه، وقرن اسمه باسم الله تعالى، وآنسته بقرب الفرج والنصر على الأعداء ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾، ثم ختمت بتذكيره بواجب التفرغ لعبادة الله بعد انتهائه من تبليغ الرسالة

شكرا لله على نعمه الجليلة . فالسورة جاءت كتكملة لسورة الضحى التي سبقتها، فالتحديث بنعمة الله المذكور في سورة الضحى يكون بالنصَب في عبادة الله والنصب إليه، والرغبة إليه بتذكر إحسانه و عظيم رحمته تعالى.

وتتكلم الأربع سور «التين، والعلق، والقدر، والبينة» عن القرآن:

- سورة التين بدأت بالقسم بالبقاع المقدسة والأماكن المشرفة التي خصها الله بإنزال الوحي على الأنبياء وهي: بيت المقدس، جبل الطور، مكة المكرمة.
- سورة العلق تتكلم عن لحظة نزول القرآن وأول السور القرآنية نزولا على النبي ﷺ.
- سورة القدر تتكلم عن زمان نزول القرآن في ليلة مليئة بكرامات الله ورحماته.
- سورة البينة تتكلم عن قدر القرآن و عظمته فى وحدة وقوة المؤمنين به .

سورة «التين» :

تعود دلالة اسم السورة إلى القسم بالتين والزيتون. وتعالج هذه السورة موضوعين بارزين هما :

١- تكريم الله تعالى للنوع البشري وحقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الناس عليها والوصول بها الى الكمال المقدر لها.

٢- الإيمان بالحساب تقريراً للجزاء وإثباتاً للمعاد.

ابتدأت بالقسم بالبقاع المقدسة على أن الله تعالى كرم الإنسان بخلقه في أجمل صورة وإذا لم يشكر فسيرد إلى الجحيم، ووبّخت الكافر على إنكار البعث والنشور، ثم خُتمت بعدل الله في إثابة المؤمنين وعقاب الكافرين .

سورة «العلق»:

العلق : التشبث بالشيء، ودلالة اسم السورة تعود إلى الإشارة لأصل الإنسان في رحم أمه، وإلى قدرة الخالق سبحانه...

ابتدأت بفضل الله تعالى بإنزاله القرآن، وبيان عظيم قدرته تعالى، ببيان خلق الإنسان من علق، وقدرته تعالى على تعليمه بعد خلقه وفي ذلك دلالة على أنه سبحانه ذو الفضل الواسع، والإنسان لا يملك شكر هذه النعم ولو قضى عمره ساجداً. ثم تحدثت عن طغيان الإنسان في هذه الحياة وتمرده على أوامر الله بسبب الغنى، بينما كان عليه أن يشكر النعمة لا أن يجحدها ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾

و تناولت قصة (أبي جهل) الذي كان يتوعد الرسول ﷺ وينهاه عن الصلاة (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ ...﴾ وتابعت الآيات بوعيد ذلك الكافر بأشد العقاب، كما أمرت الرسول الكريم بعدم الإصغاء له، وختمت السورة بالدعوة للصلاة والعبادة ليتناسق البدء مع الختام، قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾.

سورة «القدر» :

تتحدث السورة عن بدء نزول القرآن العظيم، وعن فضل ليلة القدر عن سائر الأيام والشهور لما فيها من تجليات ونفحات ربانية، فهي ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى، وهو الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته وآثاره على البشرية جميعا، وتحدثت السورة عن الملائكة الأبرار ونزولهم في هذه الليلة على الأرض حتى طلوع الشمس، وعن سلام هذه الليلة من كل آفة وشر.

سورة «البينة»:

البينة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة، فوصف النبيّ ﷺ وما أنزل عليه من القرآن بالبينة يدل على أن رسالته حجة واضحة وعلامة على الصدق، وأنه يبين الحق والباطل من الاعتقاد، والحلال والحرام من الأحكام.

وردت السورة في مورد إقامة الحجة على الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب والمشركين، بأنهم متنصلون من الحق مصرون على الكفر عناداً، ولإثبات ذلك تضمنت السورة حقائق، منها أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويلهم عن ضلالهم وانحرافهم إلى الهدى، وأن أهل الكتاب لم يتفرقوا عن جهل، بل تفرقوا بعدما جاءهم العلم، وأن أصل الأديان واحد، وقواعده بسيطة ينبغي أن تجمع الناس لا أن يتفرقوا عنها.

تنقسم السورة لقسمين: الأول: إقامة الحجة على أهل الكتاب والمشركين المكذبين ببعثة النبي ﷺ بالبينة، والثاني: بيان مصير كل من الكافرين والمشركين والمؤمنين يوم القيامة.

سورة «الزلزلة» :

سُميت السورة بذلك لحديثها عن هول زلزلة الأرض يوم القيامة، والأرض هي بداية قصة استخلاف بني آدم، وهي نهاية هذه القصة، واسم السورة يُشير أيضا إلى زلزلة القلوب في ذلك اليوم، وانكشاف الأمور بشهادة الأرض على الإنسان بأمر من الله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ فيظهر المقدور وينصرف كل إنسان ليلقى مصيره من خير أو شر ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾

سورة «العاديات» :

هذه السورة تبين طبيعة الإنسان، فهو جاحد لنعم ربه، بخيل لحبه المال، مهمل الاستعداد ليوم القيامة، وقد حوت السورة علاج ذلك بتذكر البعث وما فيه من الجزاء. ومحور السورة هو: بيان علم الله القائم بأعمال البشر ونواياهم، فهو سبحانه يعلم من

يسخر نعم الله عليه في سبيل الله، ومن يسخر نعم الله عليه للصد عن سبيل الله، ولما كانت الخيول العادية هي الأداة الأولى للقتال، الذي قد يكون في سبيل الله فيحرز بذلك المقاتل أعظم الأجور من الله، وقد يكون في سبيل الصد عن دين الله فيكون ذلك أبرز مظاهر كنود الإنسان لله، أقسم الله بها في بداية السورة الكريمة وهي تغير على الأعداء وتعدو عدواً قويا يصدر عنه الضبح وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد عدوها، وتتقدح النار من صلابة حوافرها وقوتها، وتثير الغبار حولها، والتي توسط براكبها جموع الأعداء، أقسم بها على جحود الإنسان لنعم الله وحبه للمال، ثم خُتمت السورة بأن مرجع الخلائق لله تعالى عندما يبعث من في القبور.

سورة «القارعة»:

القارعة: القيامة، وسُميت بذلك لأن الله يصور مشهد قرع القبور من الناس كما ستقرع قلوبهم من الفزع يومها، واسم السورة يبين أنها شديدة التأثير على الناس وكأنها تضربهم ضربًا، وتقسيم السورة لقسمين: مقدمة تهوّل أمر القيامة حيث ينتشر الناس كالفراش المتطاير والجراد المنتشر الذي يموج بعضه في بعض من شدة الفزع والهول، وتتحدث عن نسف الجبال وتطايرها، ثم بيان انقسام الخلق لسعداء و أشقياء، ومصيرهم إما إلى جنة وإما إلى نار .

سورة «التكاثر» :

السورة تحذر من التلهي بتكثير المال ومتاع الدنيا عن الموت الذي هو أول منازل الآخرة، إلى أن يصيروا إلى القبور التي لا تكاثر فيها ولا تفاخر، و تكرر الزجر للتخويف والإنذار﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، وتختم ببيان أهوال القيامة التي لا ينجو منها إلا المؤمن وتبين أن الناس سيحاسبون على النعيم الذي كانوا يتقلبون فيه في الدنيا.

سور «العصر» :

هذه السورة جاءت في غاية الإيجاز والبيان لتوضيح سبب سعادة الإنسان أو شقاوته و بيان قصر مدة لبث الإنسان في الدنيا وحثه على تدارك ما بقي من عمره ليؤمن ويعمل صالحًا، وإلا كان من الخاسرين.

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القسم بالعصر، الذي هو الجزء المعروف من النهار، وهو ما بين آخر وقت الظهر إلى حين اصفرار الشمس، والقسم به يدل على قصر مدة حياة الإنسان في هذه الدنيا، وذلك لأنه يؤذن بانتهاء النهار .

أقسم الله تعالى بالعصر على أن جنس الإنسان في هلاك وخسران، ويستثنى من الخسران كل من اتصف بهذه الصفات وهي: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والاعتصام بالصبر، وهي أسس الفضيلة والدين.

سورة «الهمزة» :

الهماز: العياب في الغيب، واللماز: العياب بالحضرة، ودلالة اسم السورة تعود إلى الحديث عن الذين يعيبون الناس ويأكلون أعراضهم بالسخرية والطعن ، وذم من يشتغلون بجمع المال وتكديس الثروات وكأنهم مخلدون في الدنيا ، وذكرت السورة عاقبتهم بدخولهم النار، وبينت الآيات عظم النار وشدتها على كل من يكفر بالله تعالى وينسى شكر نعمه.

سورة «الفيل» :

تتحدث السورة عن قصة أصحاب الفيل (جيش أبرهة الأرشم) حين قصدوا هدم الكعبة، فرد الله كيدهم في نحورهم، وأرسل عليهم طيرا حملت حجارة أهلكتهم، وجعلهم تعالى عبرة لكل معتبر، وهي حادثة مشهورة يعرفها العرب تماما لمعاينتهم إياها، وتدل على رعاية الله لبيته الحرام، وهو المكان الذي اختاره ليكون محضن العقيدة الجديدة، والنقطة التي يبدأ منها زحف المؤمنين بهذه العقيدة لمطاردة الجاهلية في أرجاء الأرض .

سورة «قريش» :

تعود الدلالة السياقبة لاسم هذه السورة إلى قبيلة قريش، الذين أنعم الله عليهم، حيث كانت لهم رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف للشام للتجارة، وأكرمهم الله بنعمة الأمن فكانت قريش تخرج في تجارتها فلا يتعدى أحد عليها، وجعلهم آمنين من الجوع والخوف، فينبغي لقريش أن تخص الله وحده بالعبادة، فنعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لشأن هذه الواحدة ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾

سورة «الماعون» :

الماعون : هو اسم جامع لمنافع البيت كالقِدر والفأس وغيرها، ودلالة اسم السورة تعود إلى بيان أن المكذبين بالدين بلغ بهم السوء إلى درجة أن يمنعوا الناس من الماعون مهما كان بسيطًا و متيسرًا . فالتكذيب بالبعث يجري على مساوئ الأخلاق، والذى يكذب بالدين هو الذى يمنع أقل شئ عن الناس.

تحدثت الآيات عن فريقين : الفريق الأول : فريق الكافر الجاحد المكذب بالجزاء والحساب في الآخرة ،وذكرت صفات أصحاب هذا الفريق فهم لا يعطون اليتامى حقوقهم ويزجرونهم ولا يفعلون الخير، ويبخلون عن إطعام الطعام .

والفريق الثاني : هم المصلون الذين إن صلّوا لم يرجوا ثوابا وإن تركوا الصلاة لم يخشوا عقابا ، أولئك هم المنافقون الذين يؤخرون الصلاة عن أوقاتها تهاوناً ، وهم الذين يتركون الصلاة سراً ويصلونها علانية ، ويمنعون عن الناس الزكاة وكل خير .

فتوعدتهم السورة بالويل والهلاك وشنعت عليهم أعظم تشنيع .

سورة «الكوثر» :

الكوثر : نهر في الجنة وهو للنبي ﷺ، واسم السورة بيان لما منح الله نبيه ﷺ من الخير الكثير، لعلوّ منزلته وفضله، وفي ذلك ترغيب بالإيمان به حتى يحظى المؤمن بشيء من هذا الكوثر، ودعته لإقامة الصلاة المفروضة عليه ونحر النسك تقربا لله، وختمت السورة ببشارة للنبي ﷺ بخزي عدوه المبغض له، ووصفته بأن عدوه هو من سيقطع ذكره من خير الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

سورة «الكافرون» :

هي سورة البراءة من الشرك والضلال، عندما دعا المشركون رسول الله عليه السلام للمهادنة وطلبوا عبادة إلهه سنة وآلهتهم سنة، ففصلت الآيات وقطعت أطماعهم بتوجيه الخطاب للنبي ﷺ أن قل يا محمد للذين كفروا لا أعبد الأصنام التي تعبدونها، ولا أنتم عابدون الله عز وجل الذي أعبده، فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون لإشراككم به. فأنا لا أعبد مثل عبادتكم ولا أنتم عابدون مثل عبادتي التي هي توحيد . فالسبيل الوحيد للالتقاء بينهما هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإيمان بجملته.

- سورتى النصر والمسد: صورة لنصر المؤمنين وفتح الله عليهم وصورة لعذاب الله لمن عصى .

سورة «النصر» :

بيان أن الله تعالى سينصر رسوله ﷺ على أعدائه ويظهر دينه، وسيكون النصر شأن أمته طالما التزمت بدين ربها، وأثبت ذلك إضافة النصر إلى الله تعالى، وكأنه لا نصر لغير هذه الأمة. وكان ذلك النصر بفتح مكة، حيث أعز الله تعالى الإسلام ونصر المسلمين وانتشر الإسلام، ودخل الناس دين الله أفواجا وارتفعت راية الحق عالية شامخة، وفي السورة أمر بتسبيح الله وشكره واستغفاره وبيان أنه يتوب على كل من تاب من المسبحين المستغفرين.

سورة «المسد» :

المسد: حبل يُتخذ من أوبار الإبل، ودلالة اسم السورة تعود إلى الحديث عن هلاك وخسارة (أبي لهب) الذي كان شديد العداء لله ورسوله، فما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال ولا ما كسب من جاه، ووصف حالة امرأته التي كانت تمشي بالنميمة بين الناس وتؤذي رسول الله ﷺ، وكانت تضع في الدنيا في عنقها حبلاً من ليف تحتطب فيه، فسيجعل الله في عنقها يوم القيامة حبل مفتول من نار زيادة في التنكيل والذل، جزاء ما كانت تقوم به في الدنيا.

سور«الإخلاص والفلق والناس» :

ينتهى القرآن بالتوحيد لله وحده، وعدم التوجه إلا إليه، والدعاء الى الله بتوحيد الألوهية والربوبية وبأسماءه وصفاته، للاستعاذة من شر الناس ومن شر الشيطان .

سورة «الإخلاص»: إخلاص المسلمين، أنهم قد تبرؤوا مما يدعيه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث، فحقيقة الإخلاص: التبري عن كل ما دون الله، ومقصود هذه السورة بيان حقيقة الذات الأقدس ونفي النقص عنه سبحانه والاعتماد عليه في جميع الأحوال، فهو تعالى الواحد الأحد الذي لا شبيه له ولا نظير ولا صاحبة له ولا ولد ولا شريك، الذي يصمد إليه الناس، الدائم الباقي الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء.

سورة «الفلق» : الفلق: الصبح، ومقصد السورة هو التوجيه إلى الاعتصام بالله من شر كل ما انفلق عنه الخلق الظاهر والباطن، على وجه الإجمال والتفصيل، من شر إبليس وذريته، ومن شر كل ذي شر خلقه، ومن شر الليل المظلم ووحشته، ومن شر السواحر، ومن شر كل حاسد يتمنى زوال النعمة عن المحسود. وقد دلت السورة أن السحر له حقيقة، يُخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله .

سورة «الناس» : يدل اسم السورة على أن الله وحده هو رب الناس وملكهم وإلههم، فهو سبحانه لكمال قدرته وشمول علمه المستعاذ به من شرور وساوس الجنة وغواة الإنس، فالاستعاذة تكون من شر الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، وتكون هذه الوسوسة من شيطانين: شيطان الجن الذي يوسوس في الصدور، و،شيطان الإنس الذي يأتي علانية، لذلك وجبت الاستعاذة من الصنفين.

تم بعون الله وحسن توفيقه، والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا ..

https://www.facebook.com/lydbroteam/